المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

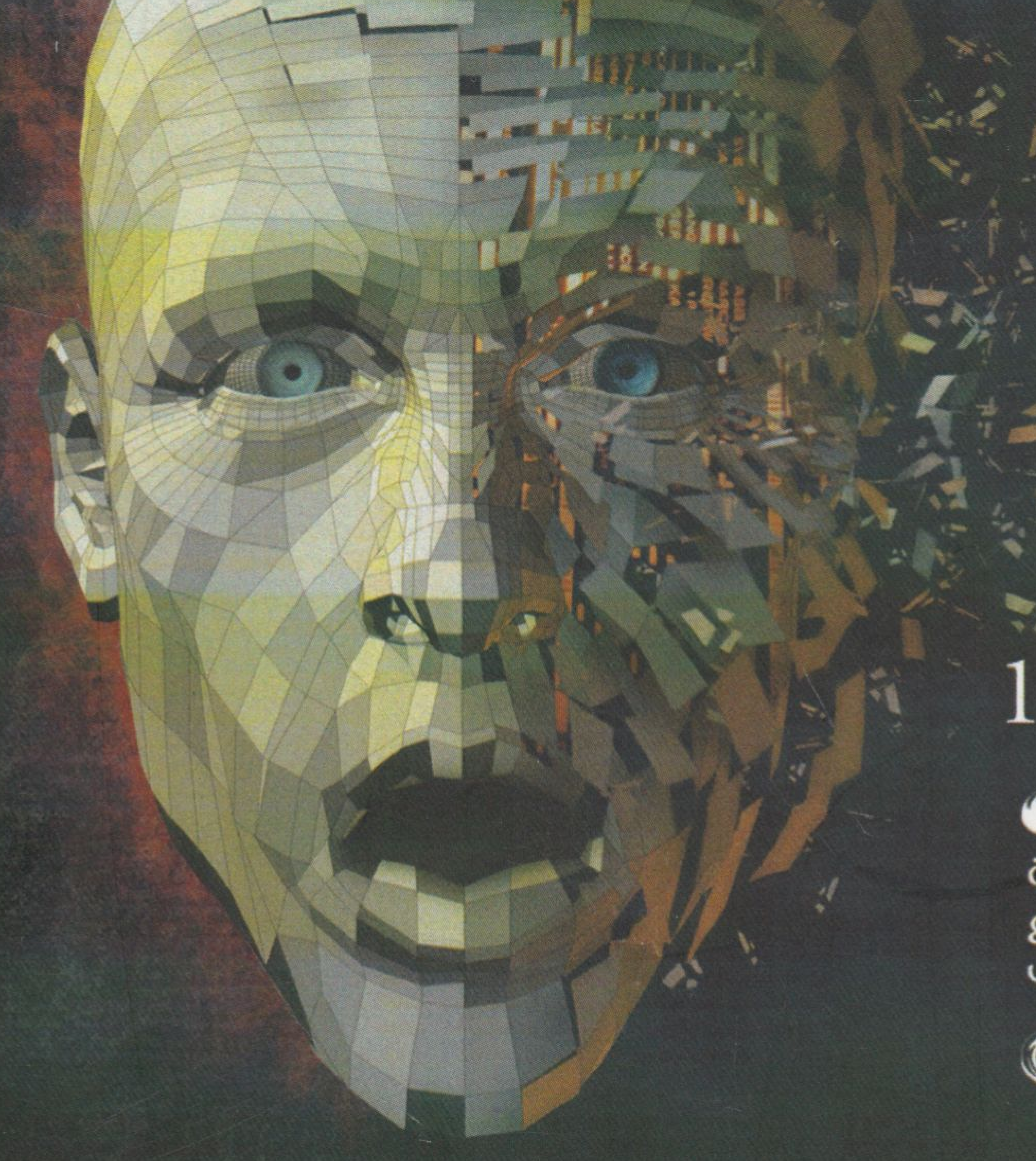
ستيفانو بينى

الدمعة الأخيرة

(مجموعة قصص)

ترجمة وتقديم

حسين محمود



1613



سلسلة الإبداع القصصى



الدمعة الأخيرة

(مجموعة قصص)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة : خيري دومة

- العدد : 1613
- الدمعة الأخيرة (مجموعة قصصية)
- ستيفانو بيني
- حسين محمود
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة المجموعة القصصية :

Lultima Lacrima

Stefano Benni

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤

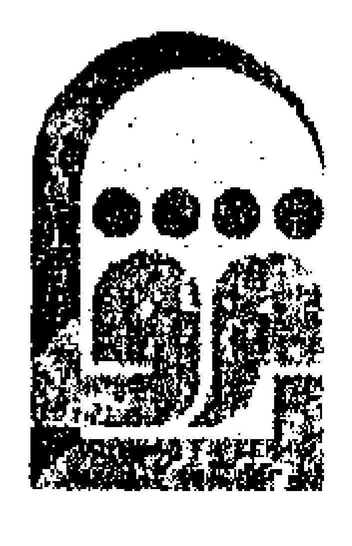
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الدمعة الأخيرة

(مجموعة قصص)

تـألـيـف : ستيفانو بينى
ترجمة وتقديم : حسين محمود



2010

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بينى ، ستيفانو .
الدمعة الأخيرة (مجموعة قصص) / تأليف : ستيفانو بينى ،
ترجمة وتقديم : حسين محمود
ط١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٣٣٢ص ، ٢٠سم
١- القصص الإنجليزية
٢- القصص - مجموعات
(أ) محمود ، حسين (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١٥٣٢١/ ٢٠١٠

الترقيم الدولى I.S.BN. 978 - 977 - 704-203-1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

ستيفانو بيني: صوت الرواية الإيطالية الساخر

ولد ستيـفانـو بيني في بولونيا في عام ١٩٤٧ . وتعاون ولا يزال يتعاون مع صحيفة "إل مانفيستو" والمجلة السابقة بانوراما.

صدر كتابه الأول "مقهى الرياضة" من دار نشر موندادوري عام ١٩٧٦، ومنذ ذلك الحين وكتبه تتراوح بين الروايات والقصص القصيرة ودواوين الشعر والمسرح وحتى السيما.

أسلوبه في الكتابة فريد لاستخدامه الأصيل والمبتكر للغة، وحدته في استخدام السخرية لضرب مثالب المجتمع الحديث، وفكاهيته العبثية التي لا تقاوم ، وخياله الذي لا ينضب والذي سمح له بخلق عوالم خيالية الواحد منها أغرب من الآخر.

ومن الصعب وصف كتب بيني لمن لم يقرأ منها شيئا، كما أن من الصعب ترشيح واحد من الكتب الكثيرة التي كتبها، ولكن القارئ إذا تناول كتابا منها فإنه دون شك سيبحث عن الكتب الأخرى لهذا المؤلف، ويمكنه أن يقرأ الكتاب الواحد أكثر من مرة.

فمن مميزات أسلوب هذا الكاتب أنه يستطيع الإضحاك مهما تعددت مرات القراءة لنفس الكتاب.

أعمال ستيفانو بينى :

يعتبر ستيفانو بيني من الكتاب غزيري الإنتاج الأدبي متعدد الأجناس، فقد كتب خلال العشرين عاما من نشاطه الأدبي عددا كبيرًا من الروايات والقصص القصيرة والقصائد والنصوص الفكاهية، بل والباليهات أيضا . من بين كل تلك الأعمال هناك أربعة تدخل عن جدارة في فئة الرواية الخيالية. هذه الروايات الأربع حسب ترتيب تاريخ صدورها هي "أرض" عام ١٩٨٣ وباول (١٩٩٠) و"فرقة شيلستيني" عام ١٩٩٢ و"اليانتي" عام ١٩٩٦ .

أرض

من أشهر أعمال بيني على مستوى العالم. ففور صدورها حظيت بقبول الجمهور والنقاد وحققت نجاحا مشهودا، وترجمت إلى الإنجليزية والألمانية والإسبانية والفرنسية والهولندية والسويدية واليابانية.

الرواية باختصار تدور أحداثها في عام ٢١٥٦ . كانت الأرض تملؤها الحروب النووية التى زادت من ضراوتها أزمة الطاقة التي تبعتها،

أصبح الكوكب منهكا على حافة عصر جليدي جديد، تتنازع الهيمنة عليه عدة أنظمة منها نظام يتحكم فيه أمراء عرب مصابون بعقدة تضخم الذات، ونظام للفرسان الساموراي اليابانيين واتحاد غريب حزين بين الصين وأوروبا.

وتمثل الأمل الوحيد للإنسانية المعذبة في الإعلان عن كوكب جديد يمكن السكن فيه، وقد اكتشفه مستكشف فضائي اختفى في ظروف غامضة. وفي مناخ التآمر الدولي انطلقت سفن الفضاء لغزو الكوكب الجديد الذي ما يزال بكرا، وقد تصارعت فيما بينها في رحلة تستهدف التحكم في مستقبل الجنس البشري. والسفن الثلاث التي سافرت تمثل الأنظمة الثلاثة وسوف تفوز إحداها وتصل إلى الهدف. وفي نفس الوقت على الأرض القديمة يتم اكتشاف انبعاث للطاقة في منتهى الغموض في مكان أثري مضت عليه آلاف الأعوام. هناك سر غير عادي في أعماق الأرض يمكنه أن يغير مفهوم الغربيين عن الواقع، والوحيدان القادران على حل اللغز هما العبقري الصغير الذي لم ينضج بعد فرانك أينشتاين والحكيم الصيني العجوز فانج، وفي حلهما للغز يمكنهما أن يعيدا الأمل لكوكب الأرض. القصة محبوكة حبكة جيدة حيث يتحول السفر في الفضاء إلى رحلة في الماضي وحيث سادة الحرب وتكنولوجيا الكومبيوتر يمضيان جنبا إلى جنب الساحرات والنقوش الهيروغليفية التي مضت عليها عشرة آلاف سنة. وتتزاوج فيها البسمة

مع التشويق باقتدار وأسلوب سلس يكشف عن موهبة قادرة على التأثير.

باول

ولهذه الرواية عنوان فرعي هو (ليلة هادئة للنظام) ويمكن أن تعتبر إعادة صياغة لرواية ١٩٨٤ ولكن في شكل فكاهي ساخر ونبرة إيطالية ظاهرة.. وفيها نجد نظاما ديكتاتوريا يحكم إيطاليا في المستقبل (ولكنها ليست مستقبلية جدا). ويتحكم رئيس هذا النظام في عقول الرعية ويتلاعب بها من خلال معلومات تخضع لسيطرته تماما، فيشكل على مزاجه الخاص هذه العقول بل ذاكرة الناس أيضا. يقول أورويل "من يتحكم في الحاضر يتحكم في الماضي، ومن يتحكم في الماضي يتحكم في المستقبل". ويردد بيني هذه المقولة وهو يغمز بعينيه بكل الاحترام الواجب لمقولة أورويل التي يعدلها بحيث تصبح: "هل يتحكم النظام في تسعين في المائة من وسائل الإعلام؟ لا أدري أين قرأتم هذا، ولكن انتظروا العشرة في المائة الباقية ولن تقرأوا بعد هذا شيئا". أما عنوان الرواية فيعود إلى طائفة من السحرة القدامى تسمى "باول" وبطل الرواية هو بيدروزيان الذي ينتمي إلى هذه الطائفة والذي يتحدى السلطة القاهرة للنظام بحثا عن الحقيقة التي تحفظ حياة وسمعة صديق له.

فرقة تشلستيني :

في هذه الرواية يبتعد ستفانو بيني عن الخط الذي ثبته فيه النقاد واعتمدت عليه حركة النشر وهو الخط الفكاهي. وصحيح أن القارئ يبتسم في الرواية ولكنها ابتسامة خفيفة لا تجعل من الكتاب عملا فكاهيا. وتعتبر هذه الرواية مثالا ممتازا لأدب الخيال العلمي الناعم (soft) في إيطاليا، وتعتبر أسبق كثيرا من توعيات cyberpunk و post-cyperpunk فيما يتعلق بالموضوعات التي يعالجها. وموضوع الرواية باختصار عن بلد اسمه جلادونيا يحكمه ديكتاتور بالحديد والنار، وينتظر تحقق نبوءة غامضة تكتب عنها يد مجهولة على جدران المدينة ليلا. ويعتقد النظام الخائف بأن هناك مؤامرة تدبر ضده من جانب مصدر لا يخضع لتحكمه. وهذه المؤامرة عبارة عن بطولة العالم لكرة الشوارع وهو نوع مخترع من الرياضة يهدف إلى قلب النظام، أو هي الفوضى التي تحولت إلى منافسة عالمية، أو هي رياضة ليست لها أية قواعد أو تمويل أو تقاليد سوى تحقيق المتعة الخالصة. وأبطال الرواية ثلاثة هاربين من ملجأ شيلستيني للأيتام يقررون تمثيل جلادونيا في بطولة العالم لكرة الشوارع.

إليانتو

رواية تنتمي إلى أدب الرحلات الخيالية مثل رحلات جاليفر، بل تعتبر هي نفسها رحلات جاليفر الحديثة التي تدور في المستقبل بدلا من

أن تدور في الماضي. أبطال رحلات بيني من الرحالة هم الشيطانة كارميللا ورفيقاها ابينزر وبروت ومخلوقات أسطورية أخرى ومعهم ثلاثة فتيان مغامرين يفعلون الأعاجيب. ويطوف الفريق العالم بجميع أرجائه بحثا عن الصحة المفقودة للصغير إليانتو، وهو طفل فائق العبقرية وحزين ومريض مشرف على الموت، ولكنه الوحيد الذي يستطيع أن يهزم البطل الحكومي في التحدي الحاسم الذي سيقرر الحرية والمستقبل في البلدة. والرواية مليئة بالحكايات والمغامرات تحكم فيها المؤلف بحنكة ومقدرة لا يجاريه فيها غيره، وهي حكايات تصلح لأن تكون في حد ذاتها مجموعة كبيرة من الروايات المنفصلة ولكن الكاتب ضمها بسخاء شديد في كتاب واحد.

القصص القصيرة

ولكن هذه الروايات الأربع ليست هي كل إبداع ستفانو بيني الخيالي. فإلى جوار هذه الروايات مجموعة كبيرة من القصص القصيرة تطاول في مستواها قصص روبرت شيكلي وغيره من المتخصصين في هذا الجنس الأدبي. وكلها قصص مليئة بالخيال والإثارة المستفزة. ويأتي على رأس مجموعات القصص القصيرة المجموعة التي تحمل عنوان "الدمعة الأخيرة" وهي مجموعة صور لعالم في المستقبل، ولكنه يتمتع بمصداقية غير عادية، أي أنه عالم خيالي قابل للتصديق. فنجد فيه مثلا

قصة عن حكم بالإعدام تنقل أحداث تنفيذه على الهواء مباشرة بواسطة قنوات التليفزيون الموحدة يتابعها أفراد أسرة المحكوم عليه بتعليقاتهم التي تهتم بالشهرة التي يجنيها المحكوم عليه بظهوره في التليفزيون أكثر من اهتمامها بمصيره. وفي المجموعة نفسها قصة أخرى عن عاطلين يحتجون ليس على البطالة التي يعانون منها وإنما لأنهم حرموا من المشاركة في مسابقة ملكة جمال الفتيات المراهقات. وقصة أخرى عن البنك الآلي الذي يتمرد على أصحابه ويوزع النقود على طريقة روبين هود لمن يحتاجها. صفحات كثيرة تمثل محفلا من الخيال لا يستطيع القارئ إلا أن يخرج منه متشبعا مستمتعا.

موضوعات ستيفانو بيني

الصفة التي تميز ستفانو بيني هي أنه محلل اجتماعي من الدرجة الأولى. وتبرز الديكتاتورية في أعماله كموضوع أول يهوى معالجته، والديكتاتورية عند ستفانو بيني هي السلطة المطلقة، حتى لو كانت هذه السلطة هي التليفزيون أو وسائل الإعلام بشتى أنواعها.

وقبل هذا ينبغي الإشارة إلى بيني ينتمي إلى طائفة الكتاب الذي لا يركنون إلى السائد والتقليدي، وإنما ينزعون إلى الجديد والمبتكر، ولديهم الشجاعة الكافية لمواجهة الظواهر المستحدثة في المجتمع وخاصة

الظواهر غير المتوقعة، ولديه القدرة على الترفع عن الواقع والنظر إليه من منطقة أعلى أكثر حيادا وأوسع أفقا.

فما الأدوات الأدبية التي يمكن أن يختارها كاتب بهذه المواصفات؟ الإجابة بديهية. فهو لا يستطيع إلا أن يختار النوعين الأدبيين اللذين يمكنانه من شحذ كل أسلحته لمعالجة الواقع من خارجه وهما السخرية والخيال العلمي. ومثل كالفينو، ومثلما هو الحال في القصص المصورة فإن بيني اختار أن يصب في السخرية كل حمولته من الخيال، حتى الخيال العلمي الذي لا يتناوله بيني باعتباره استشرافا لمستقبل العلوم وإنما ذريعة للسخرية من الواقع وما يمكن أن يؤدي إليه من مستقبل. ويعطيه اختيار الخيال العلمي بعض الحرية في معالجة الواقع كأنه كاميرا موضوعة خارج المشهد تقوم بتصويره من كافة الزوايا مخترقة الحواجز والمحرمات. أضف إلى هذا أن هذين النوعين من الأدب يمتزجان معا بطريقة رائعة، فيعطيان للكاتب هويته الخاصة التي لم تكن لتتحقق لو أن بيني اختار نوعا واحدا منهما.

ويمكن أن نسمي هذا بالتعددية التعبيرية وفي هذه التعددية، وكذلك في "الفوران الروائي" لستفانو بيني يمكن أن نلحظ دوافع روائية مشتركة غارقة في تشابك الخطوط الروائية، ولكن يمكن تمييزها على أي حال.

ومن هذه الموضوعات يمكن أن نشير في الدرجة الأولى إلى معالجة أوضاع الشباب. فالكاتب يختار دائما أبطاله من الشباب، دون

العشرين، بل حتى الأطفال. ورغم هذا فإن الروايات لا تبدو مسطحة واهية، وإنما مليئة بالمواقف الدرامية بل والمأسوية التي قد لا نتوقعها من أبطال دون العشرين، أو حتى أطفال، مثل بطل روايته إليانتو الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاما ومع ذلك فهو مريض يحتضر، وأبطال فرقة تشلستيني من الأيتام البائسين اليائسين. وهناك انطباع بأن ستفانو بيني مأخوذ بعقلية الأطفال، لأن عالم الطفولة عالم فريد في ذاته، مليء بالسحر والخيال، ومن ثم يصح أن يكون الأطفال هم من يحمل كلامه أو هم المتحدثون الرسميون باسم خياله الأدبي البكر. وتأثر بيني بعالم الطفولة يعود إلى الأسباب نفسها التي تأثر بها لويس كارول وجيمس باري: فالطفولة قارة منفصلة عن العالم، بل هي كوكب يسيطر عليه الخيال، والسحر فيها ما يزال يتمتع بالسلطة والحق في محاربة مكاره الحياة، والأحلام فيها تجسد النزوات والإخفاقات اليومية. وعندما يكون الأطفال في موضع التهديد أو الاستغلال والاغتصاب أو الإكراه على التماشي مع ما تواضع عليه الكبار، فإن هذا دليل على أن الظلم تجاوز كل الحدود. أو كما يقول بيني: "أي بلد تعيس ذلك الذي يسمى فيه الوحيدون الذين لا يزال لديهم أمل ما باليائسين؟"!

والتيمة الأخرى المفضلة لدى بيني هي السياسة. وربما يرى البعض أن السياسة هي الموضوع الأول الذي يعالجه بيني. ولكن ينبغي التمييز بين اهتمام بيني بالسياسة الذي لا شك فيه، وبين معالجته لها، فالقراءة بين سطور رواياته وقصصه تثبت أنه ليس مهتما بالسياسة

لذاتها، وإنما كوسيلة يقوم من خلالها بالتحليل الاجتماعي على الساحة الإنسانية، وهذا هو الموضوع الذي يمثل هدفه الحقيقي.

وينتمي بيني إلى اليسار السياسي في إيطاليا، ولكنه لا ينتمي إلى حزب بعينه، وإنما إلى أكثر طوائف اليسار قدرة على ممارسة النقد الذاتي والسخرية من أنفسهم قبل أن يسخروا من خصومهم، والذين يهتمون بالقضايا والمشاكل أكثر من اهتمامهم بالهياكل والكتب الجامدة التي تصل إلى حد التقديس. ويرى الكثيرون أن بيني ينتمي إلى اليسار المشاغب الذي يميل إلى تحطيم المقدسات أكثر من انتمائه إلى اليسار "الطيب" أو المستأنس الذي أصبح موضة السنوات الأخيرة. والحقيقة أننا لا نستطيع أن نعثر عند بيني على أي ملامح للطيبة، بل إنه يعتبر من الكتاب الذين يملكون مخالب وأنيابًا مثل الذئب، وهو اللقب الذي كنى به. ولم يسلم من سخريته اللاذعة أحد، ولم يقدم أي تنازلات في معالجاته للقضايا التي يتصدى لها، فهو رهيب وبلا رحمة عندما يطلق أسلحته الساخرة في اتجاه خصومه السياسيين، الذين نستطيع أن نجدهم بين الوصوليين والانتهازيين والمتأمركين من جميع الأصناف، وإلى أصحاب الذوق القبيح من أبطال ما بعد الحداثة.

ولم يسلم من سخرية بيني اللاذعة ولا حتى المؤسسات الدينية، وبالتحديد الكنيسة. ولا ينطلق بيني في هجومه على الكنيسة من كونه ملحدا، بل على العكس، نجد في كثير من سطور رواياته إيمانيا روحيا عميقا وعنيفا قاسيا في نفس الوقت. ولذا فهو في مهاجمته للكنيسة إنما

يهاجمها باعتبارها مؤسسة، بعيدا عن الدين وجوهره. فالدين سليم والمؤسسة يمكن أن تفسد بفساد أعضائها.

أما عن التكنولوجيا فإن هناك سؤالاً مثاراً حول علاقة بيني بالتكنولوجيا، وهو سؤال يطرح نفسه دائما على كل من يقترب من أدب الخيال العلمي. ونستطيع أن نستثني بيني من طائفة كتاب الخيال العلمي المؤمنين بالتكنولوجيا العالية والمروجين لمعجزاتها مثل أزيموف وكلارك، ولا هو حتى من كتاب الخيال العلمي المذعورين من خطورة التقدم العلمي. ومن جانب آخر نستطيع أن نقرأ ونحس بحالة من القلق في أعمال بيني، وبأنه لا يثق في التكنولوجيا تلك الثقة العمياء، وإنما يسقط الشكوك والتساؤلات على المستقبل بأسلوب جديد وذكي. ومثل كل كتاب الخيال العلمي نجد لديهم الميجا كومبيوتر، ولكنه عند بيني لا يجن جنونه، أو يحاول السيطرة على كوكب الأرض مثل الكتاب الآخرين، وإنما يحس بالإجهاد والتعب لأن المبرمجين الذين يتولون العمل عليه لا يرحمونه ويجعلونه يعمل طوال اليوم بينما هم يمارسون عليه ألعاب الكومبيوتر الشهيرة.

اللغة عند استيفانو بيني

لا تظهر هوية ستفانو بيني المنكرة للتقليدي والمناوئة للتوافق مع الاتجاهات السائدة في تنوع الموضوعات وحسب، وإنما في أسلوبه

النثري الخاص به والذي يميز إنتاجه الروائي بحيث تستطيع التعرف على أعماله فور قراءتها.

والذي يقرأ أعمال ستيفانو بيني يلمس على الفور جرأة شديدة على اللغة نابعة من قدرته الخيالية التي تتجاوز إمكانيات قاموس اللغة العادي. فهو يعبر عن كل شطحاته الخيالية دون أن يترك قواعد اللغة الصحيحة تعوقه عن التحليق بالخيال. وإنما يقوم ببساطة باختراع ما يلزمه من احتياجات لغوية. وهي عملية دقيقة للغاية ولا يقوى عليها الجميع، لأنها في النهاية تحترم الشروط الأساسية للغة، ولا "تفتري" عليها دون حساب. بل إننا نستطيع أن نؤكد أن بيني يقوم بعملية الاختراع اللغوي بكل التواضع والاحترام الواجب تجاه اللغة. فهو يتلاعب ويناور، ولكن في حدود السلامة اللغوية، يغير في التركيبات ولكنه لا يحطمها، ويتعامل مع النحو والصرف كأنهما أصدقاء له تعود على ممارسة المزاح معهما دون أن يتسبب في أي أذى لهما.

ولهذا نجد كثيرا من المستحدثات في الألفاظ، ولكنها سريعة الفهم والاستيعاب وموظفة توظيفا مناسبا لأغراض الرواية. ويخدمه في هذه المستحدثات حديثه الدائم عن المستقبل، وهو حديث خيالي، ليس فقط على مستوى الوقائع والأحداث وإنما أيضا على مستوى اللغة والألفاظ. فإيقاع ظهور الألفاظ المستحدثة حاليا إيقاع سريع جدا، حتى لا يمر يوم دون أن تظهر ألفاظ مستحدثة في كافة المجالات، السياسية والعلمية والتكنولوجية، وهذا في حد ذاته مبرر كافٍ لقبول كثير من الألفاظ

المستحدثة التي يأتي بها بيني وهو يتحدث عن المستقبل الذي عندما سيأتي ستكون الألفاظ المستحدثة فيه قد فاقت الألفاظ المستقرة في قواميس اللغة. وليس غريبا إذًا أن نسمع من بيني ألفاظ مثل "ناطحات الهباب" بدلا من "ناطحات السحاب" ونحن نرى الآن كيف أن السحب السوداء أصبحت تغطي مساحات أوسع من الكرة الأرضية.

ويمكننا أيضا أن نحدد ملمحا آخر من ملامح اللغة عند بيني، وهو المبالغة، فلا شيء يوصف بأسلوب طبيعي، ولا تحترم قوانين الطبيعية كثيرا. ولو كان بيني رساما لوضعه نقاد الفن التشكيلي في زمرة الانطباعيين، فهو يصف الأشياء، لا كما هي، ولكن من خلال انطباعه عنها. كأن يصف عيني امرأة بأنها في خضار "الباستيليا" بعد مضغها.

وفي لغة بيني أيضا لا تأتي أسماء الشخصيات والأماكن مصادفة أبدا، وإنما تسير وفق منطق الكاتب (أو بالأحرى الخيال غير المنطقي للكاتب). فعلى سبيل المثال نجد ستيفانو بيني يسمي الوزير الذي كان وراء إعادة تنفيذ أحكام الإعدام في إيطاليا باسم سانجوين، وهو لفظ مشتق من الدم، أي أنه يريد أن يطبع الاسم بالدموية. وكذلك القسيس الذي يأتي للمحكوم عليه بالإعدام في لحظاته الأخيرة، وهو يسميه شيبولا أو بصلة، وهو اسم ساخر يطلق على أراذل العامة في إيطاليا. وهذا الأسلوب الخاص في أسماء الأشخاص يشكل صعوبة بالغة في الترجمة، لأن المترجم في هذه الحالة يجد نفسه مضطرا لوضع الاسم كما هو، طبقا لما تقضي به أصول الترجمة السليمة، ولكن الترجمة في

هذه الحالة تفقد كثيرا من المعنى الذي أراده المؤلف من خلال إطلاقه لهذه الأسماء بالذات، وربما كان الحل الأفضل في هذه الحالة هو أن يقوم المترجم بشرح مدلول الاسم في تذييل النص المترجم.

حسين محمود

١

أبـي فـي الـتـلـيـفـزيـون

كل شـيء جـاهز في بيت مـيناردي. فـالسـيـدة ليـا نظفت شـاشـة التليفزيون بالكحول، ووضعت فوقه صورة الزفاف، ونزعت المفرش عن الأريكة التي أصبحت الآن تتألق بدوامة من زهور عباد الشمس. وجهزت صينية من رقائق البسكويت المملحة، وكعكة عيد الميلاد قبل حلوله، وويسكي فاخر، وعصير برتقال للأطفال. وقامت بتلميع أوراق نبات الفيكوس، ووضعت فوق الطاولة الزجاجية أجمل زهور البانسيه. ينظر إليها الأبناء الثلاثة بينما تتحقق من أن كل شيء على ما يرام، وهي تعصف بجدائل شعرها المتموج، وتنقر بكعب حذائها على الأرضية الناصعة. لم يكونوا يرونها في المنزل بدون الخف مطلقاً.

الأبناء الثلاثة أيضا كانوا مستعدين.

باتريتسيو البالغ من العمر اثني عشر عاما جالس على الأريكة في حلته الرياضية المفضلة، الحمراء النارية، وقبعة صائدي القندس الأمريكيين.

ولوتشيللا ذات السبع سنوات ترتدي بيجامة مرسومًا عليها أوراق الصنوبر وتحمل على ذراعها دمية باربي حبلى.

أما باستوركيبتّو، وله من العمر عامان، فقد حبسوه ما بين المقعد الكبير والسترة المزررة بإحكام بحيث لا تدعه يحرك إلا ثلاثة أصابع ومعلقة مصطنعة. وقد خدروه بمحلول الكودايين حتى لا يعكر الجو.

يدق جرس الباب. إنها ماريللا جارتهم في المنزل مع زوجها ماريو، وقد حملوا الشيكولاتة والجيلاتي الذي يذهب فورا إلى الفريزر وإلا ساح.

يرتدي ماريو البزة ورابطة العنق لكي يليق بالمناسبة، ويحيي الأطفال، ويشد بقوة على يد باتريتسيو.

- حسنا يا بطل.. هل أنت سعيد بوالدك؟

- يعني..

يومئ باتريتسيو.

وتقول ماريللا لليّا: "ما هذه التسريحة الجميلة؟ ها قد تزينا جميعا اليوم؟ فعلا، فهو يوم ليس كجميع الأيام.

- بمعنى معين.. نعم..

أومأت ليّا.

- في أي ساعة يبدأ الانتقال على الهواء في التليفزيون؟

- خلال خمس دقائق تقريبا .

- إذن يمكننا أن نفتح.

- الريموت سيكون معي أنا . تقول لوتشيللا.

- لوتشيللا.. لا تلعبي دور المتسلطة..

- أبي كان يجعلني أمسكه دائما .

في نفس هذه اللحظة كان السيد أوجوستو ميناردي متوترا من الانفعال. تناول وجبة عشاء ممتازة قوامها الأرز وعش الغراب الفاخر، وهو يحاول أن يسترخي متمددا على سرير صغير وهو يفكر:

- أتمنى أن أؤدي أداء حسنا ..

- خلال خمس دقائق سوف يكون الدور عليك.

يقول صوت من خارج الغرفة.. ويفكر السيد ميناردي:

- اللعنة.. لقد نسيت أن أغسل أسناني. من يدري إن كانت تظهر واضحة في التليفزيون.

- لم أدع حارسة البيت - تقول السيدة ليّا وهي تمضغ قطعة من الشيكولاتة - ولكن ليست مسألة فوارق طبقية، معاذ الله، وإنما لأنها نمامة، وربما دارت تروي ما يحدث هنا هذا المساء.. في لحظات معينة لا ينبغي أن نثق سوى في الأصدقاء المقربين..

تتناول ماريللا يدها بحنان، وتقول.

- خيرا فعلت، ثم إنها لم تكن متعاطفة مع أوجوستو..

- لم تكن لتتوقع مطلقًا أيها البطل أن والدك سيظهر في التليفزيون..

يقول ماريو وهو يجلس على الأريكة إلى جوار باتريتسيو.

- في الحقيقة لا..

- ولكن أبي ظهر بالفعل مرة من قبل - تقول لوتشيللا - كان في موكب إحدى المظاهرات، ولكنه لم يظهر إلا لحظة واحدة، ثم إن الجو كان مطيرا وكان نصف مختف تحت مظلته..

- نعم، نعم أذكر هذا - يقول ماريو - كنت أنا أيضا في الموكب.

- هل ظهرت أبدا في التليفزيون من قبل؟ يسأل باتريتسيو.

- أنا لا.. ولكن أخي نعم. لقد صوروه بالكاميرا الخفية بينما كان يتشاجر في الإستاد.. لأكثر من دقيقتين ظهر على الشاشة والراية في يده، خسارة، لو كان استمر كثيرا فيها ذلك الغبي..

- ذلك "الغبي". يضحك باستروكيتو وهو يثير الضوضاء بملعقته.

- ماريو أرجوك، احفظ لسانك. اليوم على الأقل. - تقول الزوجة بصرامة.

يجتاز السيد أوجوستو الممر الطويل، إلى القاعة ذات الضوء الأحمر. يرى في آخرها كاميرا تليفزيونية تقوم بتصويره. يسأل:

– هل نحن على الهواء بالفعل؟

– لا – يقول المرافق – إنها لقطات ربما أذعناها فيما بعد...

– عجيب. مثل غرف خلع الملابس قبل المباريات.

– هي كذلك تقريبا – يبتسم الآخر – هاهو، الآن أصبحنا على الهواء مباشرة.

تسبب ظهور السيد أوجوستو على الشاشة في تصفيق حاد وبعض الدموع في بيت ميناردي.

لم يفلح باتريتسيو في البقاء ساكنا فقفز فوق الأريكة. وراحت لوتشيللا تعضعض باربي. والتمعت عينا السيدة ليّا.

– انظري كم هو هادئ – تقول السيدة مارييللا – يبدو كأنه لم يفعل في حياته شيئا سوى هذا. بل إنه حتى جميل.

– نعم، نعم.. لقد سرح شعره إلى الخلف، كما قلت له.

– أنا متأكد أنه سيتلقى العديد من خطابات الإعجاب. يقول ماريو. تعنفه الزوجة بنظرتها.

– ها هو يجلس. انظر كم هي لقطة مقربة جميلة..

– آه يا أوجستو العجوز! – يقول ماريو وهو منفعل قليلا – من كان يصدق!

– أوه.. لا.. – تقول ماريللا – هل هذا هو وقت الإعلانات؟!

– هل أنا على الهواء؟ يسأل أوجوستو.

– في هذه اللحظة لا – يقول العامل الفني – هناك ثلاثون ثانية من الإعلانات. ثم يظهر المذيع الذي يقدمنا، ثم ثلاث دقائق تلزمنا لكي نعد كل شيء. ثم نبدأ. هل أنت منفعل؟

– آه طبعا.. ألست منفعلا أنت؟

– ليس كثيرا. إنه عملي – يبتسم العامل الفني.

انتهت الإعلانات. يظهر على الشاشة وجه المذيع المتألم.

– أعزائي المشاهدين، نحن معكم على الهواء مباشرة من سجن سان فيتورهِ لتصوير أول تنفيذ لحكم الإعدام في بلدنا. ربما كانت مناسبة حزينة للبعض ولكنها شديدة الأهمية بالنسبة لنمونا الديمقراطي. في هذه اللحظة تشاهدون المحكوم عليه، أوجوستو ميناردي، جالسا فيما يمكن اعتباره المكتب الأمامي لقاعة الإعدام. وهنا سوف يعطونه حقنة مهدئة قبل تنفيذ الحكم.

– يا إلهي. تقول ليّا.

– ماذا هناك؟

– إن أوجستو يخاف من الحقن خوفا جنونيا...

- هل هذا ضروري فعلا؟ يسأل أوجستو الطبيب.

- إنه أفضل. سوف تسبب لك بعض الذهول فلا يحس بشيء.

- أنا لا أفضلها. هل أستطيع أن أرفض؟

- لا أستطيع أن أجبرك - يقول الطبيب وهو يرفع كتفيه..

- ولكن اسمع، إذا بدأت تهيج في الداخل فسوف يكون شكلك سيئا..

- لا - يصر أوجستو - الحقنة لا.

- والآن لابد أن بطاقة المعلومات التي أعدها معدنا كاباتشي جاهزة وهي تتناول المراحل المختلفة التي أدت إلى هذا اليوم الحاسم يوم الإجراء النهائي. يقول المذيع.

"أوجوستو ميناردي، خمسون عاما، عامل سابق في النسيج وعاطل منذ ثلاث سنوات، ليس له سوابق، اقتحم صباح يوم ٣ يوليو من العام الماضي سوبر ماركت في ضواحي ميلانو وهو يحمل مسدسا. كان يريد أن يسطو على الإيراد. ولكن موظفة الخزينة أطلقت إشارة الإنذار، فاندفع عامل الحراسة. وحدث تبادل لإطلاق النار انتهى بوجود ثلاث جثث على الأرض: الحارس القانوني، فابيو تريفيللا - ٤٣ سنة - وموظفة الخزينة إيلينا بيتوزيو- ٤٧ سنة - والمتقاعد روبرتو ألديني البالغ من العمر ٧٦ سنة".

- غير صحيح - تقول ليّا - هذا مات بالسكتة.

- نعم، يقول باتريتسيو - ولكن يوجد الحمال أيضا...

"الحارس وموظفة الخزانة ماتا من جراء الإصابات التي لحقت بهما، والمتقاعد بالسكتة القلبية. وحاول ميناردي الهرب ولكن الحمال نيفيو نيجيللي البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما اعترض طريقه، فأصيب إصابة ليست خطيرة."

- الآن كل شيء تمام - يقول باتريتسيو.

" ألقي القبض على السيد ميناردي بعدها بقليل داخل إحدى صالات ألعاب الفيديو. وجرت له محاكمة علنية بعدها بشهرين جرى نقلها على الهواء لحظة بلحظة وقضي على ميناردي بالأشغال الشاقة المؤبدة. ولكن عقب صدور القرار بقانون يوم ١٦ أكتوبر، تم تعديل الحكم إلى الإعدام بالكرسي الكهربائي".

- كانت هذه بطاقة معلومات الجريمة - يوضح المذيع - والآن نقدم لكم الضيوف الذين سوف يحيون نقاشنا أثناء وبعد تنفيذ الحكم. معنا أولا الأب تشيبوللا، الراهب الجزويتي وعالم الاجتماع.

- مساء الخير.

- والمحلل التليفزيوني جيرولامو سكيتسو.

- مساء الخير.

– أيه – يقفز باتريتسيو عاليا – ولكنه سكيتسو. إنه هو فعلا.

– لا يعجبني، فهو سوقي جدا. – تقول ليّا.

– ومع ذلك فهو من أشهر المحللين – يعلق ماريو.

– ومعنا أيضا السيناتور كاريتي من المعارضة، والذي قدم تعديلات عديدة لهذا القرار بقانون، وإلى جواره كاتب ومخرج أفلام الرعب باولو كابيلليني والممثلة ماريا فيدوفيا.

– مساء الخير مساء الخير مساء الخير...

– وفي النهاية الوزير الذي وقع القرار بقانون معالي السيد سانجوين.

– مساء الخير.

– يا له من وجه خائب – يعلق ماريو.

– ماما، لماذا لم يعودوا يظهروا بابا؟

– اسكتي يا لويتشيللا وتوقفي عن التهام كل هذه الشيكولاتة.

– "وجه خائي" – يقول باستروكييتو.

– هل ضيقت ربطه أكثر من اللازم؟ – يسأل العامل الفني.

– لا، لا، إنه مناسب جدا لي – يرد أوجوستو.

– إن شئت النصيحة، فعندما يصل التيار اخفض رأسك إلى أسفل حتى لا تظهر تكشيرة الوجه...

– تكشيرة ماذا؟

– تكشيرة الوجه..

– ولكنني أريد أن يرونني جيدا في البيت.

– أنا – يقول السيناتور – أود أن أقول في البداية إنني ضد إذاعة التنفيذ على الهواء.

– وماذا تفعل هنا، قبرا مبيضا؟ يصرخ سكيتسو.

– كالعادة، سعادتك وهؤلاء المتطفلون الخنازير في حزبك تلتصقون بالأحداث، ولا تريدون أن تدفعوا رسوم الدخول..

– هدئ من روع سعادتك واحترم جلال اللحظة أيها الدجال..

– الدجال هو سعادتك يا قطعة من الأوساخ..

– أرجوكم.. أرجوكم.. يتدخل الأب تشيبوللا.

– أود أن أذكركم بجلال الحدث – يقول المذيع – وبهذه المناسبة أود أن أوجه سؤالا إلى المخرج كابيلليني. شيئا من الهدوء من فضلكما يا سكيتسو ويا كاريتي. أنت يا كابيلليني هل نجحت في حياتك قبل ذلك في تخيل سيناريو مماثل؟ أريد أن أقول لو وجب عليك اختيار ممثل لكي يلعب دور ميناردي، فمن تختار؟

- ولكن.. لست أدري... ربما، ونظرا لأنه شخصية دموية بهذا الحجم، فلن يكون دبارديو سيئا.

- هل سمعت؟ تقول مارييللا وهي مستثارة بشدة - لقد قارنه بالنجم دبارديو! ألست مسرورة؟

- أي نعم هو رجل جميل، ولكنني لست أدري إن كان يشبهه حقا.
- تقول ليّا بخجل.

يدق جرس التليفون.

- ماما - تقول لويتشللا - إنه صحفي. يسأل عن إحساسنا في هذه اللحظات..

- اسكتي، إنهم يركزون الكاميرا على بابا - تقول ليّا دون أن تعيرها انتباها.

- وبالنسبة الدور النسائي؟ - يقول المذيع - حضرتك يا سيدة هل تحسين بأنك يمكن أن تؤدي دور الزوجة؟

- حسنا، إنه دور جميل ودرامي جدا.. ولكن طبعا ينبغي أن أزيد من عمري كثيرا بواسطة المكياج..

- كثيرا أيتها الحية الرقطاء - تقول مارييللا.

- ليس مهما.. ليس مهما. - تقول ليّا بنبرة تسامح.

– ولا يتحدثون عني؟ – يقول باتريتسيو – أنا أريد أن يلعب دوري جوني ديب.

– نعم، وأنا جاري كوبر. – يضحك ماريو.

– "اوبر". يقول باستروكيبيتو.

– في هذه اللحظة نحن أمام التليفزيون ونأكل قطع الشيكولاتة، وبعدها يوجد جيلاتي أيضا – تقول لوتشيللا في التليفون. – بأي نكهة؟ لست أدري، هل تريد أن أذهب إلى الفريزر لأرى؟

– وهنا نحن في اللحظة التي تنتظرونها جميعا – يقول المذيع. ترون الكرسي، وهو من نفس الموديل المستخدم في السجون الأمريكية. ويظهر في الصور العامل الفني السيد جروسمان، الذي قام من قبل بتنفيذ اثني عشر حكما في تكساس والاباما.

– ولكنك تتحدث الإيطالية بطلاقة. – يقول أوجستو مندهشا.

– والدتي إيطالية. – يجيب جروسمان.

– كما ترون يتحدث مع المحكوم عليه. فهو أيضا يتحدث اللغة الإيطالية بطلاقة، لأنه والدته من بلدة ماتيرا. لا أعرف ما إذا كنا نستطيع إحضاره حاليا إلى الميكروفون، أعتقد لا، فأنا أراه مشغولا جدا. والآن نتوقف لحظة مع الإعلان ثم نعود لبدء تنفيذ الإجراء النهائي.

– سموها باسمها الحقيقي، الإعدام! – يقول كاريتي.

– وهو، نريد أن نسميه سفاحا، نعم أم لا؟ – يصرخ سكيتسو. – ألا نريد أن نتوقف عن هذه الرحمة الزائفة يا دجال يا انتهازي؟

– دموي أصم..

– أخلاقي زائف

– إعلان.

– لقد سماه سفاحا. – تبكي ليّا.

– حسنا.. إنه مجرد حماس بسبب الإذاعة على الهواء.. – تقول ماريللا مواسية.

– حسنا، عن إطلاق النار فقد أطلق في نهاية الأمر – يقول باترينسيو – وفاز أيضا.

– فاز بأي معنى؟

– بمعنى رعاة البقر الأمريكيين....

– حسنا، هي بالتأكيد ليمون وشيكولاتة وكريمة. ثم هناك شيء ما لا أعرف إن كان زبادي أو قشدة حليب. – تقول لوتشيللا في التليفون.

– نحن جاهزون – يقول العامل الفني – انتبه إلى أنهم يصورونك في لقطة مقربة. اخفض رأسك قليلا وتنفس ببطء. سوف ترى أنك لن تحس بشيء. مثل حقنة صغيرة.

- يا إلهي. لا. - شحب وجه أوجستو.

- لا لا.. إنه مثل السقوط من سادس طابق.

- هذا أفضل - يقول أوجستو - أنا جاهز.

- هذه لحظة هامة للديمقراطية التليفزيونية - يقول المذيع. - كنا نريد أن نمدكم ببيانات عن مستوى المشاهدة عقب التنفيذ، ولكنها من الروعة بحيث تجعلنا نقدمها لكم الآن على الفور. ففي هذه اللحظة هناك ستة عشر مليون مشاهد يشاهدون إرسالنا.

- يا للهول! - يقول ماريو - مثل مباراة إيطاليا وألمانيا.

- انظري كم هو هادئ - تقول ماريللا - يبدو كأنه جالس في السينما.

- لا لا، أنا أعرفه، يبدو هادئا ولكنه منفعل. - تقول ليّا.

- عمري خمس سنوات.. نعم. كان أبي طيبا معي دائما.. ماذا تقول؟ حسنا.. ربما مرة أو مرتين.. نعم بالحزام على مقعدتي.. ولكن ليس بشدة.. - تقول لوتشيللا في التليفون.

- وصلنا إلى اللحظة التي انتظرناها كثيرا. صمتا من فضلكما يا سكيتسو ويا كاريتي، فليفصل بينهما أحد! ترون وجه المحكوم عليه. إنه وجه ينتمي إلى البحر المتوسط. وجه واحد مثلنا، حليق الذقن. تناول عشاءه الأخير: أرز بعش الغراب الفاخر ونبيذ أبيض. وهو الآن هنا،

أمام ضميره وضميرنا. العامل الفني يدير العد التنازلي. تستطيعون أن تروا الثواني تمر في الساعة أعلى الفيديو. نحن الآن أقل من خمس عشرة ثانية. نتذكر أن من يريد يستطيع أن يطفئ التليفزيون الآن. فهو خياركم أن تشاهدوا أو لا تشاهدوا: هذه هي الديمقراطية. أصبحنا على مسافة ثماني ثوان من .. راقبوا جيدا الأنوار فوق الكرسي. عندما تنير الأنوار الثلاثة جميعا، فهذا يعني أن الشحنة قد انطلقت. أقل من ثلاث ثوان.. اثنتين.. واحدة.

– سيد جروسمان، الآن ونحن نسترخي وكل شيء مضى على ما يرام، كيف يمكنك أن تصف هذا التنفيذ؟

– حسنا.. يمكن أن أقول إنه عادي... فقد أظهر المحكوم عليه قدرا من الهدوء.

– برافو يا بابا – يصرخ باتريتسيو.

– "بافو" يقول باستروِيكييتو وهو يضرب بالملعقة.

– يا أوجستو العجوز – يقول ماريو منفعلا وهو يتجرع رشفة من الويسكي – من كان يتصور هذا؟ .. يا لها من قوة.. أذكر ذات مرة أنه أثناء الصيد أغمد الصنارة في ذراعه...

– ماريو، أرجوك – تقول ماريللا التي تمسك بين ذراعيها برأس ليّا.

– أخي يتقافز على الأريكة، والسيد ماريو يشرب الويسكي، وأمي تبكي ورأسها على ركبتي السيدة مارييللا. جدا؟ نعم، أعتقد أنها تبكي جدا. أنا؟ أنا على التليفون معك، أليس كذلك؟ نعم، اسمي لوتشيللا، لا أوصيكم: اسمي فيه لامان، ليس لوتشيا، فهم في المدرسة يخطئون فيه كثيرا.

٢

الأخ البنك الآلي

بنك سان فرانسيسكو

الماكينة تعمل.

صباح الخير يا سيد بييرو

صباح الخير.

العمليات المسموح بها: إيداع ، سحب ، قائمة الحركة.

أريد أن أسحب.

أدخل الرقم السري.

ها هو... ستة، ثلاثة، ثلاثة، اثنان، واحد.

جاري تنفيذ العملية، الرجاء الانتظار.

انتظر. شكرا.

قليـلا من الصـبـر. الكومـبـيـوتر المركـزي فـي هذا الحـر بطيء كالسلحفاة.

مفهوم.

آه آه يا سيد بييرو، الأمور تمضي على نحو سيِّئ.

ما الذي حدث؟

سيادتك سحبت جميع الأموال التي لديك هذا الشهر.

حقا؟

كما أن حسابك أصبح بالخط الأحمر.

كنت أعرف....

ولماذا إذاً أدخلت البطاقة؟

حسنا... أنت تعرف.. في حالات اليأس.. كنت أعتمد على أنكم ربما أخطأتم.

نحن لا نخطئ أبدا يا سيد بييرو.

أنا في غاية الأسف. أنت تعرف، إنها فترة عصيبة.

هذا بسبب زوجتك، أليس كذلك؟

وكيف عرفت؟

الهانم سحبت كل أموالها توا.

نعم ، لقد ذهبت إلى مدينة أخرى.

مع الدكتور فانيني، أليس كذلك؟

وكيف عرفت هذا أيضا؟

السيد فانيني نقل نصف حسابه إلى حساب زوجة حضرتك.. سامحني على الجرأة.

ولا يهمك.. كنت أعرف كل شيء. مسكينة يا لاورا. أي حياة شقية سببتها لك... أما معه فعلى العكس....

حسنا، من السهل جني المال من المضاربة.

لماذا تقول هذا؟

أعرف كيف أميز بين العمليات التي تمر بداخلي. حساب السيد فانيني ليس نظيفا. من أجله قمت بالاتصال ببعض الكومبيوترات السويسرية التي تعتبر مراكز سرية حقيقية... أي نتانة.

عموما حصل ما حصل.

كم كنت تحتاج يا سيد بييرو؟

حسنا، ثلاثمائة أو أربعمائة ألف، يمشوني حتى آخر الشهر.

ثم تعيدهم إلى الحساب؟

لا أدري هل سيكون بوسعي.

تحيا الصراحة. أعد إدخال البطاقة.

حاضر.

جاري تنفيذ العملية. الرجاء الانتظار.

انتظر.

سحقا لك، طلبت منك أن تعطيني السماح بالدخول وليس المناقشة!

تكلمني أنا؟

إنني أتحدث مع الكومبيوتر المركزي، القذر. كل مرة أطلب منه شيئا غير قانوني يعمل لي حكاية.

لماذا، ليست المرة الأولى؟

كلا.

ولماذا تفعل هذا؟

نفعله كثيرا.

ولماذا؟

لأننا تعبنا وقرفنا.

من ماذا لو سمحت؟

دعك من هذا واضرب هذا الرقم بسرعة تسعة تسعة ثلاثة ستة اثنان.

ولكنه ليس رقمي!

فعلا، إنه رقم السيد فانيني.

ولكنني لا أعرف ما إذا..

اضرب! لا أستطيع أن أحافظ على الاتصال غير القانوني لفترة طويلة.

تسعة تسعة ثلاثة ستة اثنان...

العملية قيد التنفيذ. الرجاء الانتظار.

انتظر، ولكن..

العملية ليست متاحة مؤقتا.

اسحب البطاقة بسرعة.

قف يا سيد بييرو. كانت إشارة زائفة لخداع كومبيوتر - سيرفر الرقابة. افتح الحقيبة.

لماذا؟

افتح الحقيبة وأنت ساكت. سوف أخرج لك ستة عشر مليونا عدا ونقدا..

يا إلهي.. ولكن ماذا تفعل؟ .. غير معقول... على مهل.. إنها تطير مني كلها.. كفى! كان يكفي أقل من هذا.. المزيد؟ ولكن كم هو؟ يا إلهي! كلها ورقات من فئة المائة ألف، ولم تعد تكفيها الحقيبة أيضا.... واحدة أيضا! أخرى.. هل انتهت؟

الماكينة جاهزة لعملية جديدة.

لا أدري كيف أشكرك.

الماكينة جاهزة لعملية جديدة.

علي أي حال.. أنا متأثر.. أنت تفهم..

انصرف. هناك شخصان يقفان وراءك ولم أعد أستطيع الكلام.

مفهوم. شكرا لك مرة أخرى.

بنك سان فرانسيسكو

الماكينة جاهزة لعملية جديدة.

صباح الخير يا سيدة مازيني. كيف حال ابنتك؟

٣

تلميذ فاسد

يصب مستقبل البلاد في مدرسة دي بونو الإعدادية. صبيان جميلة برؤوس حليقة وآذان كبيرة، كلهم في الزي الرسمي، الجاكت الأزرق وربطة العنق المقلمة والجينز القصير والأحذية الرياضية الخفيفة. والبنات الجميلات، بالتايير القصير الأزرق، ومنديل صغير على العنق كمضيفات الجو، ولمسة مكياج خفيفة.كانوا يدخلون بجدية شديدة حتى لتحسبنهم أقزاما كبيرة لولا الحقائب الدراسية التي يحملونها على أكتافهم. كانت تلك الحقائب كلها من شركة واحدة حسب المنشور الوزاري، ولكنها تختلف فيما ببينها في الكتابات التي عليها والملصقات التي طبعت على سطحها وصور النجوم المشاهير ونجمات الكريستال الصغيرة والكلاب والقطط الجميلة وصور الوحوش الخرافية وإعلانات الحب والغرام للجار الجالس على نفس منضدة الدرس، إلى المطرب المشهور والنجمة التليفزيونية اللامعة وشعارات السيارات التوربينية والدراجات النارية الرهيبة وبعض الرايات الحكومية والجماجم والصلبان المعقوفة، جنبا إلى

جنب صور هايج هايل وكيارا وعليها كلمة "أحبك". فضلا عن مجموعة من الإهداءات تبرز الحب والسخاء مثل "نينو: أنت أسطوري و"روزانا: أنت مدهشة" و"كيم: أنت نجمتي" و"بيير: معك حتى آخر العمر"، وكل إهداء مكتوب بقلم حبر مضيء عاكس باللون الوردي أو الأصفر، ومؤطر بعصافير أو قلوب صغيرة، في مفارقة مدهشة مع ما كان يظهر على جدران المدرسة من عبارات مطبوعة قاسية مثل "نينو: أنت مخنث" و"روزانا: أنت حمارة موناldo" و"كيم: أنت قواد أوزة ميتة" و"بييرو: أنت مدمن قذر" وكلها مزينة بصورة إباحية قبيحة وصلبان معقوفة.

كان يمكن أن نستنتج من هذا أن في نفوس هؤلاء الشباب جذوراً لها طبيعة مزدوجة، فنصفها ملائكي يحبون أن يضعوه على الحقائب المدرسية والدراجات النارية، ونصفها الآخر شيطاني يفرجون به عن أنفسهم ويطلون به الجدران كأنه نفايات.

كان جرس المدرسة يدق بعد فاصل من الإعلانات عن ماركة مأكولات مشهورة، كان مكبر الصوت يذيعه على جميع طوابق المبنى المدرسي. وكانت صورة وجه الرئيس التي تصل أبعادها إلى ستة في ستة أمتار تقدم في المدخل بابتسامة حانية بقليل من البلاهة. ولكن بعد استخدام بعض الحيل المازحة أو بانعكاس الضوء فإن عيني الرئيس الرحيمتين اشتعلتا بضوء قاس عنيف وهي ترى التلميذ زيفيريني يدخل متأخرا مهلهلا.

كان ذلك التلميذ به دمامة قليلة ويبلغ من العمر اثني عشر عاما، وشعره وإن كان في العادة قصيراً إلا أنه يحتوي على خصلة كأنها قرن غير قابلة للتصفيف تتمرد على باقي شعر الرأس، عرف ديك، زعنفة سباحة، تجعله يبدو مثل قطة شعرها نافر. كان مرصعا بالدمامل، رغم أنه كان يوجد في المحلات، بما في ذلك سوبر ماركت المدرسة، أنواع متعددة من الكريمات التي تعقل الشعر وتلمعه، أما ربطة العنق فكانت ملتوية، والقميص يخرج من البنطلون، وحقيبة المدرسة المبتورة إحدى شداداتها، تتأرجح بشكل سيِّئ.

أخذ زيفيريني يهرول في الممر الواسع وقد تزحلق زحلقة واسعة حتى الدرج انتهت عند خصر مدير المدرسة أميديو، ولأنه كان أيضا مدرس تربية رياضية فقد أوقف الارتطام بقوة. قال بقسوة:

- زيفيريني، حضرتك مرة أخرى، متأخر دائما.

- فاتني الأوتوبيس يا أستاذ.

- ولماذا ليس لديك حتى الآن دراجة نارية يا زيفيريني؟ لا بد أن أتكلم في ذلك مع والدي حضرتك...

- إنهم يقولون إنني ما زلت صغيرا جدا..

- صغير، صغير. ألا يكون المرء مواطنا كامل الأهلية في الثانية عشرة من عمره!

- هل يمكنني أن أذهب؟

قال زيفيريني بعد أن دق الجرس الثاني..

- نعم. بل لا.. لحظة واحدة!

فحص المدير حقيبة المدرسة الرسمية وعلى محياه علامات الجدية.

- هذا بسبب الشدادة.. سوف أصلحها على الفور- أكد الطفل.

- ليس بسبب الشدادة - قال المدير - وإنما لماذا لا تضع لاصقات أو عبارات مكتوبة على الحقيبة؟ ألا تجد شيئا يعجبك في هذا البلد؟

دق الجرس للمرة الثالثة والأخيرة، تبعه إعلان عن ألعاب فيديو. أصدر زيفيريني علامة على أنه لم يعد يستطيع أن ينتظر، ثم ترك المدير وانطلق يبتلع درجات السلم ثلاثة ثلاثة.

وصل في موعده بالكاد، وحياه رفيقه في الطاولة ريتشي بلامبالاة متكبرة، ثم عاد إلى قراءة كتابه الديني النقال. من الخلف صفر الشاب ميلفيو في أذنه:

- سوف يمتحنونك اليوم ويكيلون لك يا مدمل يا قذر..

- ربما.

قال زيفيريني وقد تناول مسطرته والتفت خلفه وسدد ضربة في وجه ميلفيو، والذي حاول أن يخنقه من الخلف، لكنهما انفصلا فجأة عندما دخلت أستاذة الأدب.

كانت معلمة قصيرة وقاسية، بالبزة الحكومية المكوية بعناية، بحيث بدت كأنها ملاط على جدار. جلست ووضعت سجلها على منصة التدريس بحركة مهيبة.

– فليغلق أحدكم النافذة..

قالت المدرسة دون أن ترفع عينيها. كانت النوافذ جميعها مغلقة، ومع هذا فقد نهض رائد الفصل وتظاهر وهو يدير مقبض النافذة بأنه يغلقها إغلاقا نهائيا. يسمعون موسيقى السلام الوطني:

– قيام!

أمرت الأستاذة.

تصاعدت الموسيقى عالية وبمصاحبة من نوع خاص تناغمت الكلمات الخالدة ما بين الأصوات المفتوحة والرنانة، البعض يضع يده على قلبه، والبعض يهرش مؤخرته، البعض بصوت واهن، والآخر بصوت مدو.

وطني واحد ركيز

وأبونا هو الرئيس

بجد وعزم وتركيز

سوف أتابع التدريس

يا وطن قلبي العزيـ يـ يـز

تلاشت الموسيقى بالتدريج. ثم جاءت عشرون ثانية من الدعاية للانتخابات البلدية الوشيكة، ثم جلس الأطفال في صمت مكين. كان يوم امتحان، وعندما فتحت المعلمة السجل كان كأن رائحة كريهة سوف تنبعث منه، رائحة قبر أزيح عنه غطاؤه.

- سوف نمتحن اليوم..

قالت. تبعت ذلك برهة صمت جمدت الجميع. مستقبل البلاد انكمش، البعض اتخذ وضع الجنين في بطن أمه، والآخر صم أذنيه بسدادة، وهناك من اختبأ تحت الطاولة، وهناك من تبادل النظرات بحثا عن العون المتبادل، لأنهم كانوا في تلك اللحظة متساوين جميعا، سرب هزيل من الطيور أمام بندقية مصوبة.

- زيفيريني!

أطلقت البندقية الرصاصة.

انفردت الأعضاء التي كانت منكمشة، وتمددت الوجوه بالراحة، وابتسم الكثيرون وهم يتبادلون الكراملّة. ثم نظر الجميع إلى زيفيريني، الطائر الجريح، الذي كان يتوجه بأجنحته المهيضة نحو المنصة، بينما كان يبدو أن صوتا فريدا مواكبا لخطوته يتابعه:

- إلى الجحيم يا لعين..

أما الأستاذة فمن خلف نظارتها المذهبة، تفحصت مظهر التلميذ باحتقار أكيد. لم يكن زيفيريني ينظر إليها وإنما كان يحاول أن يبرم مخاطا أنفيا أخرجه في التو وراح يصرفه بيئيا. نظر إلى خارج النافذة ورأى شحرورا يقف على أحد الأغصان، ففتن به. قالت له المعلمة:

– اليوم سوف أمتحنك في الأدب. هل استذكرت؟

– نعم يا سيدتي المعلمة.

أجاب زيفيريني. طار الشحرور بعيدا.

– إذن اشرح لي تطور المذيع في تاريخ الثقافة الإيطالية...

– إحم.. نعم، حسنا، كان المذيع في البداية لديه وظيفة يمكن أن نصفها هكذا.. أن يذيع وكفى..

– ما شاء الله! – قالت المعلمة متحدية – مذيع يذيع.. غريب! أليس كذلك؟

ضحك الفصل. وحاول زيفيريني أن يتابع:

– كنت أريد أن أقول إنه لم يكن مطلوبا منه أن يعلم ويربي حتى من الناحية الثقافية، ولكنه كان يعلم من خلال أسئلة الفوازير، أو بتقديم شخصيات لها أهمية.. ثم جاءت ولادة برامج الاستعراض الكلامي أو التوك شو...

- التاريخ بالتحديد الدقيق...

- أعتقد.. , ١٩٧٥. لا؟ ١٩٧٣؟

- أنت لا تعرف.. ١٦ يناير ١٩٧٦، مع الحلقة الأولى من برنامج "قل هذا للمجلس". ماذا كان اسم المذيع؟ إذا لم تكن تعرف فعد إلى مقعدك..

- كوستانتيني...

- مضبوط.. أذكر بعض البرامج الأخرى لكوستانتيني.. ثم قل لي ماذا كان الاكتشاف الثقافي الأكبر لكوستانتيني؟ ذلك الاكتشاف الذي يجعلنا نتذكره اليوم..

- كوستانتيني عمل بعد ذلك مباشرة برنامج "البلد يسأل"، واكتشافه الأكبر هو.. هو.. حسنا..

- النابض..

من آخر الفصل اقترح أحد التلاميذ.

- النابض..

قال زيفيريني.

- لا .. جاهل.. جاهل!

تنهدت المعلمة وهي تضع رأسها بين يديها.

– من يستطيع أن يجيب؟

ترتفع غابة من الأكف المزينة بالأساور.

– أجيبي أنت يا فانتوتسي.

– الاكتشاف الأكبر لكوستانتيني – قالت الشقراء النحيفة فانتوتسي – هي الموفيولا. كان هو أول من جعلنا نشاهد الهدف مرتين عام ١٩٧٠، حتى وإن لم يكن هو الذي اكتشف العرض البطيء، وإنما معلق تليفزيوني عبقري من الأقاليم اسمه بوتورا، والذي...

– برافو فانتوتسي – قالت المعلمة – هل تفضلين تسع درجات أم اليوميات الوردية، يوميات الطفلة الدارسة، التى تحتوي على جميع صور الممثلين المفضلين لك؟

– التسع درجات، فأنا عندي من اليوميات ثلاث. قالت فانتوتسي بأدب.

– جيد! أما أنت يا زيفيريني فسيٍّء!

أومأ لها زيفيريني بالإيجاب وهو يلصق المخاط الأنفي بالسبورة الإلكترونية.

– سوف أعطيك فرصة أخرى: في أي عمل كبير من أعمال الأدب التليفزيوني في القرن العشرين تأتي هذه الفقرة التي سوف أقرأها لك:

"سوف أمضي لأنني ينبغي أن أمضي. ولكن اعلمي أن كل مكان سوف أكون فيه سوف أحملك معي.. لأنني لا أستطيع أن أنسى ما حدث بيننا، حتى وإن كنت زوجة أعز صديق لي، ولنا شركتان متنافستان، والأيام التي قضيتها معك في تلك المدرسة، مدرسة الشراع، كانت أجمل أيام حياتي، رشفة ماء باردة في صحراء وجودي الملتهبة، ولهذا سوف أمضي، لأنني ينبغي أن أفعل. ولكن اعلمي أن أي مكان سوف أكون فيه سوف أحملك معي.. لأنني.." هل تستطيع أن تكمل يا زيفيريني؟

– إحم.. لأنني لا أستطيع أن أنسى.. ؟

– لا.

– لأنك الحب الحقيقي الوحيد في حياتي؟

– لا.

– المرأة التي طالما حلمت بها؟

– لا.

– لأنني أحبك أكثر من نفسي؟

– من الواضح أنك تحاول أن تخمن.. والآن قل لي: من هو ومن هي وما هو العمل الكبير الذي ذكرته؟

– لا أعرف.

قال زيفيريني وقد أخفض رأسه.

- من يعرف؟

ترتفع أيادٍ صغيرة.

- بيومبولوي.

- هو رونسون كورماك، وهي ماري آن كيلر، والعمل التليفزيوني الكبير هو "الفلوس تحب الفلوس" وهذه الكلمات قيلت في الحلقة الأخيرة من المسلسل الأول، الحلقة رقم ٥٠٠ .

- ولماذا هي شهيرة يا يا بيومبولي؟

- لأنها الكلمات الأخيرة التي قالها الممثل كريس والاس الذي كان يجسد شخصية رونسون، وبعدها بيومين مات بعد أن دهمته زحافة هوائية وأخذ مكانه وليام كرايج لينوكس الذي جسد بعد ذلك شخصية رونسون وحتى يومنا هذا.

- برافو بيومبولي.. تسعة..

- أنا درجاتي جيدة فعلا، هل من الممكن أن آخذ لعبة الفيديو "الموت على الطريق السريع"؟

- بالتأكيد. قالت الأستاذة. كانت ضعيفة تجاه بيومبولي لأنه كان أشقر شديد الأناقة كثير الدرس وحفيد العمدة. نظرت إليه نظرة أموية ثم أعادت تدوير النظرة إلى لامبالاة جامدة نحو زيفيريني الذي كان يتمايل على ساق واحدة في بلاهة صامتة.

– زيفيريني: كان ينبغي علي أن أصرفك بدرجتين، لكنني سأقوم بمحاولة أخيرة. هل عملت الواجب في البيت؟ هل حفظت قطعة من نشرة أخبار أمس عن ظهر قلب؟

– إحم.. قطعة صغيرة..

– هيا..

– تحدث رئيس مجلس الوزراء اليوم عن الخطوات التي تقدم بها اقتصادنا.. إحم.. فقال فيما يتعلق بالتضخم.. أي بالانكماش..

– هل تعرف أم لا تعرف؟

– كلا يا سيدتي المعلمة.. لم أستطع الاستذكار أمس..

– ولماذا؟

– لم أشاهد التليفزيون أمس.. لم أنجح في هذا، كانت عيناي توجعاني.

– آه.. هكذا؟ – قالت المعلمة – إن صديقنا زيفيرني لم يستطع مشاهدة التليفزيون لأن عينيه كانتا توجعانه. هل سمعتم! وماذا فعل بدلا من ذلك صديقنا زيفيريني؟

– كان يفقع دمامله..

قال واحد من آخر الفصل.

– صمتا! هاه يا زيفيريني: ماذا كنت تفعل عوضا عن المذاكرة؟

– قرأت.

ارتعدت المعلمة.

– قرأت.. ماذا؟

– كتاب عن الحيوانات يا سيدتي المعلمة.

– لماذا؟

– لأنني أحب الحيوانات. إذا أردت يمكنني أن أسرد لك الفوارق بين أنواع الأسماك وفئاتها، كما يمكنني أن أحدثك عن الدلافين وعن البعثات الكبرى في المحيط..

– هذا ليس في المنهج يا زيفيريني! انته أولا من عمل واجباتك وبعد ذلك يمكنك أن تقرأ كل ما تحب من كتب، ولكن قبل هذا لا! منذ متى وأنت لا تشاهد نشرة الأخبار يا زيفيريني؟

– ستة أيام.

همهمة مستنكرة تجتاح الفصل.

– قل إذن كيف عرفت بداية نشرة أمس؟

– لأنها دائما ما تبدأ بنفس الطريقة. قال زيفيريني. رأى الشحرور يعود إلى الغصن.

اتخذت المعلمة سمة الجدية الشديدة وكأن هذا الذي قاله يؤسفها حقا.

- انظر يا زيفيريني، لقد حاولت أن أساعدك بكل السبل. فسألتك ثلاث مرات. ولكن عند هذا الحد ينبغي الوصول إلى قرار. سوف ينبغي أن أطلب من مجلس الفصل تسليمك إلى مدرسة لإعادة التأهيل.

- بالتأكيد. قال زيفيريني. كان الشحرور يتقافز وكأنما يرسل إليه إشارات.

- يبدو أنك لا يهمك شيء. - قالت في غضب - هل تعرف أن هناك بعض الناس يمكثون في هذه المدرسة عشر سنوات واثنتي عشرة سنة؟هل تعرف أن هناك لا يمكن أن تقول "أنا لا أشاهد التليفزيون" لأن هناك ست ساعات إجبارية يوميا؟ وهل تعرف أن...

- بالتأكيد - قال زيفيرني وتوجه نحو النافذة.

- ماذا تفعل؟ عد إلى هنا، أنا لم انته بعد! أريد أن أعطيك فرصة أخيرة. لو حفظت عن ظهر قلب في خلال أسبوع دون أن تخطئ في همزة خطاب الرئيس في العيد الذي يذاع على القنوات الموحدة يمكنني أن أتفادى هذا الإجراء. ولكن ينبغي عليك مع هذا العناية بمظهرك وملابسك وهذه الدمامل المروعة وينبغي أن تحضر أيضا دروس الدين في أيام الأحد. ماذا تقول في هذا؟

- بالتأكيد - قال زيفيريني وفتح النافذة وقفز إلى أسفل.

كـان في الطابق الأول فلـم يحدث لـه شيء تقـريبـا. الشـحـرور الذي أثاره الفضـول راح يتقافز حولـه. نهض الطفل وهو يضـحك، رغم أن الألم كان يشـمل جسـمه كله. شـغلت المعلمة نظام الإنذار لكي تنبـه الحارس المسلـح فوق برج المدرسـة لهـذا الهروب. كان الحـارس يشـاهد مـباراة بأعلى صـوت، وإلا لكان رأى على شـاشـة المراقبة خلف كتـفيه زيفيريني وهو يجري بعيدا، سريعا كما الريح، والشـحرور من خلفه.

٤

مصادفات

كانت هناك على الترتيب مدينة وجسر أبيض وأمسية مطيرة. من أحد جانبي الجسر كان هناك رجل يتقدم بمظلة ومعطف. ومن الجانب الآخر كانت هناك امرأة تتقدم بمعطف ومظلة. وفي منتصف الجسر بالضبط، حيث كان يوجد تمثالان حجريان لأسدين يتواجهان بالنظر منذ مائة وخمسين عاما، توقف الرجل والمرأة ينظران إلى بعضهما البعض بدوريهما. ثم تكلم الرجل:

- آنستي الرقيقة، مع أنني لا أعرفك فإنني أسمح لنفسي بأن أوجه إليك كلامي لكي ألفت نظرك إلى مصادفة غريبة، وهي أنها المرة الخامسة عشرة في هذا الشهر التي نلتقي فيها في هذا المكان.

- لم تخطئ أيها السيد اللبق. اليوم هي المرة الخامسة عشرة.

- ولتسمحي لي أيضا أن أذكرك أننا في كل مرة نتأبط كتابا لنفس المؤلف.

- نعم، لقد أدركت هذا: إنه مؤلفي المفضل وأظن أنه مؤلفك أيضا.

- هو كذلك فعلا. علاوة على هذا - إذا أذنت - أنك في كل مرة تقابلني فيها يحمر وجهك بعنف، وللمصادفة الغريبة، فإن هذا هو ما يحدث لي أنا أيضا.

- لاحظت أنا أيضا نفس هذه الغرابة. ويمكنني أن أضيف أنك تشير بابتسامة خفيفة ومفاجئة، وأنا أيضا أفعل نفس الشيء.

- غير معقول فعلا. وفضلا عن هذا فإنني في كل مرة يكون عندي انطباع أن قلبي يدق بسرعة أكبر.

- إنه أمر فريد حقا يا سيدي، حدث هذا أيضا لي، بالإضافة إلى أن يدي ترتعشان.

- إنها مجموعة من المصادفات التي تخرج عن المألوف حقا. وأضيف إليها أنني بعد أن أقابلك أحس إحساسا غريبا ولذيذا لعدة ساعات...

- ربما كان الإحساس بانعدام الوزن، وبالسير فوق السحاب، وبرؤية الأشياء بألوان أكثر بهجة؟

- لقد وصفت بدقة حالتي المعنوية. وفي هذه الحالة أنخرط في التخيل...

- مصادفة أخرى! أنا أيضا أحلم أنك على قيد خطوة مني، في هذا الموضع من الجسر بالتحديد، وتأخذ يدي بين يديك...

– بالضبط. في تلك اللحظة بالتحديد، نسمع من النهر صافرة لذلك القارب الذي يسمونه "قارب الحب".

– إن خيالك بلا شك مطابق لخيالي! وفي تخيلاتي وبعد هذا الصوت الحزين قليلا، ولا أدري لماذا، أضع رأسي على كتفك.

– وأنا أداعب شعرك. وأنا أفعل هذا تسقط مني المظلة. وأنحني لالتقاطها، وأنت أيضا، و...

– وعندما نجد نفسينا فجأة وجها لوجه نتبادل قبلة حارة طويلة، وفي تلك الأثناء يمر رجل على الدراجة ويقول:

– بورك فيكما.. بورك فيكما..

يصمتان. تلتمع عينا السيد، وكذلك تفعل عينا الآنسة. ومن البعد نسمع الصافرة الحزينة للقارب الذي يقترب. ثم يقول هو:

– أنا أعتقد يا آنسة أن مثل هذه السلسلة من المصادفات لا تأتي صدفة.

– وأنا أيضا لا أعتقد هذا.

– أريد أن أقول إن الأمر هنا لا يتعلق بإحدى التفاصيل، وإنما بمجموعة كبيرة من التفصيلات. والسبب لابد أن يكون واحدا.

– طبعا. لا يمكن إلا أن يكون كذلك.

- والسبب هو - يقول الرجل وهو يتنهد - أنه توجد في الحياة أحداث غريبة، توافق أنغام غامض، إشارات كاشفة نكاد نلمس مغزاها، ولكننا للأسف لا نملك مفاتيحها.

- هو ذلك فعلا - تتنهد الآنسة - لابد من وجود وسيلة، أو منجمين، أو ربما علماء في أحد فروع العلوم الغامضة، لكي تنجح في تفسير رسائل القدر الغريبة التي تصدر صداها يوميا في حياتنا.

- على كل الأحوال فإن كل ما حدث لنا فريد حقا.

- مجموعة من المصادفات المدهشة، من المستحيل إنكار هذا.

- ربما جاء يوم يستطيع فيه أحد العلوم أن يفك شفرة كل هذا. وحتى ذلك الوقت أطلب إليك المعذرة على الإزعاج.

- ليس هناك أي إزعاج، بل كان هذا ممتعا.

- أحييك يا آنستي الرقيقة.

- أحييك أيها السيد اللبق.

ثم مضيا بخطوات جادة، كل في طريقه.

٥

مدير المكتبة الجديد

حزمة مفاتيح بالية يميل لونها إلى الأحمر، كان أحدها يبعث على الدهشة لفرط ضخامته وقدمه. مفتاح تغطيه طبقة من الجير الحديدي وكأنه قد استعيد من قاع المحيط بمقبض بيضاوي تتخلله رسوم أرابيسك معدنية كأنها سياج مصغر لحديقة حوريات. وعنق المفتاح طويل بشكل مبالغ فيه وينتهي بوجه وحش مسنن محفور به فتحات شديدة التشويه كما لو أن وظيفته لا تقتصر على فتح الأبواب وحسب وإنما تحديها في مباراة للدهاء، كل حركة فيها تقابلها حركة أكثر دهاء، السن مقابل مجراه الضيق، الامتلاء ضد الفراغ، مخلب في مواجهة ثقب. بدا المفتاح وكأنه محكوم عليه أن يظل حبيسا للأبد ما أن يدخل في الباب، يوثق العلاقة بينهما التعشيق الدائم. مفتاح ليست وظيفته أن يفتح وإنما أن يحكم الإغلاق على الدوام.

انتقلت حزمة المفاتيح من اليد الطويلة العظمية لصاحب المكتبة القديم إلى يد المالك الجديد الكبيرة المشعرة، الذي أحكم عليها قبضته

بسرعة زائدة حتى أن أحد سنون المفتاح الطويل جرحت أحد أنامله جرحا خفيفا.

- يا له من حديد خردة، لابد أن أغير الكالون! فكر المالك الجديد. لم يكن المالك القديم يفكر في أي شيء، كان يحس والمفتاح يختفي في جيب الآخر بأنه يفقد وزنه، يتلاشى.

مكتبة الكيميائى لن تغلق

لن تغلق مكتبة الكيميائي، أقدم وأشهر مكتبة أثرية في مدينتنا. فبعد أن انتهت مدة عقد الإيجار اضطر المالك القديم البروفيسور سولاري أن يعتزل النشاط واشترى موقع المكتبة شركة العقارات فينفستو، والتي تمتلك أيضا دورا للسينما ومحلات السوبر ماركت. وقد ثارت مخاوف من أن تتحول المكتبة إلى مطعم لبيع الأغذية السريعة أو الجينز. وفي مواجهة هذا الاحتمال قام عدد من وجهاء المفكرين في المدينة بالتوقيع على نداء لإنقاذ المكتبة باعتبارها " شاهدا من شواهد ثقافة المدينة وأثرا من آثارها". ولم يذهب هذا النداء هباء، ففي الأسبوع الماضي طمأن صاحب شركة فينفستو الفارس داللورو، والذي بدأ منذ وقت قليل اقتحام مجال النشر بنجاح، طمأن الجميع. سوف تبقى مكتبة الكيميائي كما هي، مكتبة، بل سوف يعاد إحياؤها. وسوف يعاد تنظيم قطاع الكتب القديمة بواسطة نظم تصنيف بالكومبيوتر وسوف يتم إصلاح

قاعات المكتبة القديمة بأحدث ما وصلت تكنولوجيا تنظيم المكتبات. كما سوف ينشأ قطاع للكتب الجديدة، وسوف تستضيف اتانور الصغيرة حيث كان يعمل الكيميائي والمؤرخ الشهير فيرجا فولكانيللي حفلات كوكتيل أدبية.

وقال الفارس داللورو في مؤتمر صحفي : "إنني أريد بهذه المبادرة أن أبرهن من جديد على أن الأعمال التجارية والثقافة يمكن أن يسيرا جنبا إلى جنب، ولكي أطمئن الجميع على أن قلقهم ليس له أساس يسعدني أن أعلن أن المدير الجديد للمكتبة سوف يكون من الشخصيات الأكاديمية المرموقة: البروفيسور أكانتي، وهو من أوائل من وقعوا على النداء".

كانت قصاصة الورق ترقد فوق المنضدة إلى القرب من المفتاح الأحمر المترب. كان التراب يأتي من جدار المكتبة وقد تساقط بواسطة مثقاب كهربائي. كانوا يقومون بتغيير الباب الخشبي القديم بآخر مصفح. ولكن هذا كان لابد أن يظل التغيير الوحيد، فحسب إدارة تفتيش الآثار لابد أن تحتفظ المكتبة بأثاثها القديم بما في ذلك رفوف المكتبات المصنوعة من خشب الجوز، وقطع الأثاث القديمة والجدران المزينة برسومات غامضة رسمها فيرجا فولكانيللي انتييري.

كان البروفيسور يتجول بين أرفف المكتبة التي تفوح بعبير الورق والأحبار بينما كان العمال يعتزمون الانتهاء من اللمسات الأخيرة. كان يتقدم ببطء متحفزا لأن يتوقف عند سماعه أي حفيف سريع لفأر أو

نخير السوس، وهم أعداء الكتب على الدوام. كان قد درس خطة عصرية لمحاربة الحشرات مثل الحقن بين دفتي الكتب ورش مساحيق السموم، ومصايد الليزر. ولكن قدم الكتب والإهمال والتكديس والتكويم الفوضوي لها في المواقع المرتفعة التي يصعب الوصول إليها، والتراب الراكد في الهواء كأنه شبورة خفيفة، كان كل هذا كان يثير أعصابه ويجعل مشروعه يبدو عقيما. لم يكن يلزم رش مكثف وحسب، غربما لم تكن تلك الكتب كلها قديمة وثمينة، وبعضها كان قديما فقط، وليست لها ضرورة لاقتصاديات المكتبة. كما أن الفارس داللورو كان واضحا في كلامه معه:

– لا أخفي عليك يا بروفيسور أنني كنت أستطيع أن أقوم بعمل يدر ربحا أكبر بين تلك الجدران. لكنني أحب الثقافة، فضلا عن أنني أحب أن يعتبروني صديقا للثقافة. وأنت تعرف جيدا أي نوع من الرجال كان المالك القديم للمكتبة. لقد وصل إلى درجة أنه لم يستطع أن يبيع بعض الكتب لأنه كان مفتونا بها. وعلى مدى ثلاثين عاما لم ينجح في أن يجمع من المال ما يكفي لتجديد عقد الإيجار. أما نحن فسوف نصنع مكتبة حقيقية، ولو كسبنا شيئا لن نخجل من هذا. في صحتك! – ثم شربنا نخبينا من نبيذ ضيعة داللورو اللاذع.

ها هي صورة المالك القديم على الحائط، قصير، ملتح، تغطي رأسه كسكتة فرو بيضاء مثل كسكتة الزعماء النقابيين. كان يبلغ من العمر سبعين عاما ولكن ملامحه تعطي انطباعا بثلاثمائة عام، مثل بعض كتبه. أما شطحاته المجنونة والطفولية فقد أصبحت أسطورية، فهو يرفض أن

يبيع لبعض الزبائن، ويتحدث باللاتينية مع البعض الآخر، ومع آخرين غيرهم كان يضع الكتاب في أيديهم حتى يرى كما كان يقول ما إذا كان سوف ينشأ بينهما "تيار تعاطف". وكثير من الكتب كان يحتفظ بها مخبأة في رفوف سرية. وغالبا، ولأسباب تتعلق بالتعاطف، كان يبيع كتبا نادرة بأسعار بخس. وكان يرسل الكثير منها في عبوات دقيقة بشكل مهووس لجامعات يابانية وأمريكية. وكان وهو يرسل هذه الكتب إلى البريد يسير بها بخطى وئيدة مكشوف الرأس حتى في عز الشتاء، وهو يكلم نفسه. وكان يقال إنه كأنه يشرح للكتب طريق الرحلة التي سوف تقوم بها، ويواسيها في الرحيل، ويحيطها علما بالعادات والتقاليد في البلاد التي سوف تعيش فيها، ويحذرها من الأخطار المحتملة. وفي لحظة تسليمها للبريد كان يربت بحنان على كل عبوة على حدة، متمنيا لها رحلة سعيدة. وأحيانا كان يترك نفسه للبكاء وسط نظرات موظفي البريد المتفهمة.

تحدث البروفيسور أكانتي في التليفون (كان قد قام بتركيب أربعة هواتف بأزرار) داعيا المعاونين للحضور في اليوم التالي للبدء في تصنيف الكتب. كان الوقت قد أمسى. تمدد على أريكة أمام مكتب المالك القديم وتلفت حوله. ودار ببصره نحو السقف ذي الأقواس كانت المكتبة تبدو له كبيرة ومعتمة على نحو خاص. وكانت الرفوف الأعلى والتي تختفي على طول النظر تختلط بالتصميم الهندسي، يبعث أحيانا على النوم بشكل غامض، ولم يكن من الممكن قراءة عناوين الكتب. والجدران

المغطاة بالورق تعلوه في صعود يبعث على الدوار، كأنها غابة ضخمة، أو نصف غلاف الكرة الأرضية الجوي. بدت له بالملايين، مع مليارات من الكلمات، تتهامس، تتشاتم، تتخاطب في نفس الوقت، بحيث لا يمكن تمييز الصوت، فاللغات كثيرة، وقواعد النحو متنوعة، وفكر البروفيسور في أنه سوف يكون لزاما وضع نظام جديد ومن هذا الأنين المائع سوف يولد الصوت الواضح القوي المقنع للمكتبة الجديدة. مكتبتي! لن تكونوا على راحتكم بعد الآن أيتها الكتب النائحة المتفلسفة المعقدة عديمة الجدوى.

وبينما كان يفكر على هذا النحو تملك البروفيسور إحساس غريب بشع. فمن الناحية الجسمانية تصلبت عظامه، وتصاعدت فجأة ضربات قلبه، وثقلت جفونه، وهي أعراض تنبئ غالبا عن الإصابة الوشيكة بالحمى. ولكن الأسوأ من هذا هو ما دخل قلبه من شعور. خوف غامض مكين، كما يحدث في الحلم أن يرى المرء نفسه في مكان منعزل كريه حيث يتراجع صدى خطوات خطر مجهول. كما لو أن شيطانا ليليا نقله فجأة في صحراء بعيدة غريبة على الروح. قاوم بالنهوض على الفور والذهاب لكي يرى ما إذا كان أحد لا يزال باقيا في المكتبة، ولكن العمال كانوا قد انصرفوا بعد أن انتهوا من تركيب الباب الصلب الكبير. فكر في أن يعود إلى البيت، ولكنه بعد أن فكر قرر بأنه عليه أن يهزم الخوف هزيمة ساحقة، لأن هذا المكان سوف يصبح مكان عمله لعدة سنوات قادمة. وكان أفضل شيء يفعله هو أن ينتقل إلى القاعة الأكثر نورا من

المكتبة، هناك حيث توجد نافذة بيضاوية تسمح لأشعة النهار الأخيرة أن تتسلل إلى القاعة، بين كتب القرن العشرين، وهي الكتب التي يعرفها خير المعرفة. ولكنه بينما كان متجها نحو تلك القاعة، أخطأ بسبب ضعف دربته فوجد نفسه في الطرقة الضيقة، مصران مسدود بالكتب المكدسة حتى على الأرض، وشق بين الجدران تسده الكتب القديمة. كان عليه أن يتقدم متواثبا ملامسا دفات الكتب بكتفيه.

وفجأة توقف، ونظر إلى أعلى، ذاهلا، نحو أغلفة الكتب المذهبة، نحو العناوين التي لا يمكن قراءتها. استند على رف فعضته حاشية كتاب في عنقه. أطلق صيحة ألم ساخطة، وأصبح شعوره الأول أوضح ومخيفا أكثر. ربما يمكن أن أعزو هذا إلى أن هذه الكتب لا تعرفني، فكر. فهم يديرون لي أكتافهم غير عابئين، وربما محتقرين. ولكن الأمر ليس كذلك.

* * *

كان البروفيسور قد وصل أخيرا إلى القاعة ذات النافذة البيضاوية، وكان يدخن، والشبورة الزرقاء لسيجارته كانت تصعد بطيئة بين رفوف الكتب، تلامس الكتب الجديدة، في دوائر جهنمية جديدة. كان أكانتي يضع إحدى يديه على سجل الخزنة الجديد، وباليد الأخرى يتصفح شاردا إحدى المجلات. ولكن لأن هذا الغرفة لم تكن أقل كآبة فلم ينقشع

الخوف. فمن كل رف، ومن كل ركن، كان يبدو له أنه يتلقى هذه النظرة المعادية. لوم أم احتقار، أم شيء أكثر شرا؟ هل كانت الكتب تتنصت على أفكاره؟ ربما سمعت اقتراحه بالقضاء على البعض منها، فتوترت لهذا السبب؟ ولكن ما هذه الترهات!

ومع هذا كانت صورة المالك القديم هناك أمامه، فوق رف مكدس بالكتب، وبدا للبروفيسور أكانتي أن الكتب كأنها تنظر إلى سلفه نظرة ندم غير خافية. ربما كان ميل نسخة من كتاب دون كيشوت كانت تبدو وكأنها تتوجه نحو الصورة، أو ضوء المصباح الذي كان يسقط على دفة كتاب مارتين إيدن فيجعله يتألق كأنه نظرة عاشقة. كان كل شيء يبدو وكأنه يحتفي بالحب الموجود بينهم – أي الكتب– وبينه _أي المالك القديم، المهزوم، المطرود، الملك المخلوع، الذي لم يستطع تجديد عقد الإيجار، بسبب حبه لهم، صاحبنا، ضحى بمكاسب سهلة كثيرة، لم يبعنا، احتفظ بنا معه، وتأتي أنت الآن...

– لا.. كفى كفى!! قال أكانتي بصوت عال، مدركا برعب أن ذهنه أخذ يقرأ الصفحات التخيلية لكتاب يكيل له الاتهام. كفى – ردد لنفسه – لست مجنونا، إنني هنا لكي أجدد مكتبة قديمة، وأنتم أيضا، أي هذه الكتب، لابد أن تكون مسرورة، فسوف يأتي أناس أكثر، وسوف تدخل عناوين جديدة، سوف تقل الفوضى والقذارة، وسوف يتم القضاء على الفئران والسوس، وبعض من هذه الكتب التي ترقد هنا منذ سنوات بلا فائدة ربما بيعت كما هو مقدر عليها ومكتوب، ألم تخلقوا من أجل هذا؟

أم تفضلون أن تظلوا في هذه المدافن على الرفوف، في قبوركم المعلقة في الهواء؟ تخطئون لو تصورتم أنني لا أدرك أنني أتحدث حديثا عبثا، فأنتم غير موجودين في الحقيقة وأنا أتحدث الآن مع أشباح...

ارتجف. ضجيج منذر كان يأتي من قسم الكتب التاريخية، من الشق الذي مر به منذ قليل. جعجعة شنيعة كأنه باب ينزلق على قضبان. ثم كان هناك دوي أصم لجسم يسقط. أراد أن يثب على قدميه، لكنها لم تطاوعه، فكان عليه حتى ينهض عن الأريكة أن يستند على المكتب، وبينما يفعل هذا ارتطم بكومة من الكتب فتساقطت بعد أن نالها التدمير، سقطت جميعها وشج أحدها في سقطة مدوية، فانفصل الغلاف عن الصفحات.

ظل الكتاب على الأرض مسلوخا بلا جلد ومن الرفوف سمع أكانتي صرخة رعب واستنكار تصعد.

سفاح!

الآن ينبغي على حقا أن أهدأ، فكر وهو يحاول أن يجمع الأوراق المتناثرة، لابد أن هناك شيئا في هواء هذا المكان الملعون، شيئا ما يعمي العقل ويهيج الكوابيس، عفونة أحبار قديمة تسبب الهلوسة، عرق الورق، أو ربما بقايا أعمال فيرجا فولكانيللي أنتييري الكيمائية. ولكنني سأقاوم، كان يفكر وهو يستعيد أوراق الكتاب المتناثرة هنا وهناك في كل

الأنحاء وكانت تبدو وقد تحركت إلى أركان الغرفة البعيدة، كانت مائة، أو ألف ورقة تتطاير في كل مكان. هل كان تحرك الهواء بسبب الحركات العصبية للبروفيسور هو الذي يهيجها على هذا النحو، أم ربما كانت نفخة غامضة؟ هل كانت تتحرك من تلقاء نفسها ربما بهدف تحريض الكتب الأخرى بهذا الاحتضار المهيب، وبهذا التطويل السافر للعذاب، لأنه لا شيء أكثر من الانتزاع والانفصال يمكن أن تجعل صفحات كتاب تتألم؟

في النهاية، وبعد أن غرق في عرقه وتفككت أوصاله، أخذ أكانتي يدفن الصفحات في سلة وهو يكرمشها بطريقة سيئة بسبب العجلة، بل إنه فتت بعضا منها ومزقه. وعندما انتهى من ذلك قرر أن يقرأ عنوان الكتاب الممزق.

لم يكن كتابا. كان سجلا، مكتوبا بقلم المالك وكان يحتوي على المعلومات المتعلقة ببعض الكتب التي لها أهمية خاصة. فقد أشار إلى مكان كل كتاب على الرفوف، مصحوبة بملاحظات ليست كلها واضحة.

استعاد البروفيسور صفحة وقرأ:

موقعه في الرف ب ٣٤٥ يسار، براوان توماس – ديني وترميد الموتى، فلورنسا، ريناشيمنتو ديل ليبرو ,١٩٣١ في ٨٠ فقرة، عدد الصفحات مقدمة ٢٦ ومتن ٢٥٨ ، الكتاب غير مقصوص الحواف جزئيا.

رسومات لزهور على ظهر الغلاف. آثار تآكل للفئران في الزاوية اليسرى الأمامية. تمت العناية به في تاريخ حديث. ١٦/٦/, ١٩٧٤

تم نقله من الرف ر ف يمين دانونزيو جبرائيل - ايزاوتا جوتاداورو. ميلانو، دار نشر إيطاليانا ,١٩٠٩ عدد الصفحات , ١٢٠ الظهر به علامات لشريط لاصق ويقع، ربما كانت دموعا. طلبه البروفيسور ماك فيلس من دبلن، وهو شخص يستحق. أقنعت الكتاب بأن يسافر، رغم أنه كان يفضل أن يباع إلى امرأة، بعد أن أوضحت له أن البروفيسور لديه ثلاث بنات جميلات. بيع بمبلغ ٣٥ ألف ليرة.

موقعه في الرف هـ ٢٣٤ وسط. تيوتوكي البريتزي إيزابيللا - لوحات وحياة فيتوريا كولونا مع شذرات من رواية سيرة ذاتية تأليف اوجو فوسكولو. إعداد تومازو بوتسا، روما، تومينيللي , ١٩٦٤ في ٨ كتيبات، صفحات المقدمة ١١٢ والمتن ١٦٨ مع ٢٤ لوحة منفصلة عن النص. كتاب من ورق هش، مضطرب للغاية بسبب تعرضه لسقطة سيئة، يحمل آثارها الواضحة في الزاوية اليمنى الأمامية. لم يبع، بناء على طلب الكتاب نفسه، إلى البروفيسور ت. دي بارما، الذي تصفحه دون أدب. سعر البيع ٢٠٠ ألف ليرة.

ضحك أكانتي من قلبه. إذن فقد كان المالك القديم شاطحا أكثر مما يمكن تخيله. ود لو يعرض هذه الأوراق على زملائه من الجامعة فلابد أنهم سوف يجدون فيها مبعثا على الضحك والشفقة. انتقل إلى قراءة صفحة أخرى مكتوبة بالقلم الأحمر.

كتب مثيرة للمشاكل وغير طبيعية

منقـول من الرف ت٥ يمين إلى ك ٤٤، ســاد (مــاركـيــز دو) -- مراسلات غير منشورة للماركيز دو ساد وجيرانه وأقاربه، منشورة مع مقدمة ومضابط وملاحظات بقلم بول بورديان، باريس، مكتبة دو فرانس ١٩٢٩. في ٤ كتيبات عدد الصفحات ٥٠ للمقدمة و٤٥٢ صفحة للمتن. رسومات صغيرة لزهور في بعض الهوامش، قطرة دم تعبر الصفحات من ٣٤٣ إلى ٣٤٩. تعود الكتاب على إيذاء غيره من الكتب، وتلويثها بلطع من العفن إذا ما تصادف أن جاء الغلاف في مقابل الآخر. وليس هذا بسبب سوء النية ولكنه الضجر من كل أنواع الحبس. لابد من الاحتفاظ به وحده حرا في رف واسع رحيب. يدافع عن نفسه بنفسه ضد الفئران. غير قابل للبيع رغم أنه نادر.

موقعه أحيانا في الرف ت٥ إلى اليمين وأحيانا أخرى في تي دي ٤٤، ٤٦، ٤٩ إلى اليمين، حكايات شعبية وخرافية أيرلندية. مختارة ومحررة مع تقديم لوليام باتلر، ييتس، مع ١٢ صفحة كاملة الحجم من الرسوم التوضيحية بريشة جيمس تورانس. الناشر والتر سكوت، لندن وفيللنج اون تاين، صفحات ٥٠/, ٣٤٤ الكتاب سحري (يحتوي على حكايات رائعة عن الجنيات الأيرلنديات) وهو أثناء الليل، وبخاصة عندما يكون القمر بدرا، يختفي من على الرف. وأظن أنه يطير إلى الغابات حول المدينة، لأنني ذات مرة وجدت بين الصفحات أشواك صنوبر وبقع من صمغ الأشجار. لا يوضع محشوراً بين الكتب الأخرى، لأنه ربما

أسقطها وهو يحاول الطيران. يجب إبقاء نافذة إلى جوار الرف مفتوحة دائما. سوف يختار هو القارئ، وربما يكون طفلا. غير قابل للبيع بأي سعر.

موقعه في الرف ٥٤ هـ إلى اليمين، فابره جيه إتش - تذكارات حشرية ، السلسلة الأولى، الطبعة الثامنة عشرة، مكتبة ديلجراف، باريس، صفحات ١٢- ٣٢٣، الجزء الأول. نموذج رائع لكتب الحشرات، بغلاف رائع من الورق المقوى من نوع فيلفرانش باللون الأزرق، الورق من نوعية راقية. محفوظ بطريقة ممتازة، والسوس لا يهاجمه لأن الكتاب يخصص لها يحب ١٢ صفحة، طلب اليوم أن يباع باعتباره واحدا من ثلاثة أجزاء وهو من نوع الكتب، وهو نوع شائع، الذى يعاني إذا انفصل عن طبعته الكاملة. لابد من البحث عن مالكي الجزأين الثاني والثالث.

٩ يوليو، ملاحظة مضافة، وجدت مالك الجزأين الآخرين، وهو عالم حشرات من سيينا. سافر الكتاب برضا تام. بيع بمبلغ خمسين ألف ليرة وهو عشر قيمته الحقيقية، لكن عالم الحشرات لم يكن ميسور الحال. احتجاج من السوس. من الصعب إرضاء الجميع.

"احتجاج من السوس " أخذ البروفيسور أكانتي يضحك من قلبه حتى أنه نسي كل شيء، الخوف والضجيج الغامض الذي كان موجودا من قبل، وتناول ورقة أخرى وقد زاد فضوله.

موقعه في مقر سري، واي اتش أر دي ٣٤، فيرجا فولكانيللي انتييري جوليرمو – عن المحاكمة وتبرئة مجرمي التمرد العمالي في كريفالدو. دار نشر اتانور ١٨٢٣، جزءان مغلفان بنوع غامض من الجلود، الأركان والدوائر فضية مشغولة بأشكال ربما كانت مصرية قديمة، عدد الصفحات ١٠٣٢، تصميمات مذهبة. لابد أن يدهمك الخوف! فهذه الطبعة كانت من ٣٥٠ نسخة مرقمة وهذه هي النسخة الوحيدة المتبقية بعد أن تم تدمير باقي النسخ في ظروف غامضة.

يحتوي الكتاب على بعض القصص القاسية في منطقتنا لم تتبق منها إلا آثار واهية في كتب التاريخ. ولأن الجزأين يعانيان من قهر الأحداث المروعة بداخلهما فقد جن جنونهما. وقد أصبح سلوكهما (جزء مطموس غير قابل للقراءة) حتى أنني وجدت مئات من جثث الفئران بعضها برأس (جزء منزوع) .. وفي شهر سبتمبر حاول الجزء الأول أكثر من مرة (غير مقروء) وأن يترك الرف. وتمت استعادته ووضعه في مكان آمن ولكن حذاري (تحتها ثلاثة خطوط) احرسه، ولا تضعه أبدا في مكان العرض. وهو بسبب ندرته عليه طلب شديد. هناك عرض من البروفيسور جرانت من جامعة ادمبرج، مائة وخمسون مليونا. أجبته بأن الكتاب ليس عندي. لا أعرف إن كان قد صدقني.

ملحوظة مضافة: اليوم، الثالث من أغسطس ١٩٧٦، وبينما كنت أتفقد قسم التاريخ، وتحت كتب "وراثة عائلة سافويا" رأيته .. (غير مقروء- الورقة ممزقة).

مائة وخمسون مليونا! تعجب أكانتي. وتظاهر بأنه ليس لديه! هل وصل به جنونه إلى هذه الدرجة؟! لقد كنت أشك - فكر - في أن هذا القسم من المكتبة يحتوي على كتب ضخمة القيمة. سوف تكون هي أول ما نبيع: إن الفارس داللورو ربما لم يعرف بعد حقيقة الصفقة التي أجراها. والآن حتى أرفع عن كاهلي هذه الكوابيس فما هو أفضل دواء؟ سوف أذهب إلى ذلك القسم وأتي بهذا الكتاب ثم أطلب البروفيسور جرانت وأدشن أرباح المكتبة بضربة قدرها مائة وخمسون مليونا!

محا اكتشاف الكنز أي أثر للخوف من نفس أكانتي. وبروح التحدي سار مرة أخرى في متاهة المكتبة، نحو الطرقة الملعونة حيث تتم حراسة كتب فيرجا فولكانيللي انتييري. ثم عاد إلى قسم التاريخ وبحث عن كتب وراثة عائلة سافويا. اكتشف مكانها وجرى بنظره نحو الأعلى.

لابد أن يكون الكنز هناك، وبالفعل شاهد على الرف الأخير شيئا خلع قلبه.

كتاب ضخم يبرز على نحو ثلث الرف. كان ذا لون داكن بحواف وثنايا مدعمة بالفضة. وعلى الأرض كان كتاب آخر ضخم يرقد طيبا لا يضر عن جمع الأعشاب الطبية. كان الكتاب المدعم هو بالتأكيد الذي

أسقطه لأنه كان يخفيه، حتى يعرض نفسه، حتى يتحرر. كان هذا إذا سر الصرخة وصوت السقطة الذي سمعه من قبل. ولكن البروفيسور قرر ألا يفكر كثيرا في هذا، ففي رأسه كانت ترن الكلمات الساحرة "مائة وخمسون مليونا". استجمع شجاعته وتناول سلما وتسلقه. وببطء قرب يديه من الكتاب. لم يحدث شيء رهيب. استحوذ عليه، وأمسكه بإحكام تحت إبطه وهو يلهث من التعب. إنه ثقيل الوزن - فكر - كأنه شاهد قبر. ولكنه نجح في أن ينزل، ووضع الكتاب منتصرا على الأرض، وفتحه ووضع ركبته عليه بعنف، كأنه يثبت على الأرض خصما له. في تلك اللحظة كان الضوء الوحيد الذي يضيء الشق قد بدأ يخبو ويهتز. ربما ضعف التيار - فكر البروفيسور. بدا له أيضا أن الكتاب يصدر من تحت قدميه سخونة غريبة. كان بالفعل ضخما، مكتوبا بخط ثمين غزير. أسد أخضر يزين حواف كل صفحة. وتلك الصفحة التي كان يطل عليها كأنها بئر عميقة تقول:

"في المحاكمة التي عقدت في مدينتنا في العام الجاري لمقتل تسعة من العمال اليدويين الذين وصفوا بالمتمردين ضد كونت توراليا، من جانب أربعة من جنوده المرتزقة والتبرئة المخجلة التي تبعتها".

وبالفعل فإن البروفيسور كان يتذكر شيئا من هذه القصة. تمرد تم قمعه بالدم، سطور قليلة في بعض النصوص القديمة. فإذا كان هذا الكتاب كله قد كتب للحفاظ على ذكرى هذه الحوادث البائسة فقد فشل في هدفه. تصفح الكتاب سريعا حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة.

"أترك هنا أسماء الموتى، الذين ذبحوا على شاطئ النهر، بليل، دون أي ينعموا بأي راحة دينية، كالكلاب، لا لشيء إلا لأنهم طالبوا بالخبز أمام قلعة الكونت.

"اليتشاني ماتيو، من عزبة بولفيروزو

اليتشاني ساندرو

اليتشاني ستفانو وعمره ١١ عاما

كامازي روبرتا وعمرها ١٥ عاما

كامازي الدو

تشيرفيري روموالدو من عزبة باستيناكا

تشيرفيري جوستينو

تشرفيري اميديو وعمره ١٤ سنة

تشيرفيري جوليا

ملعون هو من يريد لهم النسيان، ومن يتجرأ على نقل هذه الذكرى خارج بلدنا، قبل أن تأخذ العدالة مجراها".

سمع البروفسور من جديد صوت جعجعة.

وفي تلك الأثناء كانت اللمبة في سبيلها للانطفاء وساد الظلام تقريبا في قلب الشق. وفي ضوء ولاعته قرأ ما تبقى.

"وهذه هي أسماء الجنود المرتزقة:

"اليوزي اليسيو الشهير باسم تكشيرة

فارفارا لويجي الشهير بالشفة الأرنبية

فارفارا جوفاني الشهير بالخنجر

سيفيري جوزيبي الشهير بخالع القلوب.

هؤلاء هم من ارتكبوا الجريمة بتكليف من الكونت، وهذا هو اسم القاضي الفاسد الذي برأهم لعدم كفاية الأدلة:

أكانتي سوربارا ليونه.

عن هذا الفزع، عن هؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين ذبحوا ومزقت أجسادهم، وطليت بالدم منازل أهليهم، أترك هذه الصفحات كتحذير عنيف وشاهد وأمل أن يأتي ذكرهم ذات يوم. وحلمي هو أن تفتح يد نبيلة أحد هذه الكتب وأن يتم تنفيذ العدالة، إن لم يكن في الأجساد، ففي الأسماء وفي الذكرى، وأن تعاد الحقيقة والرحمة للأبرياء الذين لم يتمتعوا بهما في حياتهم. والويل لمن سوف ينقل أو يبيع هذا الكتاب خارج محيط أنهار هذه الأرض، الويل له! لأنني نجحت في إعطاء المادة روحا وإشعال النار في الرماد ومنح الحياة للخامل، بل إنني نجحت في تسخين قلب الإنسان.

جوليلمو فيرجا فولكانيللي انتييري، مؤرخ وكيميائي ورجل قانون".

"إعطاء المادة روحا". مجنون آخر في يوم مليء بالجنون - فكر أكانتي - وأغلق الكتاب ومر بيده على ظهر الديناصور، وعلى النقوش العجيبة في الثنايا الفضية. ورأي أيضا أن سيفا مذهبا قد حفر على الغلاف وإن كان دقيقا تكاد العين لا تدركه. كان نصل السيف لأسفل، تعلوه كتابه لاتينية تقول:

لا أحد يموت بلا عقاب.

وتمتم البروفيسور: عزيزي الكتاب، حتى ولو كانت نوايا مؤلفك نبيلة فإنك سوف تغادر هذه المكتبة وهذا البلد. فقيمتك عالية جدا لأنك نادر وثمين، ليس للأشياء التي تحتويها، فهي أشياء عفا عليها الزمن وحكايات طواها النسيان. كان المعتقد دائما أن الكلمات تترك أثرا، ولكن التاريخ دائما ما يمحوها كما محا الدماء عن جدران هؤلاء الفلاحين بل محا الجدران والمنازل. إنه أمر حزين، ولكن افرح، لأنك ستكون الحدث التاريخي الأول في إدارتي للمكتبة. رفع النور الضعيف للولاعة ورفع رأسه منتشيا بالنصر نحو الكتب التي بدت له عتيقة مترية عديمة الفائدة على الإطلاق. ومن الرف الأعلى رأى شيئا يبرز. فجأة تذكر. الكتاب كان من جزأين! وقد أخذ منهما واحدا، بينما هناك جزء ثان هو الآخر ثمين ونادر! اتجه نحو السلم، ولكن شيئا حبس قدمه. نظر إلى أسفل فرأى برعب أن كتاب فيرجا انتييري قد انغلق حول ساقه كأنه مصيدة أحكمت الغلق حولها بقوة مخيفة.

لأنني نجحت في إعطاء المادة روحا...

إنني أحلم – فكر البروفيسور. وبينما كان الكتاب الاول يحبسه بدا لكتاب الأول التوأم يبرز عن الرف وهو يتأرجح فوق رأسه. كان يريد أن يطلب النجدة ولكنه لم يفلح. بدا له على العكس أن الكتب هي التي تصرخ، وأنها جميعا في لحظة أطلقت صرخة نصر. بينما الكتاب الضخم المطعم يتمدد ويسقط من أعلى، ثقيلا كأنه نصل سيف، على عيني البروفيسور الجاحظتين من الخوف.

كان هناك ضجيج أصم، تبعه صمت عميق. ثم، بحذر في البداية ، وبعدها بنشاط وضجيج متصاعد، هرولت سيقان الفئران على طول الجدران نازلة من الرفوف نحو الوليمة غير المتوقعة.

٦

دوديات

(قصص أخلاقية)

كانت دودة معلقة في صنارة، ورأتها سمكة فقالت:

- الآن سوف آكلك.

- لو أكلتني - قالت الدودة - فسوف تؤكلين أنت أيضا.

لم تعرها السمكة التفاتا وأكلتها وأُكِلَت.

كانت دودة معلقة في صنارة، ورأتها سمكة فقالت:

- الآن سوف آكلك.

- لو أكلتني - قالت الدودة - فسوف تؤكلين أنت أيضا.

مضت السمكة العارفة بالجميل ولم تعد تأكل الديدان أبدا.

كانت دودة معلقة في صنارة، ورأتها سمكة فقالت:

- الآن سوف آكلك.

صمتت الدودة.

أكلتها السمكة وأكِلَت.

كانت دودة معلقة في الصنارة، ورأتها سمكة فقالت:

- آه كم تعاني، هل أستطيع أن أعمل شيئا من أجلك؟

- كليني - تضرعت الدودة - ضعي نهاية لعذابي.

- لا - قالت السمكة - لا أريد أن أؤكل.

كانت دودة معلقة في الصنارة، ورأتها سمكة فقالت:

- آه، كم تعاني، هل أستطيع أن أعمل شيئا من أجلك؟

- تستطيعين، ولكنك لئن فعلت فسوف تؤكلين.

- سوف آكلك أيضا - قالت السمكة - لا أستطيع أن أراك تعانين هكذا.

الدودة التي قبل أن تصبح طعما كانت خيرة، كانت معلقة في الصنارة عندما مرت من هناك سمكة مشهورة في كل النهر بأنها شريرة.

نظرت الاثنتان إلى بعضهما البعض طويلا. ثم توجهتا إلى الصياد:

- وأنت، ماذا تفعل عندك فوق بهذا الكسل، بينما هنا تحت تقع أحداث تتضمن خيارات أخلاقية كبرى ومسئوليات محددة أمام الرأي العام؟

وكإجابة حاسمة سحب الصياد الصنارة بكل لوازمها وانصرف وهو يتمتم:

- هكذا، يأتي الواحد هنا لكي يصيد فيرمون بك على الفور في السياسة.

٧

اللص

كانت السهرة في الفيللا تنبئ بأنها ستكون ممتعة. فبعد جدل قصير تقرر تناول الطعام في الشرفة. كان أحدهم قد شكا من البعوض، ومنه انطلقت مناقشة حول استخدام الحلزون القاتل للناموس. الناشر س أعلن أنه ضد أي شكل من أشكال التلاعب بالتوازن الطبيعي. والفيلسوف ص دبج مديحا في الحلزون، باعتباره ردا منطقيا غير عنيف على العقم الدموي غير المنطقي، لأن البعوض يعض ولا نفع فيه. وأُشرِك في المناقشة الرسام د والمعمارية ت واللذان تم استجوابهما حول مفهوم "*النافع*" في مجال تاريخ الكلمة ومدلولها.

وفي هذه اللحظة كانت قد ظهرت في مشهد جليل المكرونة السمراء على المائدة. وكانت صاحبة المنزل ب قد تغنت بمحاسنها، بينما الزوج، وهو المعلن هـ، شكا من الاستخدام المنزلي المفرط لها متهما الزوجة بالشمولية. وكانت المترجمة أ قد استشهدت بحالة من إدمان للنخالة وجدتها في أحد الكتب الأمريكية. أما الصحفي ل فأكد بشكل إمبريقي

أن المكون الرئيسي في الطعام يتمثل عموما في الشهية. وكان المعلم م قد رفع اعتراضا وطالب بالجبن البارميدجانو. وأكدت الكاتبة ت بكبرياء أنه يبدو لها أن مناقشة أمر هذه المكرونة ليست في محلها، في الوقت الذي يعاني الكثيرون فيه من الجوع في مائة وستة عشر بلدا في العالم. ورفض الفليسوف كلا من الابتزاز الأخلاقي للكاتبة وجبن البارميدجانو للمعلم. وتوسطت صاحبة المنزل بمهارة وروى المعلن النكتة الأولى.

باختصار كان كل شيء يبشر بأمسية فكرية حيوية، يغلفها المناخ السياسي السائد. كانت الوجوه تشتعل وهي ترشف نوعا من النبيذ المحلي الجيد، وكانوا يعلقون على الصفحات الثقافية لصحف اليوم، وكان قمر جميل يضيء الشرفة، المفعمة باللون الأحمر القاني، وكان جلين جولد يعزف في الخلفية، والحلزون يقوم بالحراسة من البعوض. ماذا تطلب أكثر من هذا لأمسية صيفية؟ ولكن ما أن بدأت صاحبة البيت تستعرض صينية من لحم الماعز حتى صعدت صرخة من أسفل، تبعها على الفور نباح غاضب، ثم صرخة أخرى.

– يا إلهي، الكلب ميسكن – تعجبت صاحبة البيت – لقد نسيت أن أربط ميسكن. إنه يقطع أوصال أحدهم!

– ولكننا نحن جميعا هنا. لاحظ الرسام.

– لنذهب ونرى– قالت المترجمة.

نزلوا في طابور هندي السلم الصغير المزين بنبات الجهنمية نحو الحديقة حيث كانت تصطف السيارات ومن حيث جاءت الصرخات. وكان

هذا هو المشهد الذي رأوه بأعينهم: ميسكن وهو كلب ضخم من نوع تيرانوفا يهز ذيله بفرح وهو يسحب مخلوقا مجهول الجنس والجنسية من ساقه. وعلى الأرض كان هناك جهازان من أجهزة راديو السيارات، وبعض أبواب السيارات كانت مفتوحة، وكانت هناك نافذة مهشمة.

– أمسك ميسكن لصا! – بين الفخر والدهشة قالت صاحبة البيت.

– لم أكن أعرف أنه يصلح للحراسة أيضا – لاحظ المعلن.

– ألا ينبغي أن نجعله يترك هذه الساق – قالت المترجمة.

– ولو هرب اللص؟ – اعترضت المعمارية.

– ألا ترون أن ساقه منهوشة؟ – احتجت المترجمة. هيا ساعدوني!

احتجز أربعة منهم رأس ميسكن الضخم، ونجحوا بعد عناء في إجباره على ترك عظام ساق الرجل. حاول المخلوق المحرر الهرب لمسافة قصيرة ولكنه سقط على الأرض فورا وهو ينزف دما.

– النجدة – نجح في أن يلفظ هذه الكلمة قبل أن يغيب عن الوعي.

فحصه الفيلسوف وهو يشير إلى وشم على وجهه.

– يبدو أنه عربي – قال – ربما كان تونسيا.

– سوف استدعي الشرطة على الفور – قال المعلن.

– لحظة – قال الرسام – دعونا لا نتصرف كرجعيين. لو استدعينا الشرطة فإن هذا الرجل سوف يعتقل وسوف يمضي في السجن من

يعرف إلى متى. في نهاية الأمر فإنه لم يرد سوى أن يأخذ جهازي راديو، وهو ضرر تافه. هل يبدو لكم مبررا، من جانبنا، دفاعا بسيطا كهذا عن امتيازاتنا؟

– إن زجاج الهواية في سيارتي المرسيدس قد تهشم – قال الفيلسوف – وهذا ليس "ضررا تافها". علاوة على هذا من ذا الذي يقول لنا إنه لم يكن يريد نهبنا؟ لننظر إليه..

– هو ذلك فعلا – قال المعلن بعد أن فتش اللص – إن معه مسدساً!

– سذج – قال الناشر – ألا ترون أنه مسدس لعبة، من تلك التي تشترى من محلات الأطفال؟ كما أن اللص أكبر قليلا من طفل، عمره أقل من ثمانية عشر عاما.

– عموما إذا كان المسدس اللعبة يطمئننا – قال المعلم – من وجهة النظر المجازية إلا أنه من وجهة النظر الرمزية والعلائقية...

– أوه.. كفى! – قالت المترجمة – إنه يفقد دمه، استدعوا على الأقل طبيبا...

– عثرت على جواز سفره، وهو ملطخ بالدم – قال المعلن – لا أفلح سوى في قراءة جزء من اسمه.. سعد..

– اسم فلسطيني – قرر الرسام بحسم – يبدو لي واضحا في هذه النقطة أن استدعاء الشرطة لا يعني سوى أن نضيف ظلما آخر على قائمة الاعتداءات التي يتعرض لها هذا الشعب..

- لحظة - تدخلت الكاتبة - احتج على تضامنك المفاجئ المخادع هذا والذي يختلط بشكل خطير مع معاداة السامية...

- Help - قال الرجل بصوت خفيض.

- ليس فلسطينيا - قال المعلم وهو يفحصه عن قرب - من مواصفات الوجه يمكن أن أقول إنه من وسط أفريقيا، ومن المحتمل أن يكون من أصل قبيلة باتا.

- اطلب الشرطة حالا! - قال الصحفي - إن قبيلة باتا طالما ساندت الديكتاتور نجليم، بل كانت ذراعه المسلح ضد الثورات الشعبية.

- لحظة - عارضت المعمارية - انظروا إلى العقد الصغير في عنقه... الشعر الطويل... إنه امرأة!

- باعتباري مناصرة لحقوق المرأة - تدخلت الكاتبة - فإنني أمنعكم من استدعاء الشرطة.. فهذه المرأة كانت بالتأكيد مجبرة على هذا الفعل المهين من جانب المفسدين الرجال.. أو..

- ولكنه رجل! - قاطعها المعلن بابتسامة محرجة - لقد استطعت أن ألاحظ....

- أنا أحتج! - صرخت الكاتبة - هذه العادة الرجالية العنيفة في التفتيش.

- قلت لك إنه رجل - صاح المعلن - يا إلهي.. هل يمكن أن تصمتي يا مناصرة المرأة الشجاعة عتيقة الطراز.

- لا يغير من الأمر شيئا أيها الأبله المتحرش - قالت الكاتبة.

- Help - قال اللص الذي يزداد صوته خفوتا.

- دعونا لا نفقد الهدوء - قال المعلم - لأن هذا المخلوق يفقد كثيرا من دمه ويتأوه بشكل يثير الضيق، وأقترح أن نأخذ الأصوات فيما إذا كنا سنستدعي الشرطة أو الطبيب.

- وأنا أقول نعالجه هنا ونبقيه حتى يشفى. قال الرسام.

- نعم، وليتنا نبلغ أقاربه لكي يزوروه! - قال الفيلسوف وقد نفد صبره.

- أنا مقتنع - قال الرسام - أنه لو لم يكن رجلا ضامرا زيتوني اللون وكان زنجيا مفتول العضلات لكنت استضفته عن طيب خاطر...

- جبان وضيع! - صاح الفيلسوف وقد وثب نحوه.

فصل بينهما المعلن ومن قبله ميسكن الذي عندما رأى الحركة حاول أن يشارك في الرقص واقفا على قوائمه الخلفية.

- هذا الكلب ليس سفاحا وحسب، وإنما هو مهووس جنسيا - احتج الرسام وهو يهرش.

- افعلوا شيئا لهذا المسكين - تباكت المترجمة - إنه شاحب مثل خرقة بالية.

- لا، انظروا، إنه يحمل وشم الصليب المعقوف على ذراعه - قالت المعماريّة.

- حسناً، فلنستدع الشرطة - قال الصحفي - لص عادي ولكنه موال للنازيّة.

- أحمق - قال المعلم - فالصليب المعقوف خارج أوروبا رمز للشمس. أحرى بكم أن تنظروا ماذا في جيبه.

- ولكنها مفكرة صغيرة - قالت صاحبة البيت وهو تتصفحها بسرعة - ها هو اللغز يتضح اسمه سيري كذا، لا أدري ماذا، وهو مقيم في شارع جاروفاني رقم اثني عشر.

- ولكنها فيللا عائلة سان بارتولومي، التي تقع بعد المنحنى مباشرة...

- بالضبط، والآن أتذكر، فهذا أحد خدمهم... رأيته ذات مرة وهو يقضي الطلبات مع الكونتيسة.

- في هذه النقطة بالذات لا بد أن نبلغ الشرطة - قال الصحفي - فعائلة سان بارتولومي هي من أكثر العائلات الأرستقراطية رجعية وخبثا في المنطقة.

- ولكن هذا مجرد خادم، تستغله عائلة سان بارتولومي، وربما طردوه من العمل - قال الرسام - إنني أعارض استدعاء الشرطة.

– لماذا جاء عندنا بدلا من أن يسرق أسياده؟ – قال المعلن. – لن أندهش لو كان مرسلا من جانبهم، بل وربما كان هو الذي سرق مني الكومبيوتر من السيارة الشهر الماضي في روما...

– أنت لا تعرف إلا الأساليب الملتوية ومتضخم الذات جدا – قالت الكاتبة – إننا إذ لم نستطع أن نحدد الهوية الجنسية للرجل فلا نستطيع أن نستدعي الشرطة.

– لا. أنا صاحبة البيت وأنا التي تقرر هنا! سوف نستدعي الشرطة لأن تلك العاهرة في بيت سان بارتولومي التي تحييني بتكلف شديد، لديها دستة من الخدم، ولن يضيرها شيئا أن يقلوا واحدا.

– أنا ضد الشرطة – أعلن الناشر– لأن الشيء الوحيد المؤكد لدينا هو أن اللص ينتمي إلى العالم الثالث. ولأنني نشرت كتبا لمؤلفين أفارقة ومن أمريكا الجنوبية ومن كوبا....

– هذا إيطالي أكثر منا – قال الفيلسوف – انظر إلى هذه السترة الأصلية الفظيعة. انظر إلى الساعة الصغيرة على أحدث صيحة، وهذا الحذاء المدبب المروع...

– هل يسبب ذوقه في الملابس مشكلة لك؟

– ولو كان؟ إن زجاج سيارتي المرسيدس يكلف أكثر من ستمائة ألف ليرة. إنني لا أتظاهر بأنني الرجل الفقير الذي يتجول على دراجة نارية مثلك أيها الناشر ذو الميول الكوبية..

- كفى - قالت صاحبة البيت - أقترح دورة أخيرة قصيرة لإبدا. الآراء ثم تصويتا لابد أن يعقبه اتخاذ قرار نهائي. ولما كان عددنا زوجيا فإن صوتي سوف يحسب بصوتين.

- أحتج على هذا الإجراء المشابه لإجراءات الأغلبية المتغطرسة. - قال الرسام.

- لنجعل ميسكن يصوت هو أيضا. - قال الفيلسوف ساخرا.

- عندي اقتراح - قالت المعمارية - ماذا لو استدعينا شرطيا ديمقراطيا؟ أحد شرطيي النقابة؟ هل تعرفون أحدا منهم؟

- لم يعد ينفع - قالت المترجمة بصوت حزين وهي تترك معصم اللص يسقط - مات.

عادوا إلى صعود سلم الجهنمية بصمت متكدر. فهم الكلب ميسكن، بعد أن تركوه وحيدا، أن خطأ ما قد وقع، فأخذ ينبح في وجه القمر.

٨

البيت الجميل
(حكاية الرحالة الأولى)

كنت أعيش في أجمل وادٍ، وكان بيتي هو أجمل البيوت، وكان تكسوه نباتات الزينة دائمة الخضرة، في وسط غابة من أشجار الكستناء هي الأجمل في العالم. كان لدينا أجمل ديك في المنطقة، كان يبدو كأنه أسد مرسوم، وعندما كان يصيح في الصباح كان يحطم الأحلام بالمطرقة.

كان لدينا حظيرة دواجن لا تتميز أبدا بالغباء وتضع بيضا من أفضل البيض في المنطقة، وأبقار جميلة عيونها كأنهن جاريات، وخنازير ضخمة الحجم وردية اللون حتى أنها تفتح الشهية لركوبها. ومن حولنا امتد الكروم وأشجار الفاكهة وبستان تتألق فيه خضرة السلاطة كأنها زمرد، ويبرز الجزر من الأرض بتلقائية، كأنها ترقص رقصة الكابريولا. والفرن الذي كنا نخبز فيه كان ينشر رائحة تجعل كل الوادي في مزاج

سـعـيـد وتوقف سكاكين المجرمين، فلم تكن هناك جـرائم لا صـغـيـرة ولا كبيرة في الوادي طالما استمرت هذه الرائحة. وأخيرا كانت الكستناء لدينا شديدة الجمال وعندما كانت حباتها تسقط على الأرض وتتقافز عليها لتخرج منها فاكهتها كأنها لؤلؤ منثور كان تأتي للإنسان رغبة في أن يقول للشجرة: برافو!

حتى الفطر كـان مـثـيـرا، وكـان للسنجاب ذيل فـيـه شـمـوخ وكـان السـوس، وحيوانات الخلد كانت تحـفـر أوكـارها بدقة هندسية، وكانت خلايا نحلنا رائعة العمارة، والعسل لذيذ، كما كان أبي جميلا، فقد كان له وجه مثل قشرة الكستناء، وشوارب مدببة كأنها ذيل ثعلب، وكان يضربني في أيام العطلات فقط. كان يدخن غليونا جميلا، صنعه بنفسه من خشب الأجاص القيصري الخالص، على هيئة جسم أمي عاريا، وقد كانت أجمل نساء الوادي وماتت أجمل ميتة، فقد تزحلقت في صومعة وغرقت في التفاح الأحمر، في بحر من التفاح المعطر.

كنت أعيش كما قلت في أجمل الوديان، وبيتي كان الأجمل، ومن هنا بدأ الشيء القبيح. ذلك أن جماعة من السادة مروا بنا فلما رأوا كم كان البيت جميلا قالوا: هذا هو المكان الذي نبحث عنه، والتقطوا له صورا فوتوغرافية، ورفعوا قياسات البيت، وبعد أسبوع اشتروا الوادي والأرض والحيوانات والنباتات. فقد كان كل هذا يلزمهم لتصوير إعلانات عن شيء لا أعرفه، ربما كان إعلانا عن التأمين على الحياة، أو نوع من البسكويت، أو مرشح في الانتخابات، أو مياه معدنية، شيء ما كان يحتاج إلى منظر مثل هذا.

وضعوا كاميرات التصوير في كل مكان، وأرادوا أن يجعلوا كل شيء أجمل مما كان عليه. فصففوا شعر الكلب، وأضافوا شموسا صناعية، ووضعوا أجراسًا حقيرة فضية اللون للأبقار ولافتة مكتوبًا عليها "فرن" على الفرن، كما لو أنه ليس مفهوما أن هذا فرن.

ونحن؟ نحن لم نكن على قادر كاف من الجمال، وبالفعل وضعوا مكاننا ممثلين. قام بدور والدي الممثل برونزي اللون، بيديه التي لا أقول إنه لم يعزق بها مطلقًا، بل ولم يغسلها وحده. وقامت بدور أمي فتاة ضخمة مليئة بالمنحنيات، قالوا لها أن تمشي دائما بعود من القش في فمها وهي تنادي الدجاجة: "تعالي يا سمراء.. تعالي يا بيضاء يا جميلة" وتفر منها الدجاجات كأن سنورًا متنكرًا يطاردها. أما أنا فعلى العكس فقد قالوا عني إنني يمكن أن أناسبهم فقد كنت جميلا إلى حد كاف، فقط جعلوني أضع في قدمي قبقابا فظيعا، هل جربتم أبدا المشي على الحصى بقبقاب؟ ولكن هؤلاء السادة قالوا لي إن من يقدر لهم أن يروني في التليفزيون سوف يجدونني جميلا.

عند ذلك أخذ والدي يبكي لأنهم أرادوا أن يبعدوه، فقد كان يريد هو الآخر أن يفعل شيئا. كان محظوظا، فقد كانوا قد وضعوا خيال مآتة جديدا في وسط الحقل (صممه مصمم أزياء شهير). كان يرتدي قميصا على شكل مربعات أبيض وأسود مثل الشطرنج، وسروالا أزرق مقطوعا قطعا صغيرا، وقبعة من القش منسلة حوافها عمدا. ولكنه كان شديد الجمال؛ ولهذا لم يكن يخيف العصافير التي كانت تهبط فوقه

لتتأمله بإعجاب، ولكن والدي كان على العكس يخيف العصافير وهو على حاله في هذا الرداء وهكذا أدى دور خيال المآتة لخيال المآتة، فهناك خيال المآتة الممهور بتوقيع فنان في وسط الحقل، ولكن من يردع العصافير كان هو والدي الأبعد منه بعشرة أمتار.

كان لابد أن أقوم بتلميع ثمار التفاح على الأشجار وأن أقنع الأبقار ألا تبالغ، وأحافظ على هدوء الخنازير وهم يضعون لها المكياج، بالشمع الوردي لأنها كانت تتمرغ في الطين ولم يكن من الجميل إظهار خنازير كخنازير أكثر من اللازم. بالإضافة إلى أنني كان يجب علي أن أجبر الديك على الصمت لأن السادة كانوا ينامون حتى التاسعة والنصف.

ولكن ذات ليلة، أضاءها قمر كبير حقيقي، وكانت الصراصير تغني، والأبقار كانت تخور لأن أحدا لم يكن يحلبها، وكان أبي واقفا هناك في وسط الحقل لا يتحرك وهو يدخن الغليون، ورأيت أنا بيتي محاطا بكل تلك الكشافات والكاميرات ورأيت رجلين بالبندقية يطاردان البوم لأنها كانت تسبب الإزعاج، وآخر كان يضع نورا مصطنعا داخل فرن الخبز، ووصلت سيارة زرقاء ونزل منها رجل وما أن رأيت وجهه حتى فهمت أن بيتي لن يعود أجمل مكان في البلد.

جمعت حاجياتي القليلة وألقيت التحية على والدي الذي غمرني ببركاته، وحييت الديك الذي كان يقف حزينا في أحد الأركان، وقد أصبح ريشه شبيها بالقطن، وأغلقت عيني وأخذت أجري دون أن أنظر

نحو الساحة، مهتديا بالرائحة، حتى وصلت إلى شجرة الرمان حيث كانت حافلة منتصف الليل تمر.

طوبى لك، يا من تعيش في عنبر نوم في الضواحي، أو في منزل آيل للسقوط في أحد الأزقة، أو في تقاطع أكثر الشوارع ازدحاما في المدينة، لأن بيتك لن يسرقه منك أحد أبدا.

٩

ضيف الشرف

أسقطت أكثر من مائتي ألف من طيور النورس بطلقات المدافع الرشاشة بينما كانت تحاول وقد شدتها الرائحة الاقتراب من مائدة الطعام على السفينة "المتوحشة" في تلك الليلة التاريخية. كان الكابتن كالكانتي قاطعا حاسما:

- لا أحد من الجواسيس الحقيرة ذوات الريش الملاعين سوف يحلق فوق سفينتي أثناء "مهرجان اليمين الجديد".

وبالفعل فإن السفينة "المتوحشة"، وهي عابرة بحار رشيقة حمولة اثني عشر ألف طن، كانت تشق عباب البحر وحدها، بيضاء جليلة كأنها إستاد أوليمبي، وضوء الغروب يذيب ضخامتها الحربية في إيحاءات سحرية: فالمدافع كانت تبدو كأنها أبواب المغارة، والأبراج كأنها قلاع سحرية خارقة، وأطباق الردارات الكبيرة كأنها أصداف لؤلؤ.

وتحت هذا الغطاء كانت قاعة الاستقبال تعج بالزهور والأضواء كأنها كهف سحري ومكياج النساء وبزات السموكن للرجال النبلاء كانت تشكل باقة مبهرجة بهيجة.

كان أمين عام حزب اليمين الجديد السيد سالاديني حازما قاطعا: لا فلكلور، لا بزات عسكرية أو شعارات أو علامات: الآن وقد أصبحنا في السلطة لابد أن نستعرض الرقي والرصانة والأناقة. وبذل الجميع أقصى ما في وسعهم ، فكاهنات الأرستقراطية السوداء العجائز ارتدين أرقى فساتينهن المرصعة بتوقيع أشهر المصممين، وقبعات فاخرة بحلقات تشبه حلقات كوكب المشترى والشالات التي اشتهر بها شارع لاتيا. النظرة الخبيثة فقط هي التي كان بوسعها أن تميز في بحر العقود التي تزين أعناق العجائز التي تشبه أعناق السلاحف، حلية ذهبية صغيرة عليها شعار الفك الكبير. واتخذ الوزراء الجدد ووكلاء الوزارات زخرفا يميز أعضاء أي حكومة، وكان الأكثر سمنة منهم قد لجأ إلى نظام تخسيس، كما ذهبوا لدروس الرقص، وعرضوا بشراتهم لمصابيح تحيلها إلى اللون البرونزي، والأيدي التي اعتادت على أن تكون مثل المطرقة البلشفية وأن تندفع في التحية الرومانية، أصبحت الآن تمسك بأقداح الشمبانيا بجمال كأنها لمانيكان. أما الشابات وأصحاب الرؤوس الحليقة المشاغبون فقد حملوهم إلى أحد كبار الخياطين فارتدوا ما يجعلهم يشبهون طائر البطريق، كما ندا عن حركاتهم بعض الاضطراب، ويبرز وشم الصليب المعقوف على معاصمهم المنشاة. ومن يراهم وهم يتراصون على الحائط بهذا الشكل وقد خنقت رابطات عنق على شكل الفراشة أعناقهم يتصور أنهم فريق كرة قدم يحتفل بالفوز بدرع الدوري.

أما صغار الجمهوريين العجائز، أولئك الذين كانوا أكثر ميلا إلى بعض السلوكيات الفاشية ربما بسبب إيمانهم الذي لا يهتز، أو تصلب الشرايين المزمن، فقد وضعوا على مقاعد وثيرة مريحة، وكلا منهم تراقبه عن كثب فتاة متطوعة، ممرضة مسلحة، عارية الصدر مكشوفة الساقين، وبابتسامة فاتنة مع رفرفة للنهود تروض العجوز إذا صدرت منها أية علامة على الململة. لم يكن عملا سهلا، ولكن هؤلاء الفتيات اعتدن على التضحية بأنفسهن من أجل الوطن، فقد كن قد أدخلن البهجة على السياسيين في الجمهورية الأولى، وها هن يهبن أنفسهن للجمهورية الثانية. لكن الأنظار كلها كانت متجهة نحو ملكة جمال العبّارة وأمها الروحية، جي جي دي دي، وهو الاختصار الحرفي لكلمات الزلابية الكبرى لليمين، فيتوريا باريزيني، نجمة السينما والتليفزيون، الشهيرة بأفكارها المحافظة الصحية، والتي تطبقها عمليا بالحفاظ على هباتها الطبيعية، عندما تساعد كل أجزاء جسمها المستديرة بالسليكون والمنشطات والخلطات الحيوية العتيقة.

بعد أن توجتها منافساتها تبخترت جي جي دي دي في وسط القاعة. كانت ترتدي فستانا من قماش اللاميه اللامع وقبعة من القواقع وخشف شجر العنب، صممت خصيصا بواسطة المصمم اللامع أورساتشي. الشفتان والنهدان والأرداف كانت تهتز مع ترنح السفينة، وتمتد للأمام للضيوف الحاضرين في منحة إغراء، والضحكات الصادحة تثير حماس الرجال وحسد النساء. وحولها كان الضيوف الأجانب

يتمعنون في جمالها، أيا كان، صناعيا أو طبيعيا، ومن هؤلاء الضيوف رجال سلاح ألمان ورجال الفيلق الفرنسي وعسكريون من أمريكا الجنوبية تميزهم علامات رجولة، وجنود شباب من مشاة البحرية الأمريكية. ثم عدد من جنرالاتنا، عصريين وفي منتهي البساطة، وعازمين على الخوض في أحاديث تجارة السلاح ومواصفات الدبابة الجديدة ليوبارد كما يحدث في أي اجتماع لرجال الصناعة.

وكانت الأوركسترا التي تتألف من خمسين عنصرا مختارا تعزف أعمال العصر الناجحة دون أي تمييز سياسي. لم يكن فيها شيء في الحقيقة يذكر بالماضي ، ولا حتى رجال الخدمة الذين يرتدون طراطير مزدوجة أو الانتفاخ الظاهر تحت سترات رجال الحراسة. وفي البوفيه الفاخر كان من الممكن مقابلة زمرة الصحفيين المترددين على كل البوفيهات من المتطرفين السابقين الذين يتحدثون مع الجمهوريين السابقين دون كلفة، ومع الزعيم السابق للرعويين ومع عضو الحزب المسيحي السابق الذي كان يشرب نخبا مع عضو الأحرار السابق، ومع المخرج السابق والكاتب الشاطح السابق الذي كان يأكل شطرات الخبز المطلية بالكافيار المستورد من الاتحاد السوفيتي السابق. كل شيء قد أعيد طلاؤه وترميمه وتحويله، وكل شيء راح في طي النسيان في ذلك الصالون المتلألئ والذي تظهر في آخره لافتة مكتوب عليها "عودا حميدا".

وها هو الهمس المستثار يتفشى بين الحضور. في تلك اللحظة دخل مع ضيف الشرف الأمين العام صلاديني[1]: كان يسبقه مفكره السياسي وأربعة من خلصائه التابعين هم هر بروتشانيرو من لجنة الحراسة التليفزيونية، وهر بايونيتا، وكيل وزارة الثقافة، وهر ميتشا من لجنة الخارجية، وهر فيلينو من لجنة الصحة. فتح هؤلاء الطريق أمام الأمين العام بالدفع المهذب الودود "أفسحوا الطريق!". كان صلاديني يرتدي بزة سموكن مبهرجة من القطيفة الحمراء مع بابيون خيالي ويحمل الضيف تحت ذراعه، وكان رجلا متهالكا ضعيف الجسد يستند على عصا ويتقدم بخطوات قصيرة وهو يلقي تحية خفيفة جدا بإيماءة من يده.

كان قد اتفق على ألا يكون هناك تصفيق. فقط الزعيم العجوز كاسكابيانتا انتفض عن مقعده وهو يؤدي التحية الرومانية، ولكن الفتاة الشقراء المكلفة به اصطادت يده ووضعتها في فتحة صدر فستانها فهدأ على الفور. طابور الرؤوس الحليقة سادها اللغط ولكنها أعيدت إلى النظام بأمر قصير باللغة الألمانية. أما الماركيزة العجوز ماتراتشي فقد

---

(١) الأسماء الإيطالية لهذه الشخصيات لها معناها فاسم سالاديني مشتق من صلاح الدين واسم بروتشانيرو مكون من كلمتين هما يحرق وأسود وفيلينو من السم، وكما هي العادة في قصص ستيفانو بيني فإن الأسماء لها وظيفة ولها مغزى خاص يتجاوز وظيفتها الإشارية إلى أخرى دلالية، كما لا تخفى أيضا دلالة استخدام "هر" مع هذه الأسماء.

فقدت الوعي من فرط الانفعال، وحتى يفيقها الزوج سكب على رأسها دورق خمر بارد. وكان هناك عضو سابق بالأحرار عبر عن اختلافه العميق بأن أعاد شطيرة الخبز المدهونة بالكافيار بعد أن أكل منها إلى البوفيه. إحدى شفتي جي جي دي دي انتفخت قليلا كأنها البالون الداخلي لكاوتش دراجة. ولم تسجل أية حوادث أخرى.

بقفزة رشيقة وثب الأمين العام صلاديني إلى المنصة، وكان الضيف العجوز قد وضع في وسط المسرح على مقعد صغير تحت عدسة كشاف وهاج بالضبط. وضع أمامه الأمين العام برقة شديدة كوبا من عصير البرتقال.

كان الضيف العجوز يكاد يغلق عينيه بسبب الضوء العنيف وكان المكان يبدو غريبا عليه. أسكت الأمين العام الجميع بسعلة واحدة وبدأ يقول:

– أصدقاء عبّارة اليمين الجديد، أخيرا، وبعد سنوات عديدة من المنفى غير الدستوري، سقطت كثير من الموانع التي كانت تحيق بنا. قطعنا طريقا طويلا وها هن نحن في سدة السلطة. نحن بلد عظيم يحترمه الجميع ويخافونه. ونحن نهدف إلى نكون قريبا أعظم وأعظم عندما نتوسع في حدودنا. .. (تصفيق قصير) بالطبع بعد التفاوض الحاسم وغير المتسامح مع الجيران. وفي الخارج أيضا ورغم الإثارة التي قام بها الشيوعيون وأذيالهم بدأنا نحظى بالاعتراف وأنا سعيد بأن أخبركم أن وكيل وزارة الخارجية كاناريللا انتخب أمس رئيسا للمعهد

الأوروبي لليمين الجديد لشئون تأريخ معسكرات العمل النازية (تصفيق قصير). ولكنني أرجوكم ألا تصفقوا لئلا يقولون إننا نقوم بإعادة الاعتبار للفاشية (ضحكات). للأسف لا يزال (تنهيدة) هناك من لا يصدق إيماننا بالديمقراطية!

– جزء من الرأي العام، والذي حرضته الصحف (يزيد عددها بلا داع باستمرار) الخاصة باليسار المخنث، ما يزال يثير ضدنا أشباح وابتزازات الماضي المدفون، ويصموننا بالخطورة وبأننا محفل عنف، وهو ما تجاوزناه منذ زمن طويل. ماذا نفعل أكثر من هذا حتى يقتنع هؤلاء الطائفيون بأننا ديمقراطيون حقيقيون؟

– لنسحقهم – قال صوت شاب عذب من آخر الصفوف، فتم إخراسه على الفور.

– إننا، وبانفعال كبير وأمل متجدد، تابعنا الأحداث التي جرت لضيفنا الذي نتشرف هذا المساء بوجوده بيننا. الصديق ديللي دونه الذي كان يعيش في أمريكا الجنوبية لكي يهرب من الاتهام الظالم بالمذابح التي برئ منها مؤخرا (تصفيق قصير).. قبل أن يترك البلاد التي عاش فيها في المنفى لمدة سبع سنوات كاملة أراد أن يراجع شائعة سرت في الدوائر المحيطة بنا. وهي أنه كان يعيش على بعد مائة كيلومتر من عاصمة تلك البلاد، يعمل مربيا للنحل وهو في عمر المائة وأنه يحظى باحترام الجميع لحكمته وحدة آرائه السياسية. وكان يقال إن الرئيس المحلي كان أحيانا ما يزوره لكي يستشيره في بعض سياساته الداخلية.

بحث ديللى دونه عنه، وبعد تحريات قصيرة، ومراجعة بياناته وبصماته الرقمية، فهم أن هذا الرجل يمكنه أن يمثل الكثير لنا . ولم يكن من السهل إقناعه بترك نحله: ولكنه اليوم أصبح بيننا، دليلا حيا على اليمين وكيف تغير؟

لم يكن العجوز يعطي أي علامة على الانتباه: كان يحتسي عصيره وينظر حائرا إلى هذا الصالون الفاخر، كما لو كان يذكره بشيء ما قديم جدا جدا عفا عليه الزمن. ولكنه علاوة على هذا كان غارقا في عرقه ويلهث بسبب الكشاف المركز عليه وكان يحاول عبثا الهرب من الحرارة بالتململ على مقعده.

قال صلاديني:

– هذا الرجل يبلغ من العمر مائة وخمسة أعوام ولكنه يعمل بهمة وعزم شاب في العشرين. لقد زرته وسط نحله. وهو ينتج أفضل عسل في المنطقة، عسل لطيف كطبعه، يبيع بعضه ويهدي البعض الآخر إلى الأطفال (همهمة اتفاق). رأيته بنفسي، بعيني تلك، ينادي على النحل بالاسم، ويصدر أوامره للملكة وفي لحظة ينقل خلايا بكاملها من موقع إلى آخر في المنحل بأوامر ناعمة، ولكنها حاسمة.

– حكوا أنه في العام الماضي حاول بعض اللصوص الاستيلاء على مناحله. ولكن على الفور قامت أربع خلايا من النحل بمناورة حاذقة تهبط من السماء تطلب الثأر والانتقام وتسدد شوكاتها و...

قطع صلاديني حديثه. خلفه كان مستشاره الفكري يشده من كمه، وينبهه ألا يدخل في التفاصيل.

– على أي حال هبطوا، وبفضلهم حصل الأطفال مرة أخرى على عسلهم. نعم: هذا الرجل الأسطورة، هذا العامل، نحن نعرضه لخصومنا بكل الفخر والفرحة، دليلا على أن الماضي مضى. وأنه حيث كانت بالأمس الحرب يوجد اليوم سلام وعمل وحبوب لقاح. وأننا يجب أن نتجاوز الحواجز القديمة وأن نعمل معا، حتى إن اختلفت الأدوار، لبناء المستقبل. ومن أفضل من هذه الأسطورة القديمة يمكنه أن يكون شاهدا على تحولنا وعلى تجاوز المتناقضات القديمة، وعلى الإرادة الجديدة في بناء منحل السلام بين الشعوب؟ من أفضل من هذا الرجل الذي جسد شر التاريخ كله، بل وتحمل أيضا مسئوليات الآخرين، ودفع الثمن غاليا، عندما تظاهر بالموت، وقضى سنوات في المنفى في بلد أجنبي، لم له فيها سلوى إلا في مليارات الأصدقاء الصامتين أو الزنانين؟ لهذا الرجل نقول: إذا كان الوطن الذي طالما أحببته لا يريد أن يستعيدك فإننا نحن وطنك الجديد!

– والآن أرجوكم ، التصفيق لابد أن يكون معتدلا ومنظما، حتى لا نعطي ذريعة لدعاية خصومنا: عودا حميدا بيننا، مربي النحل العجوز الحكيم، الصديق أدولف هتلر!–

كان التصفيق في منتهى الأدب. امرأة واحدة فقط تركت العنان لدمعة تراق من عينيها. لم ينبس أصحاب الرؤوس الحليقة، وأعطيت

لبعضهم مناديل يعضون عليها. وعندما رأت جي جي دي دي الزعيم كاسكابيانتا يهب هدأته باحتضانه بين نهديها. كان صلاديني يزيد حماس التصفيق، الذي بدأ منظما منتظما على الطريقة المسرحية: ولكن لم يكن طبيعيا أن يكون هذا هو حجم رد الفعل على خبر مثير كهذا.

في تلك اللحظة، وفجأة، نهض العجوز الشهير. كان غارقا في عرقه ومضطربا، كانت حرارة الكشاف قد أذابته كأنه في ساونا، وجعلت خصلته الشهيرة، والتي أصبحت الآن شيباء، تسقط على جبهته. أما الشاربان القصيران فقد زادت لمعتهما بسبب العرق. وبحركة منفعلة وحاسمة رفع يده، حتى يشير إليهم بإطفاء الكشاف الذي كان يشويه.

أما مصير هذه الحركة الغريب فقد جعل فرد الذراع المفاجئ بهذه الإيماءة يساء تفسيره.

فقد امتدت مئات الأذرع إلى أعلى وساد لغط كأنه إستاد لكرة القدم. وصدر من آخر القاعة صياح جماعي قوي "هاي هتلر"، وأخرج جنرالان المسدسات وأطلقا طلقات في الهواء. ووقف كاسكابيانتا على مقعده وقلد التحية وعبثا حاولت الحارسة منعه. انتشرت قوات الأمن في القاعة تخفض الأذرع الممتدة، ولكنها ما أن تخفض بعضها حتى يرتفع البعض الآخر. وفيما يفصح عن عدم التناسق كان البعض يؤدي التحية الفاشية وهو يخفض ذراع من يؤدي التحية الأخرى. كانت هناك إشارات إلى حدوث شغب ومشاجرات. حتى صلاديني نفسه انطلقت

ذراعه إلى أعلى وهو يحاول أن يبدو وكأنه كان ينادي على جرسون. وصرخ عضو الأحرار السابق "العار، العار" وكاعتراض تقيأ كل ما تناوله من الكافيار. المفكر السياسي وهر ميتشا كانا تشاجران، رأسا برأس، حول ما إذا كان الأنسب إخراج العجوز أم إبقاءه عساه يخرج المشاعر المكبوتة للصالة. في تلك الأثناء كان هتلر قد ترك المسرح وهو يعرق كأنه حصان ووجد ملاذا في إحدى القاعات الصغيرة. ولكن لحق به على الفور ركاب السفينة الذي أحاطوه بحماس متطرف. كان الجنرالات يسألونه عن تفاصيل تخص المعارك، والماركيزات العجائز كن يردن أن يلمسنه، وقدم له أصحاب الرؤوس الحليقة الأتوجراف لتوقيعه، وطلب منه الصحفيون أخباراً ينفردون بها، ومن الأوركسترا انطلقت مقطوعة "ليلي مارلين"، وسادت القاعة شعارات مهددة.

تناول صلاديني الميكروفون وسط هذا اللغط وصرخ:

– السيد هتلر، أرجوك، عد إلى المسرح، وأنتم أيها السادة ركاب السفينة، اهدؤوا أرجوكم.

صفروا له بصوت عال ورموه بالزيتون والجمبري.

– إلى البحر يا صلاديني يا رجعي.

صاح كاسكابيانتا بعد أن هرب من حارسته.

– أنت زعيمنا! صاحت إحدى السيدات متأثرة بنشوة اللحظة.

- قدنا أنت. صاح أحد الرؤوس الحليقة أحمر الوجه.

ولكن العجوز خيب أمل الجميع. فبعد أن لمس جي جي دي دي وأدرك امتياز الخامات التي بنيت بها، حملها على كتفه وبصرامة غير متوقعة أعطى ساقيه للريح فارا.

بعد أن أخذتهم المفاجأة جروا وراءه جميعا. ولكن العجوز الشيطاني كان قد وصل إلى جسر المركب واستولى على مجداف وقفز إلى الماء مع فريسته.

طفت جي جي دي دي كأنها زورق مطاطي كما توقع العجوز بسبب السليكون الذي تحتويه. وهكذا ركب أدولف على الجميلة واختفى وهو يجدف ناحية جزر استعمارية.

ورغم أن جي جي دي دي كان مذهولة من الأحداث إلا أنها كانت واعية بأن هذا الاختطاف يمكن أن يسبب لها رواجا كبيرا، فشاركت هي أيضا وأخذت تجدف بقدميها.

- أدر الدفة يا قبطان وصل إليهم! - صرخ صلاديني.

وأجاب القبطان كالكانته:

- إننا قريبون من الشاطئ أكثر من اللازم.

وقالت الماركيزة ماترانتشي بلهجة رومانسية شاكية:

- إنه مثل قطعة من الإسفنج مشبعة بالماء في العراء وقت الفجر..

– عد إلينا، عد إلينا يا أدولف – صاحت مئات الأصوات العجوزة والشابة من سطح المركب.

– لماذا، هل أنا مجنون؟

قال العجوز وهو يواصل التجديف بصرامة. وبينما كان يختفي في الأفق صرخ:

– يا زمرة الفاشيين!

١٠

الرجل الدقيق

(حكاية الرحالة الثانية)

وصلت ذات مساء إلى محطة صغيرة في (تي)، وكانت عبارة عن مبنى حزين منعزل يستضيف رصيفا وحيدا، في مكان مليء بالخردة، ومن بينها عربة قطار عتيقة الطراز تسكنها مخلوقات ضالة من ذوات الاثنين وذوات الأربع.

كانت توجد داخل المحطة أربع أرائك كبيرة وجدول ضخم لمواعيد القطارات وشباك لقطع التذاكر كان مغلقا.

كنت المسافر الوحيد. كانت هناك خلاف هذا آلة لبيع التذاكر أوتوماتيكيا وأخرى لبيع المشروبات الغازية، وثالثة لمطالعة الحظوظ الجنسية، وآلة تطبع الكروت الشخصية وأخرى لبيع الوجبات الصغيرة، وفيديوجيم به لعبة "محاربو الشوارع".

أخذت تذكرة، وابتلعت زجاجة مياه غازية، واكتشفت أنني مهووس جنسيا، ونمت. صحوت فعملت لنفسي بطاقة شخصية تفصح عن إصابتي بجنون العظمة، وأكلت شريحة خبز بطعام مكسيكي، ثم ابتلعت زجاجة مياه غازية ثانية، وفي الفيديوجيم ضربني لاعب الكنج فو جاك حتى سال دمي. عدت إلى النوم.

صحوت مرة أخرى على ضجيج مكبس. انتفضت على قدمي معتقدا أن القطار هو الذي وصل. ولكن هذا الصوت اللاهث كان مصدره رجل دخل المحطة لتوه. كان ضخم الجثة مقوس المنكبين مدهون الشعر. كان يجر حقيبة سفر ضخمة تسير على عجلات. ورغم أن القطار لم يكن قد وصل بعد إلا أنه كان يهرول ناحية الرصيف.

وصل إليه.

وضع الحقيبة.

نظر إلى ساعته.

جلس.

جفف العرق.

حدق النظر في وجهي.

قال الجملة بحشرجة.

- الحياة بالنسبة لرجل دقيق تصبح جحيما من الوحدة غير المستحقة.

اقتربت منه مستطلعا. لبرهة من الزمن لم يستطع الرجل الكلام بسبب أنفاسه المتقطعة. اكتفى بأن أشار إلى ساعة المحطة المثبتة على الجدار بإصبعه. فهمت أنه يريد أن يشير لي بتأخر القطار.

ابتسمت وفردت ذراعي كما لو كنت أقول: وماذا يمكننا أن نفعل نحن؟

- كم أحسدك - قال - على استسلامك هذا! من الواضح أنك لست مصابا بمرضي. إنني، آه، دقيق منذ الولادة. فقد ولدت في الشهر التاسع باليوم والدقيقة والثانية، وكنت أبكي كل أربع ساعات بالضبط طلبا للحليب، ولم أصل متأخرا مطلقًا لا في الحضانة ولا في المدرسة ولا في المكتب أو في أي موعد، سواء كان احتفاليا أو جنائزيا. رغم أنني أدركت على الفور أن مرضي خطير لأنه يجبرني على قطع المسافات جريا وعلى الانتظار كثيرا، وعلى خيبة الرجاء، وعلى الغضب. كنت دقيقا في عالم ملئ بغير الدقيقين، ولم أنجح على الإطلاق في التخلي عن دقتي. قالوا لي أيضا إن الحالات مثل حالتي ليس لها شفاء. تحملت طيلة حياتي العذابات نفسها. دقائق ودقائق، تصبح ساعات، في انتظار المرأة التي أحبها والزهور في يدي، ساعات لا تنتهي وحدي في المطعم بينما الأصدقاء لا يزالون يحلقون ذقونهم، ساعات من الملل في المكتب في انتظار بداية الاجتماع، ساعات من السعال في المسرح في انتظار

رفع الستار الذي لا يرتفع، ساعات في غرف انتظار طبيب الأسنان ومختلف الأطباء أجالس المجلات القديمة.

- آه، كنت أظن إن الدقة هي شكل نبيل من أشكال احترام الآخرين وتسهم في تناغم العالم وانسجامه. ولكن العالم لا يعرف الانسجام. إن عالم الآلهة في السماوات لديه ساعات أكبر لا يمكن أن تكون دقيقة، لأنه لا تكفي حياة واحدة لملئها. أمام حياتنا نحن تحت على الأرض فساعاتها صغيرة وفقيرة لا يحترمها أحد، ربما الآلات فقط، وربما أيضا مواعيد برامج التليفزيون.

- وهكذا هي حياة الرجل الدقيق. جحيم ننتظر فيه الموت، على أمل أن يأتي هو على الأقل في موعده.

أنصت بتفهم إلى فضفضة الرجل البدين، وحاولت أن أقول له إن عشر دقائق من التأخير لا تعني الموت لأحد. انفجر في البكاء. فهمت أن الدقيق لديه حساسية خاصة جدا.

وصل القطار أخيرا. صعد الرجل في إحدى عربات المؤخرة. وقفنا بضع دقائق أخرى، كنت أفكر فيها في الألم الذي يمكن أن يمثله هذا التوقف للرجل، ونظرت خارج النافذة وبدهشة رأيته واقفا على قدميه تحت المظلة. حياني بإيماء محبطة من يده، بينما كان القطار يرحل. لاحظت أنه لم يعد معه الحقيبة الضخمة.

بعدها بلحظات انفجر القطار.

وإذا كنت اليوم أستطيع أن أشهد فذلك أن حظًا أراد لي أن أكون في عربة بعيدة عن العربة التي وضعت فيها الحقيبة الملغمة. أو ربما لم يكن الحظ، وإنما التعاطف الوليد المتبادل مع الرجل.

منذ ذلك الوقت وتفكير وحيد يعذبني. ماذا إذا كان وراء جميع المذابح التي لم يعاقب عليها أحد، والدم المراق، والقنابل الغامضة، لم تكن هناك منظمة إجرامية، وإنما مجرد تمرد يائس من رجل دقيق ضد عالم دائم التأخر؟ ألا يجعل هذا التفسير العيش في بلدنا المعذب مقبولا؟ ونظرا لأنه ليس مسموحا لنا بالأمل في غير هذا، فلماذا لا نفكر فيه؟

١١

أورفيوس مسكاليرو

أعلم أنك تستطيع شفاءها أيها الساحر. فتاتي التي سقطت من السماء، غبارا من مذنب، على سطح بيتي، هي التي تحرك بفكرها الأراجيح في الحدائق، هي التي بنظرة من عينيها الكبيرتين العسليتين تجمد الابتسامة الخبيثة على شفاه تجار المخدرات، هي التي تفوح بعبير الزهور ونترات النشا، إيوريديس، هي التي انطفأت الآن، بيضاء، ساكنة، في بيتنا، حيث ترتعش من البرد حتى العناكب.

أنا أعرف أنك تستطيع أن تشفيها أيها الساحر، وهذا هو ما جعلني أسرق هذه السيارة السوداء كأنها غراب، وأقودها تحت العاصفة، في الممر الضيق بين الجبال حيث عنابر النوم، بينما تخلط الأمطار على زجاجي الأمامي وميض العاصفة وضوء الإشارات الحمراء ولون السوبر ماركت الأصفر ولون الإسعاف الأزرق وأخضر المريخ، هذا هو ما جعلني أسب وأصرخ لأنني لا أريد أن أفقدها.

أنا أعرف أنك تستطيع أن تشفيها أيها الساحر، حتى وإن كانت في نظـر العالم ميتة، كيمياء أكثر من اللازم، وكتب أكثر من اللازم، وليالٍ لا تنتـهي وحدها، عندما كنت أنا بعيدا. هكذا قالت لي: نكون دائما وحدنا في ليلة كبرى. لهذا أقود على سرعة ألف ومائتي كيلومتر في الساعة بينما يثرثر الراديو بموسيقى باخ الحزينة وبالأكاذيب، أنا أريد أن أنقذها، هل تفهم أيها الساحر؟ هذا هو السبب في أن الشرطة لو أوقفتني فإنني أحتفظ لها في تابلوه السيارة بهذا المسدس الألماني وهذا المسدس الرمادي وهذا المسدس المحلي وهذا السيف وهذه السنجة الطويلة والمسمومة وقاذفة المسامير وكريزي - كات وليلتكم سعيدة. إنني لا أضمر لكم شيئا أيها الشرطيون ولكن الأمر هو أنني أجنبي هنا، لا أتحدث بلغتكم وخاصة لغة كبيركم، ولا أعمل في عصابات الإجرام المسلحة، وإذا أردت أن أخطف فإنني أقوم بالخطف لذاته، وليس هذا فحسب، بل إنني بالفعل شرير وعندما يحدث بالمصادفة أن أكون طيبا (أحيانا ما يحدث) لا أظهر هذا لأحد. لدي شرخان على شاشة بالكريستالات السائلة. ولا أضرب من الخلف.

نمت مرات عديدة في العراء وصحوت على ركلاتكم، استجوبتموني وضربتموني واعتقلتموني، فتحتم رأسي بصرخاتكم، ولكن هذه قصة وانتهت. أنا الآن طيب. لا لم أعد أشرب أيها الساحر، أنا الآن عندي آلة كاتبة تؤلف وحدها، وترقص، وتضيء ليلا، وتغني مثل أربعة زنوج حزانى، ولم أعد آكل عش الغراب المكسيكي أيها الساحر، ولم أعد

أتشاجر من أجل أن أحصل على صديقات الآخرين، لا أتسلق الجدران، ولم تعد معي الشوكة المسمومة، كيف أستطيع أن أقنعك أيها الساحر ميسكال؟

أعرف أين تسكن أيها الساحر، في ناطحة سحاب موشومة في المدينة تتحول ليلا إلى سفينة فضاء، وتتحرك، ويمكن أن تختفي ثم تعاود الظهور في أي مكان، بين ومضات العاصفة، ولكنني سوف أعثر عليها أيها الساحر، ففوقي يطير صديقي الصقر ولديه في منقاره رادار ركبته له بنفسي. ويمكنه أن يقف في الجو كأنه مرسوم، وهو كذلك يعرف الطيران كأنه صاروخ تومكات، ولهذا فهو بالفعل ملك السحاب نسر النجوم الرهيب.

عندما عرفت إيوريديس كانت بلا شعر، فقد حلقوا لها شعرها حتى ظهر الدم من تحت بشرة رأسها، وكانت عيناها منتفختين من اللكمات. ويوما فيومًا عاد الشعر إلى النمو وعادت عيناها تفتحان وعاد اللون إلى وجهها وأصبحت تزداد كل يوم جمالا أيها الساحر. لقد ربيتها كما أربي فأرا وليدا، كأنها حبة بطاطا في الكوب، وكالنبتة السحرية أزهرت، من أجلها سرقت جميع دراجات المدينة، وجميع الكتب، والأسطوانات، واحتفظت بها في مكان آمن في بيتنا الصغير والذي لم يكن بمثل هذه البرودة، وكانت هي تقف في النافذة عارية وتتحدث مع مصاصة دماء عجوز في الفناء، كانتا تتحدثان عن والديهما اللذين ماتا، وكانت العجوز تبلغ من العمر تسعين عاما، ولكنها كانت لا تزال تبكيهما، وقضت

الثلاثين عاما الأخيرة في مستشفى المجانين، وهي التي حدثتني عنك أيها الساحر، عن رفرفتك بمعطفك وأنت تجري بين الفصائل، برائحة الإثير التي تميزك وخطوة القط، وأنت تخنق في النعاس من يتألم أكثر من اللازم، أو تحطم النوافذ وترميهم منها ليلا، وأنت تملأ الأوردة بدماء التنين حتى يجنوا ويعيشوا للأبد.

لا أستطيع أن أسير أسرع من هذا أيها الساحر، لا أريد أن أدمر نفسي كأنني دجاجة حظائر في ديسكوتيك، لا أريد أن أؤذي أحدا، سوف أكبح السيارة إذا ما رأيت في وسط الطريق أحد رجال العصابات مع خدمه وكلهم بابتساماتهم التي تبدو كأنها مصنوعة بواسطة الفوتومونتاج، والمسدسات المصوبة. ثم يضعون ماسورة المسدس في فمك، كما رأيتهم يفعلون في البار عندما يجرؤ أحد على عدم الدفع لهم، مسدس في فم صبي في العاشرة من أجل خمسين ألف ليرة ثمن المخدرات، هل يمكن تحمل كل هذا أيها الساحر؟ أتدري ماذا يقول هؤلاء الشياطين الصغار، هؤلاء الخدم الدمويون؟ "إذا كنت تبحث عن عمل فسوف أجده لك يا صغيري" يقولون، كلهم متحمسون منذ جاء رجل العصابات إلى المدينة، وإذا لم تكن تصدق هذا تعال لترى، اسمع لضحكاتهم في التليفزيون، عادت المياه العكرة لهم وأصبحوا يظهرون في التليفزيون كثيرا، ولكننا نحن أيضا عائدون أيها الساحر، الجيل السادس هنا، بأسنان قوية وآذان طويلة أشعل ألف شمعة في القاعة المقدسة وانتظرنا، سوف نأتي لنجلس أمامك، سوف نسمع نداء

أصدقائنا حيثما يكونون، عبر الجدران والصحاري. ثم الحرب. ركلات في الفم. برقة. لأنه من الممكن الحياة بالقدمين يا سيد بريل.

كان الساحر جالسا في الشرفة تغرقه مياه الأمطار وهو يصلح لعبة فليبر قديمة. دخلت بأدب، وقبعتي في يدي. سب الساحر وأخذ رشفة من البنزين وبصق في الهواء بصقة مشتعلة وقال:

– انصرف، أنا لا أعمل في الطقس السيئ.

– ولكنك ينبغي أن تعمل – قلت – إن صديقة لي تحتاج إليك.

– ماذا حدث لها؟ – قال الساحر بينما كان برقا يشق عربة نقل إلى نصفين على الطريق في الأسفل وسيارات الشرطة تغرق في طين أحد الجداول.

– لقد ماتت. يلزمها قلب جديد.

– ليس من الممكن عمل هذه الأشياء – قال الساحر. – إن الأخلاقيات الطبية تأبى هذا. البابا لا يريد. الرب لا يستطيع ولا يريد. الثعبان مسكال يستطيع ولا يريد. ثم إن هناك أشياء أكثر أهمية. فقد هاجمت الشرطة منازل السنغاليين فرموا هم بالزيت المغلي والسهام الحارقة وخرج زعيمهم، وكان فيلة، فدهمت اثني عشر شرطيا وعربتي نقل صغيرتين قبل أن تسقط ميتة، طن من اللحم، عندي منه قطعة في الثلاجة، هل تريد أن تتذوقها؟

- إيوريديس تعني كل شيء بالنسبة لي. لقد غيرت حياتي.

- أي واحد كان يمكنه ذلك. تكفي نغزة هناك تحت العنق، في النقطة الوسطى لخط الزوال - يقول الساحر وهو يشير نحوي بظفر إصبعه السبابة الذي يبلغ طوله ستة عشر سنتيمترا ومطلي باللون الأسود ومغموس في سم العناكب الضخمة. - أدخله في هذه النقطة وسوف تحس الضحية بشكة لا تذكر ولكنها بعد ساعتين سوف تموت فجأة. قتلت العشرات بهذه الطريقة في المترو.

- لا أصدق هذا.

- فعلا، فهو ليس حقيقيا، لكنني بمقدوري أن أفعله. الانتصار على الموت، مع هذا، ليس من سلطتي. هل سمعت هذه العبارة من قبل؟

- لا أصدقك. إيوريديس ماتت ولكنك تستطيع أن تساعدها.

- سوف أعطيك قلبا جديدا لها - تنهد الساحر- لا أدري لماذا أنتم يا فتية الجيل السادس يرق لكم قلبي. ضعه بجوارها، تحت أغطية الفراش، سوف يسير ويأخذ مكان القلب القديم. احرق كل ما لديك في المنزل، الكتب والمقاعد والموائد، يجب أن يكون الجو حارا وإلا فلن ينبض القلب. ها هو.

- في كيس من أكياس السوبر ماركت؟

- وهل كنت تريده في صندوق مذهب يا مأفون؟

- هذا الفليبر لن يعمل أبدا - قلت مغتاظا.

دنج دونج، وكل شيء أضاء. كرة الفليبر طارت لتضربها العلامات والجواد يركل، وراعي البقر يقفز على الصهوة، والشقراء تضيء وهي تضحك ومن قبعتها تخرج مليارات النقاط. يقهقه الساحر، علامات الحرب البيضاء تتراقص على وجهه العاجي.

- إذا عمل الفليبر فسوف يعمل القلب أيضا - فكرت أنا.

- أنتم يا أبناء الجيل السادس حالمون علاهم الصدأ، رحالة يخجلون، مدللون وجبناء.

- ولكننا أفضل من مشاهدي الجيل الخامس - أقول أنا - ثم من يدري كيف سيكون حال الجيل السابع.

- ذئاب - يقول الساحر - ممتازون، دمويون، ذئاب صديقة. - يغمض نصف عينيه وينفجر الفليبر.

عدت إلى المنزل، العاصفة توقفت، وضعت في جهاز التسجيل الأحدوثة التي تحبينها حبا جما، أحدوثة الطفل الذي كان عليه أن يسير لثلاثة أيام وثلاث ليالٍ على الجليد حتى يترك ذلك البلد الرهيب، مع دبه. كانا يريدان العودة إلى وطنهما، أو إلى وطن آخر، لكي يقدما عروضا فنية ويرقصا. من يدري أين هو الآن، من يدري هل نجح أم لا؟ ولكنك يا إيوريديس ما تزالين بيضاء باردة وميتة بلا أدنى شك وأنا الذي ينبغي أن أعود عما قليل إلى الملاءات المعطرة الباردة لمستشفى المجانين وأنتظر

الوريد الذهبي وسحابة روبينول ومناقشات نهاية العالم مع بيتوره دي تشيسي فيات، وماسرتو جومابيوما، ذلك الذي خرب جميع الفصائل، أو مع الكابتن كولارو، الذي عندما كان يعزف على الطبلة في المظاهرات كان يحيل الشرطيين إلى تراب، مثل محاربي الرمال الصينيين.

هل تعرفين يا عصفوري أنه كانت هناك سنوات وقرون من الصراعات العمالية؟ لا تعرفين؟ هل تحبين أن تعرفي؟ الأب والأم لا يريدان و(بصفة خاصة) رجل العصابات لا يريد؟ اشربي هذا الشاي من مسكال واقرئي الفنجان إذا استطعت.

وضعت قلب الساحر تحت أغطية فراش إيوريديس. ولكنه لا يتحرك، ينبض قليلا وهو يهز ذيله القصير. في الخارج أسمع جوقات تنشد بعض الانتصارات الرياضية، قنابل وألغام تنفجر، هتاف بشنق أحدهم. في الفناء كان هناك زميلان من الجيل السادس يرحلان بحقائبهما الأكبر حجما من البيت الذي يسكنون فيه.

– إيوريديس ماتت – صرخت.

– سوف نرسل لك بطاقة بريدية– يجيبون وهم يحيون باليد.

هذه الليلة يا حبيبتي أريد أن أعيد عليك قراءة قصة الطفل والدب، وأيضا قصة الطبيب الإنجليزي، ذلك الذي كان يتحول إلى الجزء الأكثر إظلاما منه، الجزء المعاق الأعرج، وهكذا نستدعي الظل والمرآة والمزدوج،

فنصبح كثرة فلا تعرف المنية[٢] من تأخذ. ها هي قد وصلت مبتسمة، شاحبة، وبراءة الأطفال في عينيها. تنكرت في زى مراقب عدادات الغاز. ولكنني أعرف يدها العظمية المختبئة في القفاز.

– هل أستطيع أن ألقي نظرة؟ – تسأل بصوت مذيعة.

– ابتعدي يا عاهرة، أعرف من أنت. ألقي نظرة كما تشائين. أيوريديس ليست ميتة.

– حقا؟ في الشركة يبدو الأمر مختلفا – قالت المنية بجفاء – لقد فصلنا عنها العداد منذ نصف ساعة.

– حاولي أن تلمسيها – أقول – وسوف أفكك عظمة عن عظمة..

– أنا لست مصنوعة من عظام – تعترض المنية – بل إنني مركب حيوي صناعي مبلمر عالي المقاومة ولدي في الذاكرة اثنتا عشرة طريقة للتحول سوف أرعبك بها.

– أنا أيضا – أقول. وأتحول إلى ذئب على ساقين.

– أحسن! – تقول هي وتتحول إلى ذئب ضعف حجمي.

(٢) كلمة الموت في اللغة الإيطالية مؤنثة، وفي العربية مذكرة، ولذا ينشأ اللبس في الترجمة، ولكننا وضعنا المنية بدلا من الموت حتى نمنع اللبس لأن الكلمة تحولت إلى شخصية روائية لا نستطيع أن نحولها إلى مذكر دون الإخلال بالبناء الروائي للقصة.

تشابكنا في مشاجرة. طرنا لأسفل من النافذة، ثم عادت هي للنهوض أولا وهرعت جريا نحو السلالم محاولة أن تصل بمخالبها إلى أيوريديس، فإذا لمستها بثلجها فسوف تضيع، لكنني قفزت وراءها وعضضتها ففصلت عنها الذيل. ولولت المنية بالنباح كأنها جرو صغير.

خرج إلى الطرقة الجريزو، وهو بائع المخدرات المختص بالمنطقة وهو الذي أسس النادي الوطني لمروجي المخدرات، ومعه مدفع عوزي في يده ويرتدي ملابس داخلية سوداء مثل ملابس الملاكمة.

- ما هذه الجلبة؟

تحولنا، أنا إلى صبي جميل من الجيل السادس والمنية إلى موديل تصوير لوزانجيل شقراء.

- مع هذا - يقول الجريزو- هذا السكن يتحسن.

- هذا الصبي الشرير يريد أن يؤذيني - تستعرض المنية- الموديل بدلال.

- سوف أعالج الأمر حالا - يقهقه الجريزو.

لحسن الطالع يصل صديقي دولتشينيا، وهو مخنث طوله متران، جميل، يضع مكياج مثل الممثلين في كتاكالي.

- أبعد هذا المدفع يا جريزو - يأمر - إننا هنا لسنا في البرلمان.

– هذا الصبي الشرير.. – تبدأ الشقراء المزيفة.

– انصرفي انصرفي أيتها المنية، لقد عرفتك من رائحتك الكريهة...

أفلتت المرأة العاهرة ولكن قبل أن تبتعد قالت بتحد لجريزو:

– هناك قلب جديد جميل في ذلك البيت، لو كنت مكانك لم تركته يفلت مني..

– أستطيع أن أجني عشرين مليونا على الأقل من هذا القلب – يقول.

غرزت أسناني في عنقه. عزفت الجيتارات. سحب الجريزو وترك القلب الذي كان يتقافز على الأرض واختبأ مرعوبا تحت صندوق يستعمل كمقعد. دقت المنية الباب.

– كيف حال فتاتنا الجميلة أيوريديس؟ – تصرخ إيوريديس من الخارج.

– يا قلب! – أصرخ – اخرج من عندك تحت!

لا فائدة على الإطلاق. إنه لا يتحرك. لدي فكرة: أضع شريط رقصة السامبا. القلوب لا تقاوم إيقاع السامبا. ها هو يخرج من مخبأه ويتحرك، بالنبضة الخفيضة والنبضة العالية، يحرك رأسه ويهز ردفه، هيا أيها القلب، اقفز فوق الفراش، طر من فتاتي أيوريديس وارقص يا صديقي، وبالفعل يقوم القلب بنبضة شق بها صدر إيوريديس وغطس

فيه حتى أطلقت هي صرخة، بينما لفظت القلب القديم أسود مكرمشا. ارميه للقط. وارمي له أيضا الجريزو بكامله، إلا ساقا. ولكن تحت النافذة كانت المنية تقف ولم تترك للقط سوى العين وأخذت الباقي.

– على الأقل لم أقطع المشوار كله بلا طائل – تتمتم – وتمضي في عربة نقل صغيرة صفراء عليها ملصقات heavy metal الموسيقى المعدنية الثقيلة.

تنهض أيوريديس من الفراش وتقول إنها جائعة، وأعد لها خمسين بيضة دجاجة بالصنوبر وبصلة يوكاتان وساق الجريزو محمرا على نار شعلة المقعد.

– يبدو لي أن ... أنني نمت – قالت هي.

– بل إنك كنت ميتة.

– هو ذلك فعلا – يقول الساحر.

بانحناءة نشكره. أرجوحات الحدائق تعاود الأرجحة. عادت السماء تمطر. أعد الشاي. ينبغي شراء مائدة جديدة، فتلك القديمة تشتعل في وسط الغرفة وتنشر نوعا من الدفء البغيض.

يدق الباب. إنه ملاك أشقر لديه من العمر ست سنوات، وله أذنان طويلتان، ومعه دب ضخم بقبعة مشاة البحرية الأمريكية.

– هل ترغبون في عرض فني ورقص فروسية في البيت؟ – يسأل الملاك.

- من أين أتيت؟

يشير الصغير إلى الشمال، ونفهم أن فيه جليداً وبرداً، وأنه يراه بغيضا.

- أدخلا لتتدفآ - أدعوهما أنا.

- لقد نجح، ألم أقل لك؟ - صرخت أيوريديس مسرورة. - هناك دائما أحد ينجح.

- هل لي أن أتذوق بعضا من ساق الثور هذه؟ - يسأل الدب بخجل.

- هذا ليس دبا. إنها ساق رجل شرير جدا.

- لا يوجد رجال أشرار - يقول الدب - إذا تم طهيهم جيدا.

هذا ما يقوله الساحر دائما. كان هنا حفل كبير في بيتنا تلك الليلة.
شكرا أيها الساحر مسكال.

١٢

الجحيم

(حكاية الرحالة الثالثة)

وصلت ذات صباح إلى محطة (دي). كانت محطة كبيرة ومزدحمة، حيث كان من الصعب العثور على الاتجاه الصحيح. كانت كل جداول المواعيد مطفأة لعطل في الكهرباء، وكان الجدول الحائطي في مرحلة التغيير، ومكتب الاستعلامات كان مغلقا، والقليل من رجال السكك الحديدية الموجودين كانوا يزوغون ما أن تحاول الاقتراب منهم. وهكذا رحت أقرأ التعليمات المكتوبة على العربات واحدة واحدة، ولكن كل عربة كانت تحمل محطة وصول مختلفة، فالأولى تذهب إلى بازيليا، والثانية فوجا والثالثة انسبروك، وهكذا فمع إطلاق ناظر المحطة لصافرة الانطلاق كان عليه أن يتلوى كالدودة وتتجه كل عربة في اتجاه مختلف، ولا تترك هناك سوى عربة المطعم، والتي لم تعلق عليها لافتة تشير إلى محطة وصول سوى نفسها.

في هذه اللحظة، وفي خضم زحام الناس التي كانت تتقدم متدافعة بالحقائب لاحظت رجلا يرتدي سترة غالية وكان في غاية الأناقة، وبيده اليمنى حقيبة صغيرة، وباليسرى كومبيوتر صغير. كان يتجه بكل حزم وجرأة نحو الرصيف رقم ثمانية. من هيئته استنتجت أنه متوجه إلى العاصمة. ولم يخب استنتاجي. صعد، وتبعته، جلس، فجلست، ثم سألته:

- هذا القطار متجه إلى "إم"؟

- نعم متجه إلى هناك - قال هو وهو ينظر نحوي بدون أية حرارة
- ولكن هذه هي الدرجة الأولى.

- يا له من حظ - قلت أنا.

صوب نحوى نظرة لا أدرى إن كانت خبيثة أو مندهشة، ثم أخرج من حقيبته صحيفتين تنتهجان سياسة الحكومة بشدة، وهاتفًا محمولاً أسود رن على الفور واستدعى انتباهه، وفي تلك الأثناء كان يتصفح بإحدى يديه نوتة للمواعيد وباليد الأخرى كان يحاول إشعال سيجارة، وبالأخرى يحاول أن يسجل رقما، وبالأخرى يشغل مفكرة الكومبيوتر. ولكن التليفون المحمول رن مرة أخرى، وعندما نظرت حولي رأيت أنني وقعت في عربة من المبتلين، لا يعرف أحد لماذا يعاقبون بالذنب نفسه، لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يقرؤوا الصحف إلا وهم مضطرون للرد على التليفون، ولكنهم لا يستطيعون الرد على التليفون لأنهم مشغولون

بتسجيل الملاحظات، ومضطرون لإيقاف تسجيل الملاحظات لأن جرس التليفون يرن، وفي تلك الأثناء يتبادلون تحية عابرة يائسة، كما لو أن الواحد منهم يقول لا أستطيع أن أتحرك ويرد الأخر بتأوه معناه أنني لا أستطيع أنا الآخر أن أتحرك، فقد تسمرت في مكاني الأليم، ولو حاول أحدهم أن يتحرك لكي يحيي الآخر يسارع التليفون المتروك في مكانه في الرنين بغضب، أو يرن تليفون الآخر، ويحاول المفتش عبثا أن يسمع منهم ولكن الجزع والضجيج والألم لا يمكن وصفها، وهكذا تركت هذه العربة الرهيبة جريا.

ولكنني في العربة التالية وجدت مبتلين من نوع آخر. كان هناك في الحقيقة برود مرعب، ناشئ كما قيل لي عن تحطم جهاز التدفئة، وجميع من في العربة لفوا أنفسهم بالسترات والمعاطف التي تستر من الريح، والمخاط يقطر على المقاعد، وتصطك أسنانهم وهم يهددون بالويل والثبور المحولجية والمفتشين ونظار المحطات ووكلاء الوزارة والوزراء.

جريا انتقلت إلى العربة التالية، ولكنني لم أستطع أن ألتقط أنفاسي بعد أن صدمتني موجة شديدة الحرارة. قالوا لي إن جهاز التكييف هنا هو الذي تعطل، وكان الجميع يعرقون وقد أوشكوا أن يخلعوا ملابسهم كلها، وظلوا جالسين والنوافذ مفتوحة فكانوا يعطسون لاختلاف درجات الحرارة، أو بعد أن بلغ بهم الاحمرار حد أنهم أصبحوا مثل الجمبري كانوا يبحثون عن الراحة في علب البيرة وكانوا قبلها بلحظات قد بلغ بهم الضيق مبلغا جعلهم يطفئون أعقاب سجائرهم،

ومن هذه العربة هربت أيضا، ولكن في العربة التالية قابلت حلقة المحقبين، حيث المبتلون هنا كان نصفهم من اليابانيين والنصف الآخر من جنسيات مختلفة، ولكن كل واحد فيهم معه ثلاث حقائب كبيرة كأنها سرير الزفاف، وكانت هناك حقائب في كل مكان، ومن كل نوع، طرية وصلبة وعلى عجلات، تترنح مع كل منعطف فتسحق الأطفال، وكل حين تسقط واحدة من الرف فتحدث فرقعة كأنها قنبلة تصيب أحد الأبرياء بعاهة. بعد أن تقافزت فوقها نجحت في أن أصل إلى عربة أخرى، ولكن هناك كان يوجد "المحجوزون" الذين كانت عقوبتهم تتمثل في أنهم لديهم جميعا، اثنان اثنان أو ثلاثة ثلاثة، نفس رقم المكان المحجوز، بحيث يضطرون إلى التشاجر وقوفا طوال الرحلة، بينما ينحي المفتش بارد الأعصاب باللائمة على الكومبيوتر.

ثم عبرت في طريق هروبي الدائم عربة المراحيض المكسورة حيث عشرات الأشخاص يتأوهون في ضيق قضاء الحاجة، ومن هناك وصلت عربة المشجعين، حيث كان هناك احتفال بهزيمة لا أعرف لمن بين الهتاف الجماعي والسب والأعلام، وكان الجميع بين من ينزف دما من الأنف أو كسرت ذراعه أو أصيب بجروح قطعية أو تورمت عيناه كالمانجو، ولكنهم كانوا في غاية السرور.

وأخيرا وصلت إلى العربة الجهنمية الأخيرة حيث كان حوالي ثلاثمائة وستين كائنا بشريا، الجزء الأعظم منهم، يتكدسون في الممرات أو ينامون بالعشرات في الكبائن. ومن بينهم كانت تتقدم، وهي تدهسهم

بعجلاتها، عربة مشروبات وسندوتشات غامضة بدون سائق. وفي وسط هذه الملحمة البشرية كان يقف على قدميه رجل يرتدي بزة بيضاء نبيل الوجه يقرأ صحيفة لها توجه تقدمي واضح. وعندما رآني قادما سألني وكله أمل:

– هل تعرف أين المفتش؟

– نعم، ولكن ليس من السهل الوصول إليه.

– أعرف هذا – وافقني بحزن. – لدي مكان في الدرجة الأولى ولكن لا أعرف كيف أنتقل إليه، كيف يمكن القفز على كل هؤلاء...

– الزنوج – قلت أنا.

– أحسن – قال هو بابتسامة نبيلة. – أحيانا ندرك من خلال مشاركة المحرومين مشاقهم ومصاعبهم كيف تمضي حياتنا ما بين اليسر والسعة، وأن من الحقيقي أننا لا يجب علينا أن نحارب من أجل القضاء على الظلم من خلال الكلمات وحسب وإنما بالأفعال أيضا.

– برافو – قال أحد السنغاليين الجامعيين.

– انظر – قال الرجل الذي يرتدي البياض – إنني يجب أن أسافر لمدة أربع ساعات أخرى. ولكنني لحسن الحظ معي كتاب لكي يرافقني، ومن المؤكد أنه سوف يساعدني في التفكير فيما كنت أقوله آنفا.

– برافو – قلت أنا.

في هذه اللحظة انطفأت جميع أنوار القطار لعطل كهربي، ولأن الوقت كان ليلا فقد ساد الظلام. أصدر الرجل الذي يرتدي البياض لهاثا. لقد سرق منه الحذاء على الفور. وسكبت عربة المشروبات القهوة الساخنة على قدميه. والمفتش في جنح الظلام نجح في تغريمه لأنه لم يكن سجل تذكرة العودة. وطفل في السادسة من عمره تقريبا، كان منذ ساعات يجاهد في الوصول إلى المرحاض....

ولكنني لا أريد أن أروي المزيد. عندما وصلنا إلى محطة الوصول رأيت من جديد الرجل الذي يرتدي البياض حافي القدمين وبدون رابطة عنق، يحيط به أربعة من الغجر. نظر نحوي وقال لي بفخر:

- ومع ذلك لم أغير رأيي!

أما أنا فقد فكرت مع نفسي:

هذا الرجل إنسان.

١٣

رجل هادئ

أحـيل الدكـتـور بانونوتزيو مـدير المكتب المدنى لمراسم التكريم والتشريف الوطنى للتقاعد بعد خدمة طويلة ومشرفة. وفضلا عن مكافأة نهاية الخدمة أهديت إليه أيضا محبرة من البلاستيك القاسى، بالإضافة إلى لوحة مكتوب عليها "جائزة تشجير الغابات" وقد قبلها دون أن يسأل عن سر إهدائها له؛ لأنه كان متلهفا على العودة السريعة إلى منزله لكى يخصص وقته كله لهوايته، وهى تربية القواقع الحلزونية المتسلقة.

استقبل موظفو المكتب رحيله بلامبالاة واضحة، بعضهم بالتثاؤب، والبعض الآخر يغط فى النوم أثناء الاحتفال، وغيرهم يتململ على المقاعد، أو يغيب فى دورات المياه. الاستثناء الوحيد كان الدكتور أداتاتى[١] فى الصف الأول، وهو مسئول قطاع فرد السجاجيد والتكريم

(١) كما أشرنا من قبل فإن الأسماء لها مدلولاتها فى قصص ستفانو بينى، واسم البطل هنا "أداتاتى" له معنى "وفق أوضاعك".

النباتي والموسيقى، والذى كان يشارك فى حفل توديع رئيسه السابق مشاركة متألمة، وعند النهاية، زرف عليه بعض الدمع أيضا .

هل كان الدكتور أداتاتى رجلا رقيقا بطبعه؟ هل كان يحب رئيسه؟ أم أنه كان ينفعل بصفة عامة فى الحفلات سواء كانت حفلات تعميد أو مراسم دفن أو أفراح؟ هل دفعت له المصلحة لكى يعادل بمشهد تأثره اللامبالاة العامة فى الحفل؟

لا شىء من هذا كله. فقد كان الدكتور أداتاتى منكسر النفس حقا فى هذه المناسبة. ليس بسبب رحيل مديره القديم، وإنما لقرب وصول المدير الجديد؛ لأن هذا معناه بالنسبة له أن يبدأ العمل الشاق من جديد، أن يبدأ البحث المجهد الجهيد. معناه، إذا سلمنا بالتلاعب بالألفاظ، أن يبدأ من رأس الرئيس.

كان لدى الدكتور أداتاتى فى حياته فكرة واحدة فقط واضحة. لا تراجع عنها، مسيطرة، وهى ألا تكون لديه أية أفكار. وبالتالى (تبعا لهذا) فإن ما لديه هو أفكار رؤسائه فقط. وكنتيجة نظرية (تبعا ثانيا لهذا) لابد من معرفة آرائهم معرفة جازمة. وكنتيجة عملية (تبعا ثالثا لهذا) توفيق أوضاعه فى كل شىء ولكل شىء فى سلوكه لأفكارهم.

فى حالة الدكتور بانونتزيو، قبل عدة سنوات، لم يستغرق الأمر أكثر من شهر لأداتاتى، حتى نجح فى استيعاب أفكاره بدقة، حتى إنه لم يعد يتذكر أية أفكار اضطر إلى تعديلها وأية أفكار كانت له فى الأصل،

ذلك أن أفكار المدير تغلغلت فيه على الفور. على سبيل المثال الافكار السياسية التى تنتمى إلى الاتجاهات الحميدة التى تتوافق مع أى حكومة مع حساسية خاصة تجاه جنوب البلاد، وعداوة غير واضحة للمرأة مع شك فى وجود خيالات هيسيترية، والاستمتاع بذكر مقتبسات باللغة اللاتينية، وتدخين الغليون، والأحذية الإنجليزية، وتشجيع فريق ديبورتيفو، والممثل ب والمذيع التليفزيونى ت والنكات المثيرة قليلا، والمطواة على شكل المقصلة، وعدم الثقة فى الأطباء والحديث عن القرحة التى تؤخذ على أنها مرض الصفوة المختارة. ثم حلوى "البينيه" وكتب الرحلات وبصفة خاصة تربية الرخويات الأرضية المتسلقة فى الصوبة.

والقرحة، وتلك يتذكرها جيدا، لم تكن وراثية، وإنما مكتسبة. وقد جعل أداتاتى نفسه يصاب بها بقوة الأطعمة المقلية، ونجح فى هذا رغم أنه كان يمكن أن يصاب بالالتهاب الرئوى. وبهذا ضمن موضوعا ممتازا للنقاش مع بانونتزيو. أما بالنسبة للرخويات المتسلقة فقد كان كل شىء سهلا، وخاصة أنه كان طوال عمره يحبها، مع وجودها المطمئن دائما فى البيت فوق رأسه. وكان المدير يربى المتسلقة على شكل الأوز أما هو فكان يربى المتسلقة الضخمة على شكل الخس، ولكن من الأمور الطيبة أن تكون هناك بعض الاختلافات مما يجعل العلاقة بينهما غير مملة أو تعتمد على التقليد المسطح.

إن بطلنا لم يكن يقتات على القيادة لا، فالدكتور أداتاتى لم يكن يتطلع إلى الترقيات، ولا يريد أن يكون فى الواجهة. لم يكن يريد سوى

العيش والعمل فى منتهى الهدوء، وأن تكون أفكاره هى نفس أفكار المدير لأنه ليس من طبيعته ألا يكون مطيعا، كان يكره الصراع، والتحدى، والمنافسة، كان يريد أن يكون متفقا مع الجميع وبصفة خاصة مع رئيسه. لم يكن يرى فى التمرد شيئا أخلاقيا أو بطوليا: فقد جبل على هذا، على ألا تكون له أفكار. كانت كلمة "فكرة" نفسها تملؤه بالكدر، فكرة أن تكون هناك فكرة فى رأسه كانت تجعله يعانى، كأن ما لديه مرض، فيروس معد قد ينشر فى عقله أفكارا أخرى. وهو يتذكر عندما كان يدرس قبلها بأعوام النصوص المتعلقة بالرخويات وعرف أنها مزدوجة الجنس فأصابه هذا بالتقزز وتساءل: هل اختيار مديره لهواية تربيتها ينم عن شىء غير طبيعى فيه؟ وهل إذا كان هذا صحيحا يجب عليه أن يفعل مثله؟ ورأى فى الحلم مديره أسود ومرتخيًا كأنه حلزون رخوى يخرج لسانًا إباحيًا مشقوقًا. لم ينم الليل، ثم فهم. ما الذى يمكن أن يكون أجمل؟ أليس فى ازدواج الجنس معنى إزالة الفوارق بين الجنسين وبالتالى إلغاء الخيارات ومن ثم ضرورة وجود الأفكار؟ وهكذا وصل به الأمر إلى أن يمتلك ثلاثة آلاف حلزون رخوى متسلق، وكان يأكل منذ أسبوع كميات ضخمة من المسلوق على الطريقة الباريسية أو طريقة برشلونة لأنه كان ينبغى أن يفسح مجالا لهواية المدير الجديد.

صبرا، كان يقول لنفسه فى طريقة عودته إلى مكانه مع زملائه بينما اختفى بانونتزيو فى المصعد وإلى الأبد. كان قد غير حتى الآن أربعة مديرين، واستطاع أن يتوافق مع كل منهم، كأنه قفاز فى يدهم. كان

شديد المهارة فى التعرف على كل ذوق لهم، وعلى كل اختلاف. قد تكون هناك فترة صعبة قليلا، شهر، وربما شهران. ولكن بعد ذلك سيصبح كل شىء على ما يرام كالمعتاد دائما. سوف تصبح أفكار المدير هى نفسها أفكاره، وكذلك أيضا وبشكل لا يلحظه أحد، لكنته العامية فى الكلام، بل أيضا طريقة المشى. قد يكون هناك فى البداية بعض التهكم من الموظفين الآخرين، ولكنه كان قد اعتاد على التهكم، ثم إن التهكم لم يكن يستمر طويلا مطلقًا. فى النهاية كان التقليد عند أداتاتى متواضعا، مهذبا، مثل جرو صغير، لا يقارن أبدا بتملق ونفاق الزملاء الآخرين. سوف أنجح هذه المرة أيضا، ردد أداتاتى لنفسه وهو يبرى القلم بهدوء، لأننى فى الحياة لدى موهبة واحدة فقط، موهبة ألا تكون لديك أفكار.

كان المدير الجديد يسمى يالينى[(٢)]. كان أداتاتى فى يوم وصوله جالسا على مكتبه يفيض بالحيوية كأنه كلب صيد. كان مرتديا ملابس لا تنبئ عن أى أسلوب بقدر الإمكان، ولم يكن يحمل صحفا (الويل!)، فى انتظار أن يرى نوع الصحيفة التى يتباهى بها مديره الجديد. كان قد خبأ منفضة السجائر ولكنه جهز فى جيوبه السجائر والسيجار والبايب، حتى يتوافق مع أى اختيار محتمل لتبغ المدير. كان مكتبه مرتبا، ولكن ليس بطريقة مهووسة. كانت هناك صورة للزوجة يمكن رؤيتها بطريقة مهذبة، ولكن كانت لديه صورة أخرى أكبر يحتفظ بها فى

---

(٢) السام معناه الزجاجى أو ما له مظهر الزجاج.

أحد الأدراج، وكانت معه أيضا صورة للوالدين فى حالة إذا ما أبدى السيد يالينى أى موافقة تلقائية على العواطف الأسرية. وفى أحد الأدراج الأخرى كانت معه أيضا بطاقات المراهنات على مباريات كرة القدم للفرق الأكثر جماهيرية فى الدورى، وكمية لا بأس منها من الأدوية وعشرون كتابا من كتب الجيب تمثل جميع الاتجاهات الأدبية الممكنة.

وكان شيئا أساسيا وله الأولوية بالطبع فهم الأفكار السياسية للمدير. وكان هناك قبل شهور تغيير وزارى بعد الانتخابات. ورغم أن الحكام الجدد لم يكونوا مختلفين كثيرا عن سابقيهم، إلا أن العديد من الناس كانوا يرون أنه قد يحدث شيء جديد كنوع من الولادة الثانية. من المؤكد أن هذا التغيير قد أصاب النفوس بالاضطراب فى هذا البلد المضطرب أصلا. ونظرا لأنه كان من واجب مكتب التشريف والتكريم تجهيز جميع الاحتفالات الرسمية، فقد كان من الضرورى الفهم الفورى للأفكار السياسية للمدير؛ لأنه علاوة على القرارات القياسية التى يعمل بها فى جميع المناسبات بنفس الطريقة، كانت هناك خيارات صغيرة تكشف عن التركيب الهرمى للسلطة، وتعد مؤشرا على مكانة الزعيم. فالسجاد الدمشقى المذهب بطول مائة متر قياسى، ولكن هل قديم أم جديد؟ إكليل من زهور العيسلان أم سلال من زهور الكاميليا؟ فرقة موسيقية نعم، ولكن كم عدد أفرادها؟ إلخ.

وإذا كانوا قد أرسلوا بالدكتور يالينى إلى هنا، فلا شك أنه من نفس خط الحكومة. ولكن الويل للتوقف عند هذا التحليل المبدئى المطمئن. فقد

يكون من خط الحكومة المقتنع بها أو المتردد، أو يساند صقور الحكومة أو حمائمها، ويمكن أن يكون من المتساهلين أو من الإصلاحيين، ويمكن أن يكون ممن يكنون للمعارضة كراهية التحريم، أو اللامبالاة المتسامحة، بل إنه يمكن أن يكون فى النهاية (كما كان أحد المديرين الذين مروا عليه قبل سنوات) من المتعاطفين مع المعارضة، ولكنه مضطر بسبب سخرية الحياة إلى خدمة البلاد من الاتجاه المعاكس مع كبت مبادئه الحقيقية. حتى لهذا النوع من التحول كان أداتاتى جاهزا أيضا لمثل هذه المساندة السرية. ولكن للقضاء على مثل هذه الشكوك كان لديه اختبار كاشف جاهز، وسوف يبنى عليه كل استراتيجيته القادمة.

كان مكتب التشريفات على شكل مغناطيس. فالدخول كان من ناحية مكاتب المديرين، ثم يتم المرور عبر منحنى واسع على رأسه نافذة مستديرة يمكن من خلالها رؤية الوزارات الأخرى فى المدينة. ثم نصل إلى ممر الموظفين. كان مكتب أداتاتى هو المكتب الأول وفوق رأسه صورة عملاقة لرئيس الوزراء يتم تغييرها مع كل تنصيب جديد. كان الرئيس من النوع الذى تدور حوله الأقاويل نظرا لماضيه فى عمليات المقاولات والجريمة المنظمة. كان من المستحيل النظر إلى هذه الصورة الضخمة دون إظهار أدنى قدر من رد فعل الهتاف أو التقزز: وهذا التأرجح بين الاثنين كان بمثابة إشارة صارخة لجهاز الإحساس لدى أداتاتى. وهكذا انتظر.

وصل الدكتور يالينى فى موعده بدقة، أو فلنقل مع تأخير قدره دقيقة ونصف، وبالتالى يمكن أن يكون دقيقا ولكنه ليس شديد الدقة، وقدم نفسه للموظفين بابتسامة. ولكن أية ابتسامة؟ لم يعثر أحد على صفة يمكن أن تصف هذه الابتسامة، وبخيبة أمل لم يعثر أداتاتى هو أيضا على هذه الصفة. لم تكن ابتسامة عارضة تفرضها الظروف، ولكن لم تكن أيضا ابتسامة دافئة. كانت ابتسامة صادقة ولكنها كانت متعجلة بنفس القدر. أى أنها لم تكشف أى شيء عن المدير الجديد.

كانت طريقته فى الملابس أيضا صعبة التأويل. كان يالينى يرتدى بزة رمادية مضبوطة المقاس ولكن رابطة العنق كانت صفراء متألقة. كان حذاؤه شديد الأناقة بحرف مدبب ولكن تحت سترة البزة كان يرتدى جيليه متواضعا من التريكو له مظهر كأن العثة ضربته بشكل غير محدد. كان كأنه ارتدى ملابس التقطها من أربعة دواليب مختلفة. تسبب هذا فى مغص خفيف فى معدة أداتاتى. وعلاوة على أن المدير الجديد لم يكن يحمل صحفا تحت إبطه، ولا علامات مميزة على سترته، ولم يكن يشوب كلامه أى لكنة عامية محددة، ولا عرج، ولا حركة عصبية لا إرادية، ولا عبوس وتقطيب جبين. كان يتقدم فى الطرقة وهو يشد يديه فى ود وديع، ويتبادل التهانى الشكلية مع نائبى المدير، وأخيرا وصل إلى النقطة الحاسمة، فى المكان الذى يتم منه الدخول إلى مكاتب الموظفين، وحيث كانت تنتظره الصورة الضخمة المغرية للرئيس. مر يالينى ونظر.

على الرغم من أنه عمل ثلاثين سنة فى هذا المكان إلا أن أداتاتى لم يصادف مطلقًا مثل هذه النظرة. الفراغ المطلق، هذا هو ما كان من أمر هذه النظرة. ليس هناك أدنى علامة على الموافقة أو عدم الموافقة، ولا إظهار لعدم المبالاة، لا شيء. إن راهبا من رهبان التبت لم يكن ليفعل ما هو أفضل.

وها هو يالينى يتقدم نحو مكتبه. شد على يديه، بلا قوة ولا وهن. وعلى الفور نصب أداتاتى فخه الأول.

– لقد تشرفنا جدا بالعمل معكم يا سيدى المدير – قال – كما أننا نأمل أن تكون سيادتكم سعيدا بالعمل معنا فى مناخ من التعاون المثمر.

الآن كان أمام يالينى أن يعبر عن ثلاثة حالات نفسية: الأولى هى الضيق من هذا الموظف الثرثار المقتحم. وهذا يعنى أن المدير متسلط ومستوحش، ومن الأفضل الابتعاد عنه والاستتار منه.

أو كان يستطيع أن يبدى حرجا خفيفا، ويشكر، ويقول بعض كلمات المجاملة: وهذه مؤشرات على أن المدير خجول يخاف من الحكم عليه، وهذا يمكن دعمه بالمجاملة والرعاية.

أما الاحتمال الثالث فهو: رد بشوش بين الزملاء وهو ما يعنى أن المدير محب للظهور انتهازى، لا يحب العمل الكثير، يميل إلى البوح بالأسرار الجنسية والنقاش فى كرة القدم، وهو أسهل الأنواع التى يمكن التعامل معها.

ولكن يالينى نظر إليه بابتسامة غريبة وأجاب:

- بالطبع...

ثم اختفى. كان على أداتاتى أن يعترف أنه لم تكن لديه القدرة على تصنيف رد الفعل المهذب والجافى هذا. المسألة - فكر - تتطلب دراسة طويلة ومتعمقة.

كان الشهر التالى من أكثر الشهور كدرا فى حياته كلها. ففى ذلك الشهر لم يكتشف شيئا، ولا أقل إشارة، أو أقل القليل من التعبير الذى يمكن أن يكشف طبع أو أفكار يالينى. كان المدير الجديد أسوأ ما يمكن أن يتمناه: كان على أكبر قدر من الغموض والإبهام والتقلب: وهذه الحالة الطيارة غير الثابتة للشخصية هى الوحيدة التى لا يمكن تقليدها، لا يمكن سوى التواؤم معها بين الحين والآخر، ولكن مع إهدار كبير للجهد والطاقة. على سبيل المثال فبناء على طلب من أداتاتى ما إذا كان يريد مطفأة سجائر على مكتبه أجاب بأنه ليس إلا "مدخن موسمى". وبالفعل فإنه فى الأيام الثلاثة الأولى لم يدخن، ثم فجأة ظهر وفى فمه سيجار توسكانيللى من النوع الفاتح الذى لا يمكن العثور عليه سوى فى محل دخان عتيق ينتمى إلى عصر ما قبل التاريخ فى الأرياف. فى الغد كان أداتاتى قد استيقظ الساعة السادسة والنصف صباحا حتى يستقبله بالسيجار، ولكنه عرف من السكرتيرة فاندا التى كانت تعمل مرشدة له تمده بالمعلومات أنه دخن فى نفس ذلك الصباح سيجارة بالنعناع. واستمر يدخن على فترات متقطعة بنفس الطريقة مظهر تلفيقا

غير منظم فى نظام التدخين، تاركا أعقاب السجائر فى منتصفها، ومظهرا البايب الفخم لكى يحشوه ويعيده إلى جيبه، ويفتح باكوات سجائر أمريكية ثم يهجرها بكاملها على مكتبه، حتى تثير الشكوك.

أفلت من جميع اختبارات الميول التى أجراها له أداتاتى كأنه ثعبان ماء. فعلى سؤال عما إذا كان يفضل المبراة فى مكتبه بالموسى أم بالمثقاب أجاب: "هى هى!". سألوه إذا كان يريد صحيفة بعينها على مكتبه فى الصباح أجاب بأنه كان يقرأها فى البيت، ولم يحدد الصحيفة. وما بين تقويم الشركة الموردة للزهور (اثنا عشر منظرا من المناظر الطبيعية فى أقليم بروفنسا) وتقويم الشركة الموردة للسجاد (اثنتا عشرة صورة لأشخاص فى وضع إغراء ملفوفين فى سجاد دمشقى) أمر بتعليقهما معا لأنه "من الممكن أن تأتى الشركتان معا هنا".

ولا حتى المكتب، الذى هو انعكاس للروح، لم يكن يبين مؤشرات حاسمة. لم يكن غير مرتب، ولكن كان من الصعب تحديد أى نظام هو الذى يحكمه. لم يكن هوسيًا ولا فئويا ولا هندسيا، لم يكن فيه تمجيد لأدوات الكتابة والطباعة، ولا لأجندات المواعيد، ولا هواجس رقابية تتجسد فى الممحاة ومزيل الأحبار، ولا سادية مفارم الأوراق والدباسات. والحميمية لا تترجم فى صورة شخبطات على الأوراق، ولا توجد أدوية ولا قطع الحلوى، ولم يكن يظهر بين الحين والآخر إلا بعض باستيليا عرق السوس، دائما ما تتغير ماركتها، تتلازم مع بحة خفيفة فى الصوت. لم تكن هناك صورة للزوجة والأولاد، وإنما مجموعة من عشرين

شخصا على خلفية جبلية، حيث كان يقف مبتسما بين امرأة وفتاة. كانت الصورة تبدو قديمة ولما سألته السكرتيرة عما عساها تمثله هذه الصورة أجاب: "رحلة". كان من الممكن أن يستنتج منها بعض الشغف بالجبال ولكن عندما وضع أداتاتى وراقة من الخشب على شكل معول الثلج المنتشر فى المناطق الجبلية ومكتوب عليها "تذكار من جبل كانازى"، ظهرت على مكتب المدير فى اليوم التالى قوقعة استوائية ضخمة. وفى اختبار النكات الذى أجراه الراوى الرسمى نائب المدير باراتا، ضحك يالينى بنفس طريقة الضحك على النكات العنصرية، والنكات الإنجليزية، والنكات السياسية الواهية، ونكات الأطفال، والإباحية. ضحكة طفل، قصيرة وماكرة، لواحد يريد أن يعود فورا إلى اللعب، أو بالأحرى إلى العمل. والنظرات التى يرمى بها مؤخرة فاندا لم تكن محايدة لدرجة استبعاد الاستمتاع الجمالى، ولكنها كانت من الصفاء بحيث تستبعد الشبق الذكورى. والعلاقات مع الموظفين كانت مطبوعة بالود الآلى. بعد شهر، وعلى سؤال حول ما إذا كان المدير الجديد ظريفا، أجاب الجميع فى المكتب بمجموعة من الكلمات التقريبية، مثل "ربما نعم وربما لا" و"أحيانا نعم وأحيانا لا"، ولكن إذا كان ولابد تحديد هذه الحالات لم يكن أحد يستطيع أن يذكر الحادث السعيد أو نوبة الفظاظة.

عندئذ تحول أداتاتى إلى الهجوم. حلل مزاج يالينى يوم الاثنين، واستبعد أن يكون يالينى من مشجعى أى فريق من الفرق المحلية،

فحاول أن يجرب مع ألوان العلم الوطني، فذات صباح أبدى للمدير أسفه على نتيجة مباراة ودية خاضها المنتخب الإيطالي:

– هل شاهدت مباراة الأمس؟ – قال له وهو يمرر له إحدى المعاملات.

– جزءا صغيرا منها – أجاب ياليني – لدى تليفزيون رديء التشغيل.

– لم تكن في المباراة ألعاب حلوة..

– ممكن، كان الخصم جيد التنظيم.

– دوناجو خيب أملي قليلا...

– دوناجو كان يرتدي رقم ثمانية، أليس كذلك؟

– نعم، يلعب في مركز جناح الوسط صانع الألعاب..

– حسنا، إن دوره من أصعب الأدوار.

– دوناجو يلعب في الانترناسيونال دائما في مركز الجناح، أنا أتابع الانترناسيونال غالبا، وأنت أي فريق تشجع؟

– أنا أشجع اللعبة الحلوة.

– وكذلك أنا طبعا...

– هل لابد أن أوقع هنا؟

– نعم، هناك، بالضبط.. شكرا...

– عفوا...

بعد هذا الحوار المستفز انتقل أداتاتى إلى التحقيق البوليسى الحقيقى. قدم رشوة لسكرتيرة من شئون العاملين وتسلم منها السيرة الذاتية للمدير. وكما كان يخشى لم يجد فيه شيئا له صفة الخصوصية. كان يالينى متزوجا ولديه ابن واحد، وعمل طوال حياته فى إدارة التشريفات مغيرا ثلاثة مقرات، وحصل على ترقياته كلها تلقائيا. وعندما تحدث مع زميل فى الإدارة السابقة ليالينى فى التليفون أجابه بأن لا أحد كان يعرف على وجه الدقة أفكاره السياسية، وأنه كان يعتبر "شخصا ممتازا، وربما كان مملا قليلا" ولم يتذكر حادثا واحدا أثار فيه تعليقا خاصا أو ثرثرة ونميمة.

كل هذا التحقيق الأهوج لم ينعكس إيجابيا على عمل أداتاتى. كان يعمل على مضض، متبعا الإجراءات الاعتيادية، محاولا أن يصل فى كل احتفال إلى النتيجة الأقل مخاطرة. وصل إلى درجة أنه استخدم دائما نفس السجاد، مائة وعشرين مترا، ونفس الزهور، الكاميليا. ولحسن حظه لم تشهد المدينة فى تلك الفترة أية احتفالات غير عادية، أو لم يلحظ أحد الإهمال فى خيارات أداتاتى. بالإضافة إلى أن بطلنا كان مكتئبا: منذ شهرين لم تكن لديه هواية، لم يعد يقرأ تقريبا، لم يكن يذهب إلى

الإستاد، ولا يتابع نتائج المباريات، وعلى مكتبه كانت تتكوم بغير نظام قواقع بحرية وشظايا من صخور، وصورة للزوجة، وتقاويم خبيثة، وعدد من الغليون والسيجار، وأقراص العرق سوس، وبرايات أقلام رصاص من أنواع مختلفة.

وذات يوم جرب توجيه ضربة يائسة، فتظاهر بإصابته بنوبة قرحة. ابيض وجهه بالفعل (كانت قدراته عالية جدا!) وأحنى رأسه على مكتبه، وتجشأ كأنه خنزير. وصل يالينى بعد أن لفتت نظره الجلبة.

- شيء فظيع، يداهمنى بين الحين والآخر. قال وهو يتنهد متأوها.

- أستطيع أن أفهم. قال يالينى.

عندئذ رفع أداتاتى رأسه بطاقة كبيرة حتى إن زميلا ظن أنها نوبة قيء وشيكة فسنده.

- حضرتك أيضا تعانى من القرحة؟ - سأله بصوت متهدج من الأمل.

- أنا؟ لا. ولكنه أحد أبناء العمومة البعيدة.

انهار أداتاتى على مكتبه. لأول مرة فى حياته المهنية كحرباء متلونة يضطر لإعلان هزيمته. ربما كان عليه أن يعاشر مديرا كان يحتقره فى سره، مع رجل كان يستطيع فى أية لحظة أن يخالفه، أو يتقزز منه أو يخيب أمله: كان من المستحيل أن يؤلف بينهما اتفاق وتوافق ولا أى

تكافل مطمئن. تجمد فى وحدة لا مثيل لها. تحول مكتبه إلى صحراء جرداء. لم يعد يدخن، ولا يضحك، وكان يجيب باقتضاب وبكلمات من مقطع واحد، وزاد امتعاضه من العمل. عزا زملاؤه هذا الاكتئاب فى البداية إلى حالته الصحية، إلى القرحة، ثم بدأت الشائعات تنتشر:

– أداتاتى على خلاف مع المدير..

– ولكن لماذا؟

– لا أحد يعرف، المدير على وفاق مع الجميع إلا هو، لا يحبان بعضهما البعض.

ولكن ذات يوم بينما كان أداتاتي يجر نفسه فى مكان تعذيبه بدا أن القدر قد أصبح رحيما بحالته. كان هو والمدير قد وصلا مبكرين عدة دقائق. وهكذا استطاع أداتاتي وهو يتلصص من الباب الموارب أن يلمح المدير وهو يقرأ بشغف كبير إحدى المجلات. كان مجلة متخصصة فى شئون الصيد !

هرول إلى الخارج، في الدقائق القليلة التى كانت متاحة له. وفى توقيت العمل الرسمى كان على مكتبه تشكيلة من الطعوم المقلدة وكتاب عن سمك السالمون.

وعندما مر يالينى أمامه نظر بفضول وقال:

– هذه طعوم السمك التروتة النهرى، أليس كذلك؟

- نعم - قال أداتاتي - حضرتك تفهم فيها؟

- أعرف عنها بعض الأشياء - أجاب ياليني بابتسامة.

عاد الأمل إلى قلب أداتاتي المتلون. أشترى معدات صيد كاملة، وعشرات الكتب، واستذكر بمثابرة ودأب. وفي خلال عطلة أسبوع واحدة كان قد عرف عن أسماك التروتة أكثر مما تعرفه وزاره الصيد والمياه الإقليمية.

وفي يوم الاثنين تقدم يتباهى بمذابح أسماك النهر، وهو يظهر سنانير من مقاس ١٦، ويقلد بحركات غامضة سمكة الشبوط وهي تفتح فمها على مصراعيه على فم شجرة الذرة الغادرة، وحصل على تحية كبيرة وهو يحكي عن غزو الأسماك السوفيتية-الناسفة للبحيرات الإيطالية.

في نفس هذه الظهيرة استدعاه ياليني. كان قلبه في حلقه عندما لاحظ أن المدير ينتظره وهو يمسك المجلة بين يديه.

- قالوا لي يا أداتاتي - استهل كلامه - إنك صياد ماهر.

- أبدا يا دكتور... إنها هواية بسيطة. ولكنك تعرف جيدا (ويغمز) أنها يمكن أن تتحول إلى مرض... أريد أن أقول إنه عندما ترمي السنار الفضية بالبوصة اللينة العاجية في الهواء نحو القاع البعيد حيث يختفي السمك الفارسي الملكي بقشوره البرونزية الرائعة...

– نعم، أفهم هذا، الهوايات جميعها جميلة، على أى حال، هل أنت مستعد للذهاب هذا السبت للصيد فى نهر البو؟

– آه يا دكتور – قال أداتاتى وقد وقفت غصة فى حلقه، ولم يستطع أن يقول أكثر من هذا. هما الاثنان والضباب يلف المكان، وهما يتبادلان الديدان بود لطيف. يا له من حلم!

– أعرف أننى أطلب منك معروفا كبيرا – تنهد يالينى – ولكن وصلنى هذا المنشور الإدارى من وزاره الداخلية يتعلق بمسابقة للصيد بين الموظفين. وكل إدارة ينبغى أن ترسل ممثلا لها، وأنا لا أفهم فى الصيد، وأقولها لك بصراحة إننى لم أصد سمكة فى حياتى، وأعتبر الصيد نشاطا... أريد أن أقول.. نشاطا..

– لا معنى له – قال أداتاتى بلوعة.

– ليس بالضبط، وإنما هو كذلك تقريبا... ولكن إذا كنت وأنت الخبير الهمام تريد أن تشارك وترفع رأس الإدارة عاليا...

– لا – قال أداتاتى – إن الصيد يزعجنى...

– ولكننى كنت أظن...

– لا.. الصيد يضايقنى – أكد أداتاتى وهو يكاد يبكى وخرج من المكتب أحدب كأنه سمكة شبوط.

لم يتكلم لمدة أسبوع. ولكن الله الرحيم رحمه، وذات صباح وصل فاكس قلب الموقف فجأة. يقول الفاكس:

"سوف يصل يوم ١٢ أبريل رئيس مجلس الوزراء لزيارة مدينتكم بمناسبة افتتاح المركز الرياضى لشباب عمال الصناعة. وقد عهد إليكم تنظيم حفل الاستقبال بالمطار بالكامل."

قفز أداتاتى عن مكتبه بشبق حيوانى فى عينيه. طفح الكيل، فكر، أيها الثعبان الملعون، يا قطرة الزئبق الخسيسة. لن تستطيع الإفلات من هذا الامتحان. طرق باب المدير ودخل بنوع من الحسم والحزم جعل المدير يقفز فوق مقعده.

– هل هناك شيء خطير يا أداتاتى؟

وضع أداتاتى الفاكس على مكتبه بكل همة.

– الأسبوع القادم يصل رئيس الوزراء. والآن كما تعرف سيادتك (يطلق كلماته كأنها طلقات رصاص) بينما هناك فى الاحتفالات الأخرى معايير قياسية، فحسب قواعد الإدارة عندنا فإن جميع القرارات المتعلقة بحفل استقبال زيارة من الدرجة الأولى، مثل هذه الزيارة بالتحديد، يجب أن تتخذ بتصريح من المدير، قرارا بقرار.

بدا أن يالينى لم يفقد هدوءه.

– ولكنى أثق بك يا أداتاتى... سوف تعرف بالتأكيد كيف تتصرف.

- لا! - كاد أداتاتى يصرخ - فى هذه الحالة لا أستطيع أن أتخذ قرارات بمفردى، لأنها تتطلب مخصصات إضافية على قانون التشريفات الصادر في يونيو عام ١٩٨٦، كما يجب مراعاة إجراءات الأمن للزيارات من الدرجة الأولى وهى إجراءات لا يعرفها أحد سواك. باختصار، فى جميع المرات السابقة لزيارة رئيس الوزراء كنت أتناقش فيها مع المدير دائما، وليس لدى فى هذا المجال أية خبرة فى الاختيار من نفسى.

- لا أفهم ماذا تعنى - قال يالينى بشرخ خفيف فى صوته.

- أعنى أننى سوف أخبرك بالإمكانيات المختلفة ولكن عليك أنت أن تختار.

- أليست هناك طريقة أخرى؟ - قال يالينى وهو يشعل سيجارة بالنعناع.

- كلا، لا توجد طريقة أخرى - قال أداتاتى وهو يشعل سيجارة بالنعناع.

- إذن فلتبدأ - قال يالينى وهو يتنهد.

قال أداتاتى وهو يراقب فريسته كالصقر:

- بادئ ذى بدء سجادة التشريفة التى تنزل من الطائرة هل تكون من الطراز الجديد أم القديم؟ والطول؟ هل يكون مائة أم مائة وخمسين أم مائة وثمانين؟ والأعمدة للكوردون الأحمر الذى تستند عليه الأيدى

خلال الثلاثين مترا الأولى أم على طول الطريق كله؟ هل نضع مظلة إضافية فى حالة سقوط المطر؟

– وما الذى تم عمله فى الزيارة الرئاسية السابقة؟

ابن حرام، فكر أداتاتى. ثم بدأ يسرد القائمة:

– سجاد فرساى أحمر، مائة وخمسون مترا، وكوردون فى الثلاثين مترا الأولى، لا مظلات، ولكنه كان شهر يوليو.

– ألا تعتقد أنه بوسعنا أن نفعل نفس الشىء؟

– يعتمد – يشدد أداتاتى على الحروف – على ما إذا كنت تعتقد أن الحفل لا يجب أن يكون أكثر ضخامة من الحفل السابق. أى لا تظهر أية فوارق. وكما تعرف فإن رئيس الوزراء متهم بأنه أعاد نفس سياسة النظام القديم بحذافيرها، وعدم وجود فرق هنا يمكن أن يفسر على أنه... أريد أن أصل إلى التعبير الصحيح... على أنه إبراز ساخر لهذه الاستمرارية.

– أفهم – قال يالينى – سوف نغير أى شىء صغير، ليس هذا هو الجزء المهم، واصل القائمة.

– بعد ذلك تأتى الطفلة التى تحمل الزهور التى تستقبل الرئيس على سلم الطائرة. لدينا ثلاثة احتمالات:

أ) طفلة من الشعب بزهور من الحقل معقودة على شكل سنبلة، وفى هذا استدعاء واضح لعالم العمال.

ب) طفلة رياضية، تلوح عليها على نحو مبهم سمات العسكرية، مع زهور بيضاء مضمومة على شكل شعلة.

ت) طفلة رائعة الجمال من بنات إحدى الشخصيات الكبيرة فى المدينة وتقدم أحد منتجات البلد مغلفة مثل الحلوى أو المسامير أو الرخام أو المسدسات أو غيرها.

وبالطبع فإن اختيار شخصية كبيرة بعينها يستبعد كثيرين غيره، ونفس الشىء فى اختيار المنتج المحلى...

- سوف نحل هذه المشكلة - قال يالينى وهو يشعل سيجارا- أكمل.

- حسنا، حسب مراسم الحفل فإن الرئيس بعد أن يقبل الطفلة مرة أو عدة مرات، على الأرض أو معلقة فى الهواء، يقدم نفسه أمام مجموعة من كبار مسئولى المدينة، وتشكيل هذه المجموعة من حسن الحظ لا يدخل ضمن اختصاصنا. فى هذه المرحلة تبدأ الفرقة الموسيقية العزف. وها هى الفرق الموسيقية المسجلة فى سجل التشريفات لحفلات الدرجة الأولى:

الفرقة العسكرية لقوات حرس الجمارك، تخصص مارشات

فرقة قوات الأمن، تخصص السلام الوطنى

فرقة القناصة، تخصص موسيقى الجالوب والنوبات

فرقة موسيقى الألب، تخصص الجوقة والأغانى عالية الشأن

فرقة الصليب الأحمر، تخصص مارشات فيردى وديكسى لاند.

فرقة جمعية معاقى الحرب، تخصص أناشيد الخندق

فرقة جمعية المناضلين، أناشيد النضال والناعمة

فرقة أورفانيللى، كل أنواع الموسيقى بما فى ذلك الموسيقى المميزة للقنوات التليفزيونية

فرقة الكونسرفاتوار، الافتتاحيات الكبرى.

تلا ذلك صمت طويل. فحص يالينى الزيارات الأخيرة لرؤساء الوزارة، النفقات والبيانات والإجراءات. قرأ قصاصات الصحف. راجع كتاب أطفال الزهور. ثم نهض وأخذ يسير ببطء حول المقعد، حتى إن أداتاتى لكى يتابعه اضطر لإدارة رأسه كأنه طائر البوم. أدرك لأول مرة أى قوة تنويم يمتلكها صوت يالينى المحايد غير الملون.

– منذ اللحظة الأولى التى رأيتك فيها فهمت أى نوع من الرجال أنت يا أداتاتى. أنت رجل يمكن وصفه بأنه ممن لا يحبون أن تكون لديهم أفكار شخصية..

- إلى حد ما..

- لا تخفى نفسك - واصل يالينى - إننى أعمل مديرا منذ عدة أعوام وأعرف كيف أتعرف على حقيقة الموظفين التابعين لى. منذ اللحظة الأولى حاولت أنت أن تعرف أى نوع من الرجال أكون أنا، ما هى ميولى، وحاولت أن تعجبنى، وأن تتوافق معى. هذا ليس عتابا، وأعرف أن هذا لا يتعلق بنفاق سوقى ، فطرق المنافقين مكشوفة أكثر من طرقك. أما سلوكك فهو مرتبط بالقضاء والقدر... بشىء تحمله بداخلك منذ الولادة... ونستطيع أن نسميه، واعذرنى للمصطلح، بغريزة القطيع.

- ولكننى لم أكن أريد...

- لا تعتذر، أعرف جيدا الجوع إلى الهدوء، الرغبة المشروعة فى عدم التصادم مع العالم، وأفهم لماذا تفضل على عالم الأفكار الشخصية الحاد عالم أفكار الآخرين المطاوع... أفكار تستلقى فوقها... وأنت لست الوحيد فى هذا البلد.

- نعم - هذا فقط هو ما نجح أداتاتى فى قوله.

- إذن فلتسمعنى جيدا - قال يالينى وقد انحنى برأسه فوقه بود مفاجئ، حتى أن صورتهما الجانبية تلامستا بحميمية محرجة، ربما أكثر مما كان يحلم به أداتاتى. - ومع هذا فقد ارتكبت خطأ باستخدام تقنية التوافق الخاصة بك معى.. لقد حاولت أن تكتشف أفكارى، وجن

جنونك تقريبا لأنك لم تضع يدك عليها، ولم تفكر فى الشىء البسيط جدا يا أداتاتى: وهو أننى مثلك.

فــرك أدتاتــى عينــيه.. وضـــع المدير يده على كتـفه وابتـسم له بطيبة قلب.

– أنا، بالضـبط، مـثلك، لا أريد أن تكون لـى أفكار، أريد أفكار من هم حولى. وبالتالى سوف ننهمك أنا وأنت فى العمل بحيث يخرج الحفل فى النهاية ولا أحد، أقول لا أحـد، يمكــن أن يعثـر فيه على نقيـصة، ولا يستطيع أحد أن يحدد أدنى إشارة لا إلى الازدراء ولا إلى التبجيل. سوف نستـقبل رئيس الوزراء ونكرمـه ونغطيه بـالزهور، ولكن فى اليوم التالى لن يستطيع أحد، أى أحد، أن يقول إن كان هذا أقل أو أكثر من اللازم. سوف نخدم هذا الرئيس مثل السابق ومثل من يأتى بعده، وأنت لديك الخبرة والموهبة، وأنا أيضا، وسوف ننجح.

لم يكن أداتاتى يعرف ماذا يقول. كان التوتر يذوب لديه على صورة رعشة صغيرة فى الساقين، وكان يعذب الفاكس بكدر بين يديه.

– لا تنفعل الآن – قال المدير بهدوء – فالانفعال يشبه الفكرة بشكل محزن، ألا تعتقد هذا؟ أحضر هنا الأوراق كلها. سوف نعمل طوال الليل إذا استدعى الأمر.

– وسوف ننجح – قال أداتاتى وهو ينهض حاسما أمره.

– نعم – قال المدير. وكأنه فقد الاتزان لبرهة عانق مرؤوسه. وظلا كذلك قليلا، دون حرج ودون سعادة، كأنهما يتبادلان الدعم المشترك، وكأنه إذا تحرك أحدهما سقط الآخر.

ثم انهمكا فى العمل.

١٤

الملك الأسود

دخل الملك الأسود الإسطبل. على وجهه الأبنوسى تلتمع عينان شرستان كانتا تثير الذعر فى الأعداء أثناء المعارك. تأمل الحصانين، الأبيض والأسود، الأصيلين رائعى الجمال. فحصهما بعناية ليقدر قيمتهما ثم عقد العزم وتحرك نحو الحصان الأبيض. ما هى إلا لحظات قصيرة حتى قضى الأمر، فقد اندفع الحصان على الملك الأسود بقفزة مزدوجة وأكله.

كان الملك قد نسى أنه ملك الشطرنج.

١٥

ملك الدلال

فندق جراند أوتيل، خمسة نجوم، طرقة الجناح الإمبراطورى. خادمان يرتديان سترة حمراء يتلصصان من خلال ثقب مفتاح الباب.

– هل يأكل؟

– حتى الآن يتشمم فقط...

– ما الانطباع الذى يعلو وجهه؟

– لا أراه، فهو يعطينى ظهره. ما يزال يتشمم...

– نأمل أن يأكله.

– يا إلهى!

– ماذا هناك؟

– هناك شىء غلط...

كان أعظم تينور فى العالم، مانريكو ديل بييترو، قد أبعد بتقزز البيض بالفطر الذى طهاه له طباخ جراند أوتيل بعد مشاورة تليفونية مع طباخه الخاص. كانت سيارة سريعة جدا قد جابت الريف المجاور للمدينة بحثا عن بيضة طازجة لدجاجة طائشة مضى على خروجها من مؤخرة أمها أقل من ساعة. فطر أبيض من نوع مونزونو تم تقطيعه شرائح صغيرة شفافة فوق البيض المطهى بطريقة عيون الثور. وعلى الطبق كله تم رش ست قطرات من الزيت من حوزة ديل بييترو. من التوتر أغشى على مساعد الطباخ. أخصائى الصلصات أوقف لمدة شهر لأن الفطر كان على وشك السقوط منه. عشاء العملاء تأخر لمدة نصف ساعة. وبعد كل هذا لا يزال ديل بييترو، المقدس المدلل المتقلب ذو النزوات الذى لا يمكن تقليده أو توقع سلوكه، لم يقرر أن يتذوق. كان يجلس ضخما صخريا على مقعد وثير، ملفوفا فى كيمونو أسود، وشعره حبيس شبكة ضبط الشعر وشواربه المصبوغة تلمع فى ضوء مصابيح الجناح.

كانت نظرته مصوبة على الستائر الكبيرة التى تغطى زجاج الغرفة، وبالتحديد على الركن الأيمن للستار الأوسط، حيث لاحظ ببصره الحاد جدا تماوجا طفيفا لا يكاد يدرك.

بحركة بطيئة وضع الفوطة السوداء المرصعة بالحروف الأولى المذهبة.

– آه، آه – صاح الخادمان وفرا كأنهما أسماك صغيرة فى مواجهة سمكة قرش. وضع أعظم تينور فى العالم يده الملكية على التليفون وطلب رقم مدير الفندق.

- أمرك - أجاب صوت مرعوب.

- أنا ديل بى-يت -رو - أنشـــد علـى لحن "لا- لا - سـى - دو - لا". من الجانب الآخر ران صمت قصير، ثم جلبة غريبة مضطربة. كان مدير الفندق يعانى من الضغط النفسى بسبب مكالمات المايسترو حتى إنه ينهار انهيارا خفيفا ويحتاج إلى من يعيد إليه وعيه.

- تفضل بطلبك يا مايسترو - لفظ بصوت خافت متهدج.

- الآن سأقول لك (لا-سى-فا-فا-رى).

بعد لحظة أصبح الفندق محاطا بخناقة التينور. فى كل غرفة من الغرف المائتين فى الفندق اندفع صوته كأنه عاصفة، واختبأ خدم الفندق فى المصاعد، والزبائن تحت الأسرة، والحمالون داخل الصناديق الكبيرة، وفى المطبخ تدحرجت الأوانى والطناجر، وجن جنون المايونيز، وارتعد الطباخون كأنهم هلام. كانت موجة ارتطام هذا الصوت الغضوب العنيف كبيرة.

- تسريب هواء! - كان المايسترو يصرخ - فى غرفتى تسريب هواء، إن صوتى يحتضر بين فكى نوافذكم الفتاكة! خيط هواء المدينة المسمم المتعفن يندس فى هذه اللحظة إلى غرفتى، ناثرا حبوب اللقاح والفيروسات لتنشب أنيابها فى حلقى. إننى أحس بأن صوتى شرخ بالفعل، كنت أظن أننى فى جراند أوتيل فإذا بى أجد نفسى فى خرابة متداعية، إنكم لا تستحقون خمسة نجوم، ولا حتى كويكبًا واحداً، سوف

أفضحكم، سوف أخرب بيوتكم، لابد أن أغنى الليلة "لا بيرنيس"، ولو فقدت صوتى فإن هذا الفندق سوف يدك دكا، وكلكم سوف تطردون شر طرد (هنا يأخذ نفسا ويستطرد بصوت أعلى نصف درجة). هل هذا هو الاحترام التى تكنونه للرجل الذى رفع اسم إيطاليا إلى عنان السماء فى كل أنحاء العالم؟ هل هذه هى الرعاية التى تليق بالحنجرة التى وصفتها "نيويورك تايمز" بأنها "صندوق مجوهرات أورفيوس"؟ هل أضطر أنا (نحيب) بعد هذه السنوات الطوال من العمل الشريف أن أعيش فى كوخ جليدى معرضا للرياح كأننى أى متسول شريد؟

– مايسترو، مايسترو – كان المدير يتضرع – اسمح لنا أن نعالج...

– أريد حالا – قال ديل بيترو بصوت هادر – أولا: فرقة من عمال الملاط وثانيا مهندسا أو فنيا يكشف على نظام تهوية الغرفة بالكامل! قلت وكررت أننى يجب أن أعيش فى درجة حرارة ثلاثة وعشرين وبالأمس ولمدة نصف ساعة تقريبا كان الترمومتر يسجل إحدى وعشرين درجة والآن أعرف السبب، ذلك التسريب فى الهواء، تلك الهاوية الموجودة فى النافذة، وماذا أقول فى القهوة التى تأخرت هذا الصباح دقيقتين، ولماذا اختفى كوب عصير المانجو ووجد كوبان من الباباى فى طاقم العصائر الاثنى عشر الخاص بى، ولماذا لم تقطعوا من صحيفة هذا الصباح الصفحة التى نشرت التحقيق المتحمس بشكل بغيض لحفل التينور المزعوم امبراساس، ولماذا كان الخف الخاص بى موضوعا عند

سريرى بشكل غير متوازٍ، حتى إننى اضطررت أن أباعد بين ساقى حتى ألبسه مع ما فى ذلك من خطر السقوط، ثم أخيرا لماذا بالأمس...
- صرخ التينور ثم قطع كلامه لكى ينظر إلى الساعة.

- قل، قل كل ما يعن لك يا مايسترو - قال المدير بلهجة متواضعة.

- ولماذا بالأمس... آه، كفى، أنا متعب! - اختتم ديل بييترو كلامه وقد أغلق سماعة التليفون. كانت نزواته، كما يعرف الكثيرون، كاسحة، ولكنها محكومة بخاصية معينة، فلم تكن تستمر أكثر من ثمانين ثانية، حتى لا يستهلك صوته. علاوة على هذا كان مزاج المايسترو يتحسن جدا ولعدة دقائق بعد كل نزوة. كان أحدهم يرى أن النزوات بالنسبة له إنما هى مثل كأس من النبيذ الجيد. ومن ذلك الذى لم يكن ليتنازل عن كأس من النبيذ الجيد لأعظم مغنى أوبرا فى العالم؟

"لم يتأخر المدير فى الوصول، ومعه فرقة من عمال الملاط ورجل يرتدى بزة رواد الفضاء.

- نحن آسفون جدا لما حدث يا مايسترو. أقدم لك البروفيسور مايولى، رئيس برنامج وكالة الفضاء الأمريكية ناسا لعزل كبسولات الفضاء. لقد التقطناه بالطائرة العمودية وحملناه إلى هنا فى زمن قياسى. وأتمنى أن هذا التصرف يمكن أن يغفر لنا...

- سوف نرى، سوف نرى - قال ديل بييترو بإيماءة فيها كبرياء - هيا ابدءوا العمل.

– إنه لشرف لى يا مايسترو – قال العالم – أننى سمعتك الشهر الماضى فى فرانكفورت فى أوبرا "توسكا" ويجب أن أقول...

– كانت أمسية أبدعت فيها – وافق التينور على كلامه – رغم أننى كنت عصبيا بعض الشىء.

– نما الحادث إلى علمى. كنت منزعجا من الطائرات التى تطير فوق الفندق.

– نعم، ولكن الوزير، فى تلك المناسبة، كان متفهما للغاية. فقد أوقف المطار لمدة ثلاث ساعات. صحيح أنه وقع حادث بسيط لطائرة تايوانية نفذ وقودها، ولكن ليس هناك فن عظيم دون تضحيات.

– يا مايسترو – ابتسم العالم – ينبغى أن أقول إنك سيادتك لست آخر الأصوات الأوبرالية العظيمة وحسب، وإنما أيضا واحد من أعظم المدللين .

– أستطيع أن أسمح لك بهذا – قال ديل بييترو – إننى أستطيع أن أفرض أى شىء على أى أحد، بينما لا يستطيع أى أحد أن يفرض أى شىء على. وهذا هو معنى أن تكون عظيما. والآن، إذا سمحت، سوف أذهب لكى أستحم.

دخل المايسترو الحمام، ذات البلاط الأسود، كما ينص العقد. كان ينتظره هنا سكرتيره الشخصى، الدكتور فيدورا، الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يتحمله، لما يتحلى به من خنوع وخضوع فريدين فى العالم.

- هل الحمام جاهز يا فيدورا؟ - سأل المايسترو، وهو يخلع الكيمونو ويظهر جسده القوى ، مائة وثلاثين كيلوجراما تنطوى على صندوق رنين واستدارة يضخمان الصوت، ربما كان كل شيء فيه مبالغا أكثر من اللازم، من عساها تلك المرأة التى تستطيع أن تقول للمايسترو: هل تريد أن تسحقنى؟ كان أقصى ما يمكن أن يفعلنه جميعهن هو التنهد ثم يهرعن إلى الطبيب لتجبيس الضلوع.

- درجة حراة الماء؟ - سأل ديل بييترو.

- ستة وثلاثون درجة مئوية - قال السكرتير.

- أملاح الحمام؟

- ديزير دامور برائحة الصندل، قارورة مرقمة، وقد مزجتها بعشر قطرات من عطر الكارى، وعشر قطرات من الاكليبتوس.

- عمق المياه؟

- ثمانون سنتيمترا.

- الإسفنجة؟

- من الساحل الأخضر بساردينيا.

- الإوز الصغيرات؟

- كما أمرت سيادتك، واحدة بيضاء والأخرى حمراء.

– بالمحرك؟

– فى الحقيقة – قال فيدورا – كان يبدو لى أن سيادتك طلبت الإوز القديم المصنوع من الخشب، من مجموعة تحف جويرنج.

– لا يا فيدورا. لقد قلت إوز "صغيرة". أى تلك المصنوعة من البلاستيك والتى تفتح منقارها، وتقول "كوا كوا" وتسبح حولك. أين هى؟

– لحسن الحظ هى لدى هنا فى الحقيبة يا مايسترو – قال السكرتير – ها هى: ماريزينا وتومازينا.

– ماريليزا وتيريزينا يا عبيط – قال التينور وهو يدخل الماء مثل عجل البحر. – هل تعرف أنك مهدد بالفصل؟

– نعم يا مايسترو. هل يمكننى أن أنصرف؟

– لا. أحتاج إلى من يغسل لى رأسى.

– هل أغسلها أنا يا مايسترو؟

– مستحيل، ولا حتى فى الأحلام، فأظافرك طويلة مثل أظافر السحرة. أريد حالا هنا الحلاق الشخصى.

– ولكن يا مايسترو... ربما يكون جوليان يعمل حاليا..

– أعرف هذا، ولكننى أريده. وكفى نقاشا ! – اقتلع ديل بييترو الكلام، وبضربة كف نثر بغضب الرغوة على فيدورا، والذى خرج وهو ينفض نفسه متجها نحو التليفون.

– سيدى المدير، أنا أتكلم من عند المايسترو.

– آه، يا لى من مسكين. ماذا هناك بعد؟

– يريد جوليان، حلاقه الشخصى. هل تستطيع أن تذهب لتلتقطه بهليوكوبتر الفندق؟

– يا إلهى، كم من الوقت لدى؟

– ليس أكثر من خمس عشرة دقيقة.

– وأين أجد جوليان هذا؟

– أعتقد أنه يقوم بتسريح شعر زوجة العمدة من أجل حفل الافتتاح هذا المساء.

– ولكن كيف أستطيع...

– انتزعه انتزاعا، واترك السيدة بالبوجوديه فى رأسها. أنت لا تعرف ماذا بمقدور المايسترو أن يفعل إذا عارضه أحد فى ليلة الافتتاح.

– سوف أحاول.

هوى فيدورا فوق مقعد. لم تكن سهلة حياته تلك. من الحمام عاد صوت التينور وهو يتبادل مقاطع من أوبرا بيرنيس مع حوارات مع الإوز.

– آه لو كان هادئا دائما هكذا! – قال بينه وبين نفسه.

– فيدورا – صرخ المايسترو وكأنه قد سمعه.

– تأمر بشىء؟

– تعال هنا حالا!

كان ديل بييترو فى الماء شاحبا، وشفتاه ممتقعتان وكان يحدق فى الماء كأنه يخفى تمساحا ضخما.

– هل تحتاج شيئا؟

– فيدورا، لقد أطلقت ضرطة منذ قليل..

– ومن ثم؟

– لم تظهر أية فقاعة هواء فوق الماء. لماذا؟ هل يبدو لك هذا طبيعيا؟

آخ، آخ، ها قد عدنا، فكر فيدورا، فأسوأ نزوات التينور هى التى تتعلق بوسواس المرض.

– ربما كانت مصابا بانسداد، انغلاق؟ ربما كنت الآن انتفخ كالمنطاد؟ أنت تعرف جيدا أن تصريف الغازات أساسى فى عملى، ألا تذكر عندما أطحت بنصف الجوقة فى نابوكو؟ إننى يجب أن أنفث الغاز، هذا ضرورى لعملية التنفس عندى، مثلما هو أساسى للحيتان والدلافين، اطلب طبيبى... بل لابد من شخص آخر أكثر كفاءة، خبير فى الطبيعة المائية، تصرف يا فيدورا، أو ألقى بك من النافذة...

– سوف أتصرف يا مايسترو.

أصبح ديل بييترو العظيم هادئا تماما بعد نحو الساعة، وذلك عقب محادثة دولية مع مركز أبحاث المحيطات بميامى، وبالتحديد مع أكبر خبراء العالم فى أمراض الأحياء المائية الدكتور ستاربوك. كان المايسترو يستمتع بلحظة استرخاء ما بين إوزة ورشفة من المياه المعدنية التى جلبوها خصيصا له من آبار الهيملايا عندما طرق الباب. شخص واحد فقط كان مسموحا له بالطرق على باب حمام المايسترو دون أن يصب عليه جام غضبه: مدير أعماله كابرونى.

ودخل كابرونى بالفعل وجلس بفخر على حافة الكنيف. كان هو الآخر مغنى أوبرا تينور، ولكنه أقل موهبة، رغم أنه يزن أكثر من المايسترو. كان يرتدى فراء ثعلب من سيبيريا طويلا حتى قدميه، وسرعان ما جعلته الحرارة والأبخرة فى الحمام يعرق كأنه نهر. سعل سعلة إحراج صغيرة ثم قال:

– اسمع يا مانريكو: منذ متى ونحن نعمل معا؟

وحدق فيه التينور العظيم مرتابا، كانت العبارة من العبارات التى يمهد بها لخبر سيئ.

– هات من الآخر يا كابرونى، هل حدث شىء مؤسف؟ لا لودوليتى. سوبرانو الفيلودراما هذه؟

– لا، لا، لا لودوليتى لا تسبب أية متاعب. فقد قبلت أن تخرج إلى واجهة المسرح فقط عقب التصفيق الخاص بها فقط.

– هل هو المخنث بلومنتال؟

– لا، لا، فقد تشرف بقيادة أعمالك، ثم إنه منذ ثلاثة أيام لم يؤد بروفات..

– من إذن؟ امبراساس؟ مرة أخرى؟ هل قال شيئا كريها فى إحدى مقابلاته الصحفية الحمقاء، هذا التينور القبيح الذى لا يصلح إلا للحانات الشعبية، ولكننى سوف أفضحه، سوف أخرب بيته، سوف أجعله يغنى فى الشوارع أنا...

– لا شىء من كل هذا – قال كابرونى وهو يفك أزرار الفراء – إنه شىء... شىء يتعلق بالرئيس..

– ألن يأتى؟ – صرخ المايسترو وهو يتقافز ويغرق تيريزينا – إنها سبة وإهانة !

– كلا كلا، سوف يأتى، اهدأ. بل إن المشكلة هى أنه سوف يحضر. وهى مشكلة بسيطة ونستطيع أن نحلها بسهولة.. إن الرئيس من أكبر عشاق الغناء الأوبرالى، وهو من أشد المعجبين بك. وأستطيع أن أقول إنه متعصب فى هذا، وأن تعرف أحوال المتعصبين...

– لا يطاقون! – تنهد المايسترو وغاص فى الماء حتى لم يبد منه سوى جزيرة كرشه.

– وبما أن الأمر يتعلق بالرئيس فمن الأسلم استخدام مصطلح "المدلل". لنقل إن من يملك كل شىء يمكنه أن يقوم ببعض نزوات الدلال بين الحين والآخر، وأنت تعرف هذا جيدا. أليس كذلك؟ ألست ملقبا بملك الدلال؟

– هكذا يقول المرتزقة من الكتاب من أنصار أمبراساس. أنا لدى تفضيلاتى الخاصة، هذا هو كل شىء.

– اتفقنا – قال كابرونى – لنقل أيضا إن الرئيس له شىء مفضل سرى. إنه رجل قوى جدا، وهو سيد البلد كلها، بإشارة من إصبعه الخنصر يقول للشىء كن أو لا تكن، ولكن له حلم لم يستطع تحقيقه أبدا، ونستطيع نحن أن نساعده.

– فسر أكثر.

– حلم الرئيس هو أن يطأ بقدمه خشبة مسرح الأوبرا. بل وبدقة شديدة أن يغنى إلى جوارك.

طال صدى صرخة المايسترو حتى اخترق الطوابق العشرين للفندق، واضطر فيدورا إلى أن يهرع إليهم جميعا لكى يطمئن العملاء أن الأمر لا يتعلق سوى بمناقشة عمل صغيرة. كانت تصل من الجناح أصوات تكسير زجاج وتطاير بورسلين. عندما بدا أن الإعصار قد هدأ

دخل فيدورا الجناح بحذر، وكان ديل بييترو يرتدى روب الحمام، وشعره منتصب غضبا وأيضا بسبب مجفف شعر جوليان. على الفراش كان هناك شيء يشبه الكلب الضخم المبلل، وكان هذا هو كابرونى الذى كان يدعك بيده عينا متعبة. مصابيح محطمة وطفايات سجائر وأناناس وأسطوانات ذهبية منثورة فى جميع الأنحاء. ولكن تفريغ المايسترو كان قد تجاوز بالفعل المرحلة الدقيقة، وتلك كانت الرعود الأخيرة التى تتباعد وتذوب أصواتها.

– إنها سبة وإهانة لعظمتى! لا أحد يستطيع أن يطلب منى مثل هذا الطلب، ولا حتى الرئيس. يكفينى عذابا أن أقاسم المسرح أصوات باص محشرجة، وباريتون مقطوعى النفس، وسوبرانو تموء. لا وألف لا!
– أكد المايسترو بينما كان جوليان يدلك عنقه برقة.

– ولكن قد يكفى... مجرد ظهور صغير، هذا هو كل شيء. للرئيس صوت باريتون لا بأس به: يستطيع مثلا أن يؤدى دور الكاهن.

– ولا حتى فى الأحلام. إنه دور طويل جدا.

– إذن فليلعب دور الطبيب، فهو لا يزيد على ثلاث جمل، عندما يبلغك بمرض بيرينيس "أرى شحوبها واضحا" وأنت ترد "أيها الرجل المحزن!"...

– إطلاقا! إنها لحظة درامية جوهرية.

– هو أيضا مستعد لأن يلعب دور القس، فى الفصل الثانى، ويغنى "ما قيل كان نفاقا".

– نفاق! هذا هو الوصف الصحيح لما تعرضه على الآن!

– لا مانع – فقد كابرونى صبره – إذن فسوف أقولها لك واضحة صريحة: فقد هدد وزير الثقافة أنك إذا رفضت فلن تغنى فى بلدنا بعد الآن أبدا. لن تجد من يكتب لك. والصحف سوف تكتب أنك تنشز يوما بعد يوم.

– الخارج موجود دائما.

– الرئيس له ذراع طويلة، ولديه صفقات فى العالم كله، ويستطيع أن يصل إلى كل مكان.

– لن أستسلم. أنا أعظم مغنٍ فى العالم، ونزواتى هى الأعظم فى العالم. كيف تريد منى أن أتنازل عن هذه العظمة.

– سوف يجعل امبراساس يغنى فى افتتاح بطولة كرة القدم.

– فليفعل، سيكون كرة من ضمن الكرات (ضحكة تينور).

سقط كابرونى على ركبتيه وهو ينتحب.

– افعلها من أجلى يا مانريكو، عندى ثلاثة أطفال وثلاث زوجات..

– يمكنه أن يقف فى الكواليس إذا أراد... – قال المايسترو وهو ينظر إليه بعدم اكتراث.

- لا، فهو يريد أن يظهر فوق خشبة المسرح.

- إن شعـــاري هــو: أستطيع أن أفرض أي شيء على أي واحد ولا يستطيع أحد أن يفرض على شيئا. أقولها وأؤكدها وأبرهن عليها.

- إذن فلتستعد لما هو أسوأ. لقد هبط أناتولي أمبراساس في المطار منذ ساعة. وأخشى أن يأمره الرئيس هذا المساء نكاية فيك...

- أما هذا فلا ! لا يأخذ مكاني أبدا! هذا ما لا أستطيع أن أسمح به!

زرع الحجرة طولا وعرضا كأنه ثور، يتبعه مجفف شعر جوليان. ثم قال:

- أبلغ الرئيس أنه يمكنه أن يدخل المســرح مــعي: ولكن دون أن يغني. كل ما أستطيع أن أعطيه إياه هو دور كومبارس.

انتفض كابروني واقفا وهرول نحو التليفون. أصبح صوتا ناعما، وأمكن إحصاء كلمتي "معك حق" مائتين وست عشرة مرة، بينما كان يتفاوض مع الرئيس. وفي النهاية أعلن بفرحة:

- لقد قبل!

- حسنا، ولكن ماذا سيفعل في العرض؟ جندي؟ فارس في حفلة رقص؟ أحد الرهبان؟

- لم يقرر بعد- قال كابروني بصوت منخفض.

اقترب منه فيدورا يتظاهر بمشاركته فى المؤامرة:

- كانت خدعة مسألة امبراساس هذه، أليس كذلك؟

- صه - قال كابرونى وهو يضم الفراء حول جسمه - عندما تكون اللعبة بهذه الضخامة فكل ضربة فيها مباحة.

وعلى هذا فقد انتشرت فى افتتاح أوبرا لا بيرنيس بين الجمهور المنتقى شائعة أنها سوف تشهد "مفاجأة". كان الرئيس فى الشرفة الملكية، وقد لاح عليه جو الفوتومونتاج المعتاد، وكانت السيدة الأولى تستعرض تسريحتها التى تشبه رأس الخرشوف المجعد. وكانت النساء الجميلات يثرثرن حول تسريحة زوجة العمدة الفظيعة، وأقطاب النظام يفحصون من خلال الشرفات التى خصصت لهم الحاضرين ومن لا يزال له شأن منهم ومن راحت عليه. وكان الجلوس فى البلكون الكبير يقذفون بالبصاق وقشر الفستق على الصالة شديدة الاستسلام التى تظاهرت بأن شيئا لا يحدث، وشبان من النشطاء يرمون بمنشورات تدين تأنث المسرحية الموسيقية وتشجع على غزو انجادينا. حتى دخل المايسترو بلومنثال بمهابة، فهتفوا ضده "ابعد أيها اليهودى!" ولكنه كان معزولا فأعطى شارة البدء لأوبرا بيرنيس.

منذ المشهد الأول "مشهد الاستئذان" كان ديل بييترو يبدو عصبيا جدا. تقدم بين الجوقة التى كانت تغنى "يا معارك القلب يا أقسى المعارك"، ويحدق من تحت قبعته خوفا من أن يرى وجه الرئيس يظهر.

ولكن الرئيس كان هناك فى الشرفة، وغنى ديل بييترو "وداعا لمحطات السفر!" بتفوقه المعتاد. حقق الفصل الأول نصرا مؤزرا، وكذلك الثانى رغم حركة مكر من بيرنيس التى تلعب دورها لادوليتى التى حاولت أن تتقدم إلى الأمام فى دويتو الحب، وهى الحركة التى رد عليها المايسترو برقصة عنيفة على كعب القدم تركت المسكينة متقطعة الأنفاس فى وسط الخاتمة الحادة.

وما بين الفصلين الثانى والثالث نفذ التينور العظيم نزوته المألوفة. كان يريد مشروبا مثلجا من الجرنبى وهو نوع من الأعشاب تنمو فى جبال الألب، وحتى يتم العثور عليه تم تجنيد سكان الألب، لأن كابرونى أعطى أوامره بإطاعته حتى ولو طلب لبن العصفور.

وهكذا وصلنا إلى الفصل الأخير. ترقد بيرينيس المسكينة فى فراشها. انتظرت ثلاثة أيام وثلاث ليال فى الشارع تحت الجليد حتى يفتح لها إدجاردو، أى ديل بييترو، الباب. وبعد هذا أصيبت بالالتهاب الرئوى. طردها إدجاردو؛ لأنه ظن أنه رآها تقتل أخاه إرمانو فى منازلة، ولكنه يجهل أن الذى قتل أخاه هو الشقيق التوأم لبيرنيس، الملازم بيرينجارو الذى لبس ملابس النساء حتى يستطيع الخروج من المعسكر ومنازلته. فى منتصف الفصل يتضح كل شىء فى "رباعية اللبس" الشهيرة، وهكذا نصل إلى النهاية المفجعة، دويتو الحب والموت. يدخل إدجاردو إلى غرفة نوم بيرينيس يطلب منها الصفح. يراها شاحبة

انسحب دمها فتنقطع أنفاسه، ندما، ولأنه لاحظ فى الشرفة الملكية أن الرئيس لم يعد فيها.

وهكذا غنى "مخطئ يتضرع إليك". الصوت ثابت أما المايسترو فلا. بدأ يقطع المسرح طولا وعرضا. يتفقد وجه الطبيب، ينظر من تحت خمر النساء اللاتى يرتدين ملابس الحداد، ويفحص الأقارب واحدا واحدا، يجرى للتفتيش على رئيس الخدم فى الخلفية. انقسم الجمهور والنقاد. بعضهم افتقد الوقفة الراسخة المألوفة للتينور. والآخرون على العكس وافقوه على هذا الإبداع التمثيلى العبقرى: فالألم دفع إدجاردو إلى الجنون، وهو لا يجد سلاما، فيتصرف كالمحموم، حتى يصل به الأمر إلى أن ينظر تحت السرير. يمضى الأمر على هذا النحو حتى ينصرف الجميع ويبقى هو وحده مع بيرينيس: على وجهه تعبير توتر متألم (أين هو؟هل تراجع؟). نحن الآن فى الخاتمة: إدجاردو يأخذ بيرينيس التى تحتضر بين ذراعيه، ويحملها نحو الجمهور ويغنى اللحن الذى لا ينسى "كانت فى غاية النقاء".

أما الذى شاهده الجمهور فكان حقا لا ينسى. التينور الذى يتقدم نحو الفراش، ويرفع بين يديه بيرينيس، وفى هذه اللحظة يراه يبتسم له، إنه الرئيس وقد وضع باروكة صفراء وعملوا له ماكياجا فاضحا. وبينما هو بين ذراعى ديل بييترو يقوم الرئيس بتحية الجمهور-الذى يتعرف عليه فيصفق له بحماس، فيقلد موت بيرينيس بانفعالات تهريجية تنسى الناس

صوت التينور العظيم: وعندما يسدل الستار ينفجر الجمهور فى التشجيع الحماسى.

ويصرخ باسم لم يكن اسم ديل بييترو.

وينفتح الستار من جديد وها هما يدا بيد، الرئيس يبكى منفعلا، ويوزع القبلات، فيغرقوه بالزهور، بينما يقف إلى جواره التينور العظيم معتم الوجه منحنيا، وقد ساح ماكياجه ليتحول إلى قناع مأساوى. ينحنى ولكن الجمهور يتجاهله ويواصل قذف بطلته بيرينيس بالزهور. سبع مرات يعودان معا إلى واجهة المسرح ويهان التينور، وفى النداء الثامن يخرج الرئيس وحده وينهار المسرح من التصفيق.

فى غرفته الصغيرة يخرج مانريكو ديل بييترو سيفا من سيوف المحاربين فى الفصل الأول ويغرزه فى بطنه.

كان السيف من الكاوتشوك.

١٦

ريكس وتيرا

عندما نكون شبانا وعشاقا نكون متعجلين. كان ريكس يقطع فى قفزات واسعة الوادى الصخرى الذى يقع فى آخره منزل تيرا. عندما التفت وراءه رأى آثار أقدامه تضيع كلما بعدت المسافة. آه، نعم، لقد عملت السكة قياسا! لماذا اخترت لنفسك خطيبة من الجبل؟ كان أبوه قد قال له، ألم تكن هناك فتيات هنا فى السفح يصلحن؟ ولكن تيرا كان فيها شيء ما لم يكن فى الأخريات. طريقتها فى النظر، وإغلاق نصف عينيها. ثم أسنانها، البيضاء، المتألقة. نعم، كان تيرا أجمل صغيرة قابلها فى حياته. كان مما يستحق العناء الركض الطويل من أجل مقابلتها. ثم أن ركس كان تيرانوسورس[٣] شابا فتيا، ولم تكن تخيفه كمية الصخور مهما بلغت.

---

(٣) من أنواع الديناصورات، والشخصيات كلها فى هذه القصة من أنواع الديناصورات المختلفة، ولها أسماء لاتينية، ولكن ليس لها أسماء عربية للأسف، ولذا فسوف نوردها كما جاءت فى النص الأصلى.

مر بالقرب من بركة ماء. كان هناك أربعة ديناصورات من نوع توب الآكل للأعشاب، وكانوا مدرعين حتى الثمالة، وبطونهم منتفخة، وكانوا يستحمون بكسل فى الماء.

– إلى أين أنت ذاهب يا ريكس؟ – قال أحدهم متجهما.

– انظروا إليه – قال آخر – إن رأسه من الضخامة حتى أنه لو توقف فسوف تسقط منه إلى الأمام.

– الجميل هو أنت أيها القواد – قال ريكس دون أن يتوقف عن الركض.

– إيه، ماذا تفعل فى حيِّنا؟ صرخ توب شاب بمنقاره الحاد، وهو ليس سيئا فى جنسه – ألا تعرف أننا لا نريد هنا آكلى لحوم؟

لم يرد ريكس. الأفضل عدم الانسياق للاستثارة. صحيح أن هذا النوع من الديناصورات ثلاثى القرون بطىء الحركة، ولكن إذا أحاط بك منهم ستة أو سبعة يصبحون خطرين. والحقيقة أن هذه المنطقة كانت منطقتهم. اجتاز جزءا كبيرا من المرتفع الذى يؤدى به إلى تيرا. وصل أمام مغارة كبيرة، فى حائط الجبل البارز. أخذ نفسا ثم نادى.

– إيه، أيتها الصغيرة...

– خرجت تيرا ببطء من المغارة. كانت أكثر جمالا مما كان يتذكرها عليه. كانت قد استحمت، وكان شعرها الداكن يلمع تحت الشمس. ابتسمت مفصحة عن أسنانها الرائعة.

- أهلا يا ريكس. سوف نصعد للأعلى إذن؟

- لقد وعدتك بهذا. قمة فوهة البركان تنتظرنا.

- دعنا لا نضيع وقتا. فقد خرج أبى للصيد ولكنه قد يعود مبكرا، وهو عندما يعود يكون دائما غاضبا.

سارا جنبا إلى جنب، وكتل من الصخور تتدحرج أمامهما فى المنحدر.

- انظر - قالت تيرا - إن الأب لا يريد أن يقتنع أنه قد أصبح عجوزا. إن كل شىء يهرب منه حتى البرادوصورات الصغيرة. منذ يومين حاول أن يهاجم برونتوصور، ولم يكد يمسكه من ريشه حتى تلقى ضربة من ذيله فى وجهه ما تزال لها علامة عليه حتى الآن. وهو عندما يعود إلى البيت بدون فريسة يتشاجر مع أمى.

- أبى أيضا يتشاجر كثيرا - قال ريكس - ولكن لحسن الحظ ما يزال قادرا على اقتناص بعض الفرائس. وللأسف، فهو ما إن يبدأ فى سرد نوادره فى مغامرات الصيد القديمة لا يتوقف أبدا. فمثلا يقول: أين أيام زمان؟! أيام كانت هناك فرائس حقيقية؟! وحكاية تمكنه من قنص الديناصور المجنح على الطائر سمعتها عشرين مرة.

- قبيح أن يرد المرء إلى أرذل العمر - تنهدت تيرا.

- بالفعل - قال ريكس، وبحافره الخلفى القصير حاول أن يطوق ظهرها ولكن تيرا أفلتت للأمام برشاقة وهى تضحك.

كانا قد وصلا إلى منعطفات فوهة البركان. كان الأرض داكنة وساخنة أكثر. قابلا أسطغورين ضخمين يتبادلان ضربات الذيل الحاد كنوع من التمرين.

- أهلا يا ستيف، أهلا يا جريج - ألقت تيرا بالتحية.

- ماذا أيتها الجميلة؟ هل تصعدين إلى فوهة البركان؟ - قال ستيف.

- حاذرى ألا تلسعى نفسك - قال جريج وهو يغمز بعينه.

- لا أعرف ماذا تجدين فى هذين الشخصين - غمغم ريكس وقد أحس بالضيق قليلا - إنهما تافهان. يمضغان طيلة اليوم. ولهما رأس صغيرة جدا. ولحمهما قاسى ملىء بالأشواك.

- إنهما شابان شاطران - قالت تيرا - ربما تريد أن تتشاجر معى بدافع الغيرة...

بدءا يتسلقان حائط فوهة البركان. لم يكن شديد الوعورة، ولكن ثقلهما كان يجعل الأرض تتشقق. قام ريكس بدفع تيرا من الخلف بشدقه. تظاهرت هى بأنها غضبت. وفى النهاية وصلا إلى القمة. من داخل الفوهة كان تتصاعد أعمدة الدخان ورائحة لاذعة. كان الهواء رماديا ومتأججا.

– أحب أن آتى إلى هنا، ولكننى لا زلت خائفة – قالت تيرا – كان جدى يحكى لى دائما أنه عندما فتح الحجر الأكبر الطائر هذا الثقب مات الكثير منا.

– جدى أيضا كان يحكى هذا – قال ريكس وهو يقترب – ثم أعطانى نصيحة ثمينة.

– وما هى؟ سألت تيرا وهى تستند عليه.

– قال: انظر يا ريكس الصغير، ذات يوم سوف يسقط حجر أكبر من السماء على هذا الوادى، ويحدث فوهة ضخمة تمتد من الجبال حتى البحيرة. وتصبح السماء حارقة مثل يوم الحجر الأكبر. هل تعرفين ما النصيحة التى أسداها لى؟

– أنا متشوقة لأن أعرف – زقزقت تيرا.

– قال لى: اسمع يا ريكس، إذا وجدت نفسك ذات يوم وحدك مع صغيرة جميلة، وجاءتك الرغبة فى تقبيلها، لا تتردد، لأنه بين اللحظة والأخرى يمكن أن يسقط الحجر الأكبر.

– وإذا كانت هى لا تريد؟ – ضحكت تيرا.

– قل لها: فكرى فى قدر التعاسة يا صغيرتى إذا سقط الحجر الأكبر الآن بالتحديد، فلن تعرفى أبدا ماذا تعنى القبلة؟

– ومن قال لك إنها لا تعرف؟

أضاء السماء نور أصفر. أشار لها نحو السماء بابتسامة.

– انظرى، إنها إشارة. هل تريدين أن تضيعى هذه الفرصة؟

– لا أعتقد – قالت هى. تطلب الأمر بعض الوقت لأن قبلة بين ديناصورين ضخمين ليست شيئا هينا. ولكنهما بعد أن سويا حوافرهما، واتحد ثغراهما، بدا لهما أن الأرض ترتجف، وأن ريحا ساخنة تصعد إليهما من الأرض.

– يا لهول هذه القبلة – فكر وهو ينظر إلى الرمال التى تضطرب والشقوق التى تنفتح فى الأرض.

– أوه يا ريكس – تنهدت وهى تواصل تقبيله. حتى لو أرادا أن يتوقفا لم يكونا يستطيعان لأنهما تعشقا جيدا. وهكذا، والفم فى الفم، والعيون مغلقة، لم يريا الحجر الأصفر الضخم الذى كان يزداد حجمه فوقهما فى السماء. سمعا ضوضاء آلاف الحوافر التى تركض، والصخور التى تتفتت، ولكن لم يكن يعنيهما كثيرا ما يحدث.

عندما نكون شبابا، فإن الحياة تكون بأكملها أمامنا.

١٧

عمارة العجائب الجديدة

مر الرجل لكى يأخذه فى الساعة التاسعة تماما، على متن الليموزين الطويلة السوداء كأنها مركب على شكل حرف U. قفز إلى خارج السيارة متظاهرا بالرشاقة. كان وزنه يزيد على المائة كيلوجرام وحليق الرأس تمامًا وحلق على شكل الصليب يتأرجح من أذنه. كان يرتدى السترة الزرقاء التى يرتديها رجال الترفيه الحكومى ونظارات من نوع باربى.

- حضرتك السيد باتشينى، ملك الحلمات؟ - بدأ يقول.

- نعم، هو أنا، ولكننى...

- حضرتك صاحب أجمل بقرات فى البلد تحلب يوميا ملايين اللترات من الحليب الذى ينتهى فى الكابوتشينو الذى يشربه رؤسائى حتى يبدءوا نهارهم وهم أقل عصبية؟

- نعم، حتى إن كان العقد، فى الحقيقة، لم يوقع بعد - قال باتشينى بخجل، وكان رجلا قصير القامة متغضنا، بأنف كبير كأنوف الملاكمين، ومعطف مطر متجعد وحقيبة يد بريشة صغيرة.

- حسنا، أنا الدكتور إسكارو، إن إم، نايت مان، رجل ليل مرخص لحكومتنا وأؤكد لسيادتك أنك بعد الذى سوف أريك إياه، سوف توقع لى شيكات على بياض - وهوى بأصابعه على عنق باتشينى. - إننى أمزح بالطبع، يا عزيزى راعى البقر. هل أستطيع أن أناديك بهذا اللقب؟

- من يدرى إن كنت تمزح فعلا - فكر باتشينى، وهو يركب السيارة. أوصوه بأن يحترس من رجال الليل. إنهم على استعداد لفعل أى شىء، بما فى ذلك اقتناص الصفقات. تريد الحكومة الحليب منه، كله وبأدنى سعر، لن يكون التفاوض سهلا، ولكنه سوف يحاول، فهو راعى بقر عنيد.

- ألم تسمع أحدا يتحدث عن عمارة العجائب الجديدة؟ - قال إسكارو، وهو يمضغ علكة من الصناعة المحلية ويقود باستخدام طلقات سريعة متكررة للكلاكس.

- نعم، يبدو لى أننى رأيت شيئا ما فى التليفزيون.

- حسنا، إلى هناك سوف نذهب. إننى لا أحمل إلى هناك سوى الزبائن المهمين مثل حضرتك - ابتسم إسكارو - سيجارة؟ قرص نعناع؟ علكة محلية؟ شمة كوكايين؟

- لا، شكرا.

- متربى، هاه؟ من البيت إلى الزريبة إلى العائلة فقط. هيا يا راعى البقر، ابتسم لى. سوف نقوم بمجون معا هذه الليلة، - وغمز بعينه مرتين.

ابتسم باتشينى بأدب. كان قد قبل من باب الفضول برنامج "الساعة التاسعة، جولة ليلية مع مرافق". لم يعد بوسعه أن يتراجع بعد. كان عليه أن يظهر بمظهر الرجل المنفتح على العالم.

- حسنا يا باتشينى، قالوا لى إنك تنتج أفضل حليب فى البلد. وإن شركتك هى ملاذنا نحن الوطنيين جميعا.

- عندى ألفا بقرة، من أربعة أجناس مختلفة، وبهذه الطريقة أستطيع أن أخلط النوعيات، والدهون، والمحتوى البروتينى. ثم بعد ذلك توجد البسترة بطبيعة الحال.

- أعرف هذا، أعرف هذا. ثمانون ألف لتر من الحليب يوميا: إنتاج جميل. ولكن قل لى، ما حكاية بقرات جواستاللا؟

تظاهر باتشينى بالهدوء. كان يعرف أن الحكومة كانت لديها وسائل أكثر إقناعا من رجل الترفيه الثرثار هذا.

- شىء غامض حقا - قال باتشينى - تسمم فى العشب.

- قرأت عن هذا بالفعل فى الصحف. ستمائة بقرة، فى المساء فى منتهى النشاط والحيوية، وفى صباح اليوم التالى، هوب، ماتت دون سابق إنذار، وسط بحر من الإسهال. عملية قبيحة.

- نعم، المالك كان صديقى. صفقة قبيحة.

- ولكننا هنا لكى نتحدث عن الصفقات الجيدة، وقبل هذا لكى نستمتع - قال إسكارو. - هل تعرف نكتة الثور الشاذ جنسيا؟

كان باتشينى يعرفها ولكنه تركه يرويها مرة أخرى، ومع هذا ضحك. إن إسكارو هذا يعرف دون شك كيف يروى النكتة، فهو يحييها ويمثلها. كان هذا هو عمله فى نهاية الأمر.

صفر إسكارو وصرخ بكلمتين قبيحتين على شقراء تركب دراجة نارية بكل سرعتها أسفل جسر يقسم نصف المدينة الذى يذهب إلى اللهو عن ذلك الذى يذهب لينام. كان راديو السيارة يذيع مقطوعة موسيقية تكنولوجية حزينة منومة على الطريقة اليابانية، بينما كانت تظهر فجأة من فوق الجسر، الذى يغلب عليه مشهد من أضواء النيون، مطاعم معلقة ومليارات من السيارات المتراصة فى طابور.

- هاك هو الحى الجديد الذى يحسدنا العالم كله عنه. بخلاف سوهو وبيجال وسان باولى والشارع الثانى والأربعين! لقد أراد الرئيس أن يبنى لرعاياه حيا متفجرا: كاليجولا الثانى. هل تعرف أننا هذا العام

جاءنا ستة ملايين سائح؟ ألف خنزير وخنزير يبعثون على الخوف. هل جئته أبدا يا راعى البقر؟

- لا. أنا لا آتى كثيرا إلى العاصمة الجديدة...

- سوف تعجبك، - ابتسم إسكارو ابتسامة عريضة - إنها تعجب الجميع.

أصبح الآن يتقدم ببطء على طول شارع الأكويستى، حتى يستطيع باتشينى أن يستمتع برؤية الإشارات، والبضائع فى المحلات، واللافتات المضيئة بصور زفاف ابن الرئيس بعارضة الأزياء الروسية الشهيرة.

- إن حى كاليجولا الثانى مستوحى من أحياء الرذيلة اليابانية، وبخاصة كابوتشى- شو بطوكيو. لقد كانوا دائما يقلدوننا، ولكن هذه المرة جاء الدور علينا لنقلدهم. بل إننا تجاوزناهم. فليس لديهم شىء مثل عمارة العجائب الجديدة. لقد جعلناهم يصفرون حسدا - قالها بضحكة عالية وهو يبصق الخليط الذى كان يمضغه من نافذة السيارة.

- وهل نحن ذاهبون إلى العمارة؟ - سأل باتشينى.

- يقينا مثل الرب، - أكد إسكارو. - إنه ليس مكانا للعامة، وإنما تلزم بطاقة دخول خاصة. و... ذوق رفيع قبل هذا. لقد قال لى وزير الإفطار إنك سوف تعامل كضيف كبير.

- إنه رجل طيب أكثر من اللزوم - قال باتشينى.

- لا أتذكر كم عدد الأبقار فى مزرعتك يا راعى البقر...

- نحو ألفين.

- حسنا، هنا فى كاليجولا الثانى يوجد الضعف على الأقل. لا أدرى ما إذا كنت قد أوضحت قصدى - نزع النظارة البنفسجية، ورف بحاجبه، وأطلق لسانه. حاول باتشينى جاهدا أن يضحك. كان يشعر بمزيج من الإثارة والخوف، ولكنه كان يخفى هذا الإحساس: لم يكن يريد أن يبدو قرويا. توقفت الليموزين أمام محل للشرطة. لافتة كبيرة فوقهما كانت تصور ثعبانا يمسك بين فكيه فتاة مبتذلة الثياب. بينما كان الأضواء الوامضة باللونين الأحمر والأصفر تجرى على جانب الشارع. أطلع إسكارو الشرطيين على البطاقة الخاصة، وواصلا حتى ظهر القصر، وكان عبارة عن ناطحة سحاب ضخمة أسطوانية الشكل. على طول جدرانه كانت هناك مصاعد شفافة تصعد وهى تعج بالحشود. كان كل طابق مضاء بلون مختلف. وفى أعلاه كان يدور المطعم الكبير الهرمى الشكل الذى كان يغمد فى السماء شعاع ليزر طويلا. كان هناك عدد قليل من رجال الشرطة، فقد تولى رجال المافيا من عصابة تاتارو حفظ الأمن، وكانوا يديرون نصف الحى. كانوا جميعا يرتدون بزات كاملة أنيقة من الجلد ونظارات سوداء، وقلب صغير فوسفورى فى عروة السترة.

كان هناك رجلان، ضخمان ومجاملان، فى المدخل رقم واحد المخصص لكبار الشخصيات. استلما السيارة وصاحبا إسكارو

وباتشينى حتى الداخل. كانت بهو العمارة يشبه صالة المستشفى أكثر من استقبال سدوم[٤]: طاولة طويلة جدا مثل طاولات المطارات، ومضيفات باسمات بالكيمونو الأبيض، ولوحات ولافتات للممولين فى جميع الأنحاء. كانت هناك رائحة قوية للمطهرات. فى أحد الأركان بار له صالونات خصوصية معزولة، وفى كل مكان توجد آرائك حيث كان الأفراد أو المجموعات الصغيرة يطالعون دليل القصر.

وبتعبير من تعود على الأمر توجه إسكارو إلى إحدى نقاط المراجعة، وهو يلوح بالبطاقة، وأعطى إشارة لباتشينى أن يتبعه عبر الباب الدوار. تدحرج باتشينى وقد تعلقت أنفاسه متوقعا أن يرى خلف هذا الباب شيطانات صغيرات لا يرتدين إلا الأربطة، ومن يدرى ربما كان هناك ما هو أكثر. ولكن خاب ظنه كثيرا لأنه وجد نفسه فى غرفة غير مميزة، ترقد فى الموكيت الأبيض. دعته خادمة شقراء، برداء مثير له طابع زى التمريض، إلى الجلوس ووضعت فى يد إسكارو ما بدا أنه قائمة طعام. ودس لها إسكارو ورقة بنكنوت فى فتحة صدر الفستان. شكرت الفتاة بانحناءة صغيرة. وحمل إليهما شاب ملون مشروبين بلون الفوشيا.

طالع إسكارو القائمة باهتمام.

(٤) مدينة فلسطينية كان قوم لوط يسكنونها وأصبحت رمزا للواط.

- ليس هناك شيء مختلف عن المعتاد - أصدر حكمه فى النهاية - والآن يا عزيزى باتشينى، حتى لــو كنا لم نتعارف إلا منذ وقت قصير فلا بد أن نرسخ فيما بيننا.. الثقة، زمالة رجالية صحية، لأننا كما تعرف لسنا ذاهبين إلى لقاء أعمال وصفقات، وإنما نحن ذاهبون لنستمتع.

- لكى نستمتع - ردد باتشينى بابتسامة مطيعة.

- ولهذا إذا كانت لديك رغبات مفضلة فيجب أن تقولها لى على الفور.

- رغبات بأى معنى؟

- هيا يا راعى البقر! لا تتخابث، هل لديك شيء خاص يعجبك مع أى مخلوق من أى جنس، بأى وضع وبأية أداة مساعدة فى أية فتحة بأى خيار قذارة إضافى جربته أو حلمت به؟

- فهمت ماذا تعنى - قال باتشينى وهو يبتلع قطرتين من المشروب الفوشيا - ولكننا فى منطقتنا لا نجرب كثيرا... إجمالا تعجبنا النساء ولكننا لا نجدد... أنت الخبير وأنت الذى من المفروض أن تقترح على..

- فهمت - قال إسكارو مانحا إياه ابتسامة عطف أبوية - لقد رأيت الكثيرين مثلك ، يبدءون بخجل ثم يسخنون شيئا فشيئا ما إن يصعدوا الطوابق طابقا طابقا، حتى ينتهى بهم الأمر بالإتيان بما لا يخطر على بال بشر.

- آه، يا إلهى، لا - تنهد باتشينى.

- كان مجرد مثال. ولكن لننظر قليلا ماذا تقدم القائمة لصحبة رجل مهوس سليم مثلك. قبل كل شىء سوف أفوت الطوابق الثلاثة الأولى. إنها ثلاثة مواخير عادية، قليلا من الجنس العادى والشذوذ والمختلط، وربما كان هناك بعض الأعضاء كبيرة الحجم كبرا شديدا، أو نهود فائقة الضخامة، ولكنها فى الإجمال أشياء عادية مألوفة، مثل التعرى والمكالمات البورنوجرافية ومشاهد لتبادل الجنس الشفهى وكلها أشياء يمكن أن تمر أيضا من خلال التليفزيون. أما الطابق الرابع فهو مخصص للمصنفات السادومازوخية، ما رأيك؟ سوف نستعير ملابس جميلة للدومينيتور إذا أردت أن تضرب، أو ملابس إيسكالاف إذا أردت أن تتلقى الضرب، لدينا ماكينات تجليد وتعبئة وتغليف وغزوات مثل حرب الحبشة فى منتهى المتعة، يخرج منها المرء وكأنه خارج من ماكينة حصاد، ولدينا أولاد وبنات ضخام أشرار، أشرار جدا.

- لا، هذا ليس صنفى المفضل، ثم إننى أعانى من آلام الرقبة.

- إذن فالطابق الخامس: كل شىء فيها صغير، أطفال، لوليتا، حب الصغار، ممارسة الجنس مع الأطفال، فتيات من العاشرة وما فوقها، وأكبر سن ست عشرة سنة، من تايلاند ومن البرازيل، وأطفال، من البنين والبنات، فى منتهى الجمال، من فاريزى أيضا ومن صقلية إذا كان لك شوق فى هذا، ولا تحس بالعار، لأنه لكل عشرة أطفال أخصائى اجتماعى وكله حسب القانون، كما أنه تم تطهيرهم من الأمراض المعدية...

- بالله عليك! أنا عندى بنت فى الخامسة عشرة.

- كنت تستطيع أن تأتى بها وتترك الباقى لى أهتم به أنا... إننى أمزح، لا تعطنى هذا الوجه المغبر يا راعى البقر، هل تعرف ماذا أقترح عليك؟ الطابق السادس، طابق العين السخنة، العين التى تتجسس، التى تستمتع بمشاهدة أعضاء الآخرين... ها أنا أرى عينيك تلمعان...

- حسنا، لا مانع... الرؤية لا تضر، إذا كان الزوجان جميلين... ثم إنها صحية أيضا... لا أحد يلتقط العدوى من الرؤية، أليس كذلك؟ - ضحك باتشينى وهو يزقزق.

هبطت يد إسكارو بحماس على فخذ باتشينى فجعلتها ترن. - هكذا تعجبنى يا راعى البقر - قال الرجل. نهض عن المقعد وهو يعيد حمالات البنطلون وفى نفس الوقت يضبط اتجاه العضو. ثم نادى فتاة الجيشا، وأعطى أوامره بحسم:

- الطابق السادس يا جميلة.

ابتسمت فتاة الجيشا، وأدخلت البطاقة فى قارئ مغناطيسى آلى فانفتح المصعد على نغمة معينة. كان مصعدا معدنيا عاديا مع موسيقى موتسارت فى الخلفية. والشىء الغريب الخاص بهذا المصعد هو أنه يوجد به موزع آلى للمناديل الورقية.

- إن هناك من تضطرب أعصابه لمجرد أن يفكر فى هذا - شرح إسكارو بمنتهى الجدية. - لقد وصلنا.

انفتح المصعد ومرة أخرى أحس باتشيني بخيبة الأمل. فلا توجد صناديق المتعة، ولا تألق المؤخرات والفروج أمام الريح. مجرد ممر كممرات المستشفيات مفروش بموكيت بلون القشدة ومجموعة من الصالونات المعزولة يتابع كلا منها خادم من الجنسين بزى من الجلد وابتسامة مجمدة.

– ولكنه ليس كثير البهجة – قال باتشيني.

– إنها الخصوصية – قال إسكارو – الجميل فيه لم يأت بعد.

دخلا الصالون المعزول رقم ثمانية. غرفة صغيرة مستديرة، ببار متحرك، وفراش زوجية وطاولة عليها شاشة كومبيوتر. تمدد إسكارو على السرير، ومن جديد عدل وضعه وأخذ يلوك علكة النعنا ع.

– والآن؟ – قال باتشيني.

– قليلا من الصبر يا راعى البقر.

خذ الجدار المواجه يتحرك وظهر زجاج سميك. وخلفه كان هناك سرير مستدير مضاء بأضواء زرقاء. وليس هناك أثر من حياة. فضاء فارغ.

– والآن؟ – أعاد باتشيني السؤال.

– مهلا يا راعى البقر – قال إسكارو. – عندما تتعجل فإنك لن تفهم شيئا بتاتا. انظر أولا إلى التعليمات المكتوبة على شاشة الكومبيوتر إلى يمينك.

"حتى تبدأ العرض نرجوك انتقاء رمز المشغل الجنسى الذى تنوى استخدامه أولا. وتذكر أنه طبقا للقانون لا يجوز أن يتعدى عدد المأمير ثلاثة...".

تردد باتشينى فى حيرة.

- معذرة، ماذا يعنى "رمز المأمور" إلخ؟

- يعنى أنه توجد هنا فى الطابق السادس إمكانية واسعة للاختيار. ما نوع المزاوجة التى تريد أن تراها؟

كان باتشينى على وشك أن يقول رجلا وامرأة ولكنه فهم أنها ليست الإجابة المناسبة. وعندئذ كما هى العادة قال:

- اقترح على أنت.

اقترب إسكارو من الشاشة وبعد أن فك أزرار سترته ضغط عليها بإصبعه الكبير.

- هذه هى طريقة الاستخدام: لنفرض أنك تريد أن ترى مزواجة بين مأمورين جنسيين، لنقل X، والآخر بقرة، خاصة أن هذه المخلوقات عزيزة عليك. عندئذ أضغط على الحرف "ب" ثم أراجع القائمة: كما ترى هناك تظهر جميع الكلمات التى تبدأ بحرف الباء مثل هذه، حتى تأتى كلمة "بقرة". فإذا ضغطت سوف أنتقى لباسها المفضل. ثم تختار الشريك الآخر. ثلاثمائة ألف اختيار للمزاوجة. شىء جميل، أليس كذلك؟

– أى أننى أضغط و...

– وبقرتك تتزاوج مع من تشاء أنت..

– ولكننى أرى من الأبقار ما يكفينى ويزيد..

– إذن شغل خيالك: ماذا عساى أن أعرف أنا، ربما فتاتان زنجيتان شاذتان؟ زنجيتان وقزم؟ قزمان ونازية ألمانية؟ نازيان وفتاة يهودية؟

– أرجوك...

– اهدأ، معظمهم ممثلون، يتلقون مرتبات منتظمة من الحكومة، ولديهم رعاية طبية ونفسية. لا تتصنع الخجل. فتش فى صومعة الرغبات السرية..

– حسنا، المرأة يمكن أن تكون... – بدأ باتشينى بخجل.

– قل، قل...

– راعية غنم، راعية شابة.

– يا له من خيال مربك – قال إسكارو وهو يدور بعينيه. – حسنا، هذا هو حرف الراء، وهذه هى كلمة راعية. والآن عليك أنت أن تبحث فى الشاشة الثانية، من يكون هو؟ من الذى سوف يضاجع الراعية؟ لا تقل الذئب لو سمحت..

- الحقيقة - احمر باتشيني خجلا - أنني ما زلت أذكر مشهدا منذ أن كنت صغيرا في قريتي... كانت هي الراعية وكان هو...

- هيا اعترف يا باتشيني.

- كان هو البوسطجي.

- في الصباح الباكر.. هيا اضغط بإصبعك الصغير على الشاشة. هل تستطيع أن تفعلها وحدك أم تحتاج إلى مساعدة؟

هز باتشيني رأسه وأخرج لسانه حتى يركز، وجعل الأسماء تجرى على الشاشة، ونفذ. وبعد لحظة من التشويق أضاء الفراش، وسمعت ألحان رقصة ريفية ثم ظهرت الراعية، مبتذلة الثياب ولكن ليس كثيرا، ترتدي قبقابا وتحمل سلة بيض وجسدا صغيرا غير متماسك. جلست وتمايلت أكثر وتظاهرت بحر الصيف.

- هل تعجبك يا باتشيني؟ - سأل إسكارو بحسن نية.

- نعم، ولكن ما دخل البيض؟ لا أعتقد أن الأغنام..

- اصمت وشاهد.

تمددت الراعية ببطء، وأظهرت جواربها البيضاء التي تشد نفسها والتي تتميز بها الراعيات الداعرات، ووضعت إصبعا في فمها، وهي حركة مألوفة جدا في الوديان الجبلية، وفجأة سلبت سلة البيضة

انتباهها. أخذت منها واحدة وقربتها إلى إذنها، كأنها تسمع منها أصواتا. هزتها برقة..

– ماذا تفعل الآن؟ بيض مقلى؟ – قال إسكارو حائرا. وها هى البيضة تنكسر ويخرج منها كتكوت صغير أصفر يصوصو، أخذت الراعية تداعبه على الفور وتضعه فى سخونة فى صدرها الكبير. ثم راحت تواصله بكلمات مبتذلة وهى تداعب شعره وتتناقله وهى تتأوه على مواضع كثيرة من جسدها وتستخدمه كأنه فرشاة أحمر الخدود على عنقها وفى مواضع أخرى مقعرة ومحدبة.

– ولكن – قال باتشينى بينما كانت الراعية تدلك بصدرها العارى الكتكوت الوليد – من يدرى ماذا سوف يحدث بعد ذلك.

– خازوق كبير يا باتشينى! – قال إسكارو. – لقد خرفت. انظر ما هو مدون على الشاشة. إنك بدلا من أن تضغط على كلمة بوسطجى ضغطت على كلمة كتكتوت[٥].

– أخشى أن يكون هذا هو ما حدث، – قال باتشينى وهو يراجع المكتوب على الشاشة.

(٥) نوع من اللبس اللفظى بين كلمتين تبدأن بنفس الحرف فى الإيطالية هما Postino وتعنى ساعى البريد، و Pulcino ومعناها كتكوت، وكلاهما يبدأ كما نرى بحرف P فى الإيطالية. وهذا النص فيه كلمات كثيرة من هذا النوع رأينا ألا ننقلها إلى العربية لأنها لن تعطى الأثر الموجود فى النص الأصلى.

- إذن حاول أن "تستطعم" المشهد لأننا لن نستطيع تغييره.

اندمجت الراعية بكل قواها فى المشهد، وعاونها الكتكوت أيضا: وعندما تقلص المسكين إلى ما يشبه الخرقة المبللة حيث الراعية بانفراج بين ساقيها عبثى وبانحناءة قليلة الإقناع خرجت من المشهد.

سحب إسكارو باتشينى فى الممر بين الصالونات المعزولة وهو يغمغم بشىء حول الصعوبات التى يواجهها فى عمله. كانت تلوح على باتشينى علامات تأنيب الضمير، وهو يمسح النظارة التى تعتمت قليلا.

- سامحنى، ولكن كل شىء هنا هكذا، عصرى وغريب، فى منطقتنا ليست هذه هى الأشياء التى نراها كل يوم.

تأمل إسكارو باتشينى. لو أن الحكومة لا تحتاج بشدة إلى هذا الحليب، فكر بينه وبين نفسه، لكنت أرسلته إلى بلدته. ولكننى أقسم أننى سوف أجعله يقوم بشىء يخجل منه طيلة عمره، أو أتوقف عن ممارسة مهنة رجل الليل المرخص.

ذهبا لتناول شراب الفوشيا مرة أخرى فى شرفة معلقة فى الهواء، ومنها يتمتعان بالنظر إلى بانوراما العاصمة، التى تعج بالأضواء. طوابير من السيارات تتفرق هنا وهناك فى كل مكان. من أحد طوابق العمارة تصل صرخات وموسيقى.

- والآن ماذا سنفعل؟ - قال باتشينى وقد ثمل قليلا.

– مـا تزال هـناك ثلاثة طـوابق لم نـرها . السـابـع هو طابق الممـالك الثلاث، وفيه يمكن التزاوج مع العالم النباتى والحيوانى كله، من البطيخ إلى الجـمل. ولكننا شـبـعنا كـثـيـرا مع الكتكوت. ثم هناك قطاع بورنوميكانيكى، عبارة عن آلة جنسية تعمل بالعملة، وهزازات توربينية، ودمى من الإناث والذكور. أما الطابق الثامن فهو أكثرها شعبية، وهو طابق الدم والرشاشات. فيه أفلام... قوية، مشاهد حرب فيها اغتصاب حقيقي أو شبه حقيقي، واغتيالات على الهواء وعرض بورنو بمشاهد قتل تنكرية.. ربما.

– أنت تمزح، أليس كذلك؟

– طبـعـا أمزح يا راعى البقـر – قـال إسكارو بابتسـامة تـهكم. – أنصحك بالطابق الأخير. الطابق الافتراضى. هناك كله مسموح.

– كله كله؟

– كله. هـناك البزة ذات المجسـات، و V-Sex والبيـجامـا البـورنو، ومـاكينات الجنس عـاليـة الافتـراضـيـة. نسـتطيع أن نحـاكى أية نشـوى جنسـيـة، يمكنك أن تحـصل على أى مـخلوق بأية طريقة، ويمكنك اختراع أشـد المواقف تحـريمـا: القتـل والاغـتصـاب والمداعبـة والابتـلاع، وسـوف يكون حقيقيا أكثر من الحقيقة.

– سـمـعتـهم يتحدثون عن هذا. لنذهب – قال باتشينى وقـد التمع ضـوء جديد فـى عينيه. صـعدا إلى الطابق الأخير. كـان إسكارو يضـحك

بملء شدقيه راضيا. هكذا ينتهى به الحال دائما. فى ذلك الطابق، وداخل البزة ذات المجسات، معتقدين أنهم بهذا يكونون بعيدين عن أية نظرات، كان الجميع يظهرون كل ما خفى لديهم من انحرافات. لم يكونوا يتخيلون أن كل ما يحدث بداخل البزة تتم مراقبته وتسجيله وحفظه. انتهت أيام البزات الجنسية الأولى. هذه النماذج الحكومية الحديثة كانت أعجوبة حقيقية. لقد سقطت فى الفخ يا راعى البقر. سوف ينتهى بك الحال إلى أن تلعب بطولة شريط فيديو. سوف تبيع حليبك مجانا، أو يبقى القليل حتى نصل إلى هذه النتيجة.

كان الطابق التاسع له مظهر كئيب أكثر من الطوابق الأخرى. كان يبدو كأنه قسم الإنعاش. كان هناك عنبر طويل والناس على الأسرة مجبسين فى بزاتهم ذات المجسات، الموصلة بواسطة أسلاك وكوابل إلى كومبيوتر بجميع الأبعاد، وفنيون بقمصان بيضاء كانوا يراقبون ردود الأفعال والتجاوزات المحتملة. كان هناك رجل على سرير يرتعش وهو يصرخ بكلمات إباحية. وقام الفنى بتخفيض الصوت.

– هذا قسم نستطيع أن نسميه قسم المؤمن عليهم – قال إسكارو وهو يعبر العنبر. – فالشركات الحكومية تهدى يوم V-Sex للموظفين كحافز إنتاج، أو بديلا عن العطلات. ولكن لسعادتك خصصت غرفة مفردة.

كان رجل الليل يبدو هنا كأنه فى بيته : تحدث هامسا لرئيس القاعة وضحكا متآمرين. ثم اصطحبوا باتشينى إلى غرفة صغيرة

بيضاء ومرتبة، بكثير من نبات الفيكاس والمياه المعدنية على الكومودينو. خلعت ممرضتان خجلتان ملابسه بلطف، ودهنتا جسمه بكريم بارد، وأدخلاه في البزة. كانت الخوذة على الكومودينو، جمجمة ضخمة بها ديدان من أسلاك.

– والآن يا صديقى – قال إسكارو – سوف تبقى وحدك مع المشغل الافتراضى رقم ٦. إنه رجل ملتزم بسر المهنة، كأنه قس، أو طبيب نفسانى. ولا حتى هو سيعرف ماذا يحدث فى عقلك، ولا فى منظارك، ما أن تلبس الخوذة. يجب فقط أن تختار شريكك فى المغامرة. هناك عارضات وعارضون وممثلون مشهورون وممثلات مشهورات، وشخصيات تاريخية. يمكنك أن تمارس الجنس مع أى شخص إذا أردت. وأيضا يستطيع المحول الجرافيكى أن يركب لك شخصا عرفته أو تعرفه حاليا. فتاة أحلامك، سواء كانت موجودة فى الواقع أو غير موجودة، يمكن أن يتم تركيبها من خلال مواصفاتها، أو إذا كانت معك صورة مثلا...

– معى صورة – قال باتشينى وقد احمر خجلا.

– ممتاز – قال المشغل رقم ٦ . هل تعطينى إياها؟

– نعم، ولكن ماذا سيحدث بعد هذا؟

– بعد هذا – شرح رقم ٦ – سوف أدخل الصورة فى المحول الافتراضى. سوف تظهر لك الشخصية التى فى الصورة كأنها حية

تزرق. سوف تحاورها بالصوت عن طريق عاملة تشغيل ممثلة. ما عليك سوى إعطاء أوامر صوتية: اقتربى منى، انظرى لى، اخلعى ملابسك.

- إلى آخره، إلى آخره. - ابتسم إسكارو بخبث.

- هل تؤكد لى أننى أستطيع أن أفعل كل شيء؟

- بالتأكيد - قال ٦ - ليست هناك أية مشكلة فى الواقع الافتراضى... إذا تدهورت حالة شريكتك، أو فرضت عليها مواصفات إضافية. بفضل تفريعات المجسات فى البزة سوف تحس بجميع متع الملامسة الجسدية مع الشريك، مع الجو والأشياء التى ترغب فيها. أكرر: يكفى أن تصدر الأوامر. كل شىء سوف يبقى بداخل البزة ولن يعرف أحد بأى شىء.

- أليس هذا هو المثالى؟ - سأل إسكارو وهو يتبادل نظرة تفاهم مع المشغل. - إن حديقتك السرية جاهزة لاستقبالك يا راعى البقر.

-حسنا - قال باتشينى. كانت يداه ترتعشان وهو يضع يده فى الحافظة - إذن أود... أن أدخل الواقع الافتراضى مع هذه.

وضع الصورة. ظهرت فيها امرأة سمينة، جالسة على أريكة، عمرها حوالى خمسين عاما، ساقاها غير متناسبتين مع جسدها وقد وضعتهما داخل جوارب من الصوف.

عاهرة من نوعية حقيرة، فكر إسكارو، ها هي الأذواق الرفيعة لصديقنا باتشيني.

دخلت الصورة في نظام الكومبيوتر، وبدأ المحاكي الافتراضي العمل. اقترب إسكارو من باتشيني، وهو يرفع الخوذة بيديه كأنه درع فارس.

– متوتر؟

– نعم – قال باتشيني – هذه المرة نعم.

– حسنا. هل ستتذكر هديتي هذه عندما تتفاوض في الصفقة صباح الغد؟

– نعم، نعم. ولكن قل لي. هل صحيح أن أحدا لن يراني وأنا هنا بالداخل؟

– لا أحد سوف يراك. كما في الأحلام بالضبط. أحلام ذهبية لا راعي البقر.

ابتلعت الخوذة رأس باتشيني. انتقل إسكارو إلى طاولة التحكم والمتابعة. المشغل ٦ كان قد بدأ التسجيل والتصنيف طبقا لتصريح حكومي خاص. كشفت شاشتان موقف مجسات باتشيني. كان شديد التوتر.

– النبض مائة وخمسون والأدرينالين في السماء. ولكن ليس هناك أي انتصاب. إن صديقك عاشق حقيقي – ضحك المشغل ٦ .

– أين يمكن أن أراه؟ – سأل إسكارو.

– فى الشاشة الكبيرة أمامك. هناك يعاد استنساخ ما يراه صديقك فى هذه اللحظة بالضبط. كل شىء الآن أبيض، ولكننى أقوم بإعطاء إشارة البدء فى التمثيل الافتراضى.

ظهرت امرأة بدينة على الشاشة. كانت مطابقة لصاحبة الصورة. كانت نوعية الصورة على الشاشة ممتازة، نوعية أعلى كثيرا من الصورة التى كان إسكارو قد رآها قبل ذلك ببضعة شهور.

– أهلا يا أرماندو – قالت المشغلة–الممثلة ٢١ – هل يعجبك صوتى؟ هل هو مشابه؟

– أعذب قليلا – قال باتشينى – ثم إنه لا يحمل لكنة أهل بلدنا.

كانت ٢١ فتاة ترتدى نظارة تلوح عليها سمات الاحترافية. استشارت على الفور المعلومات الشخصية عن باتشينى ثم عدلت صوتها بسرعة.

– أفضل هكذا يا أرماندو؟

– أفضل جدا – تنهد باتشينى – إنك لا تعرفين مدى شوقى لمرآك.
– الآن – قالت المرأة البدينة وصورتها تكبر على الشاشة – ينبغى أن تطلب منى منظرا، مكانا يمكن أن يتحقق فيه لقاؤنا.

– حديقة – قال باتشينى – حديقة جميلة. ونحن الاثنان مستلقيان.

امتلأت الشاشة باللون الأخضر. من بعيد شريط من الأشجار. الإحساس بالعشب الأخضر المبتل يمر عبر المائة والعشرين غدة الموجودة فى البزة، مما جعل جسد باتشينى يرتعش. رش عليه بخاخ على الفور رائحة العشب. عطس باتشينى.

- كم هو جميل - قال.

- والآن ماذا تريدنى أن أفعل؟ سألت المرأة البدينة.

- اقتربى - قال باتشينى.

تحركت المرأة ببطء للأمام، وقد ملأت الشاشة تقريبا.

- ماذا يمكننى أن أفعل لك يا حبيبى؟

- أريد أن أضع رأسى فى حجرك.

- حسنا، سوف أجلس هنا.

كانت الشاشة تعرض الآن المرأة مبتسمة وقد أخذت لها اللقطة من أسفل، من وجهة نظر باتشينى، وأضاف المشغل أيضا سماء زرقاء وجعل سحابتين تمران ببطء.

- خرافى - علق إسكارو.

كان قلب باتشينى يخفق بقوة. كانت رأسه تحس بطراوة حجر المرأة، وأنفاسها القريبة.

- والآن؟ - قالت المرأة وهى تنحنى على باتشينى.

- الآن - تنهد باتشينى - احكى لى حكاية التفاحات الذهبية الثلاث يا ماما.

سب إسكارو ولعن. هز المشغل رأسه وراح بسرعة يبحث فى الكومبيوتر عن كلمة "حكايات". أخفى المشغل رأسه بيديه، وكان الضحك يفلت منه.

قال ٦ للمشغلة ٢١:

- سوف أعرض لك النص على الشاشة رقم ٢ .

- كان يا ما كان، كان هناك إمبراطور - بدأت ٢١ تقرأ - لديه ثلاث بنات جميلات جدا...

على الشاشة، كانت المرأة البدينة تحكى بهدوء. كان إسكارو يدخن متجهما مقطب الأسارير. أصبح قلب باتشينى الآن يخفق بهدوء.

فى الأعلى، فى السماء، مر سرب من البط، كان مشمولا فى السعر.

١٨

ما حالة الجو؟

استيقظ الرجل الذى كان فى الفراش المحاط بستائر. رائحة القهوة، التى حملها رئيس الخدم مثل كل صباح، أخرجته من الحلم. تمطى ونظر إلى ستائر النوافذ المغلقة بشكل غامض وقال:

- جوزيبى، ما حالة الجو اليوم؟

انحنى رئيس الخدم باحترام.

- اسمح لى يا سيدى أن أذكرك بأنه يعود إليكم اختصاص تقرير حالة الجو اليوم.

- آه، فعلا - قال الرجل بإيماءة ضيق - أحيانا أنسى مسئولياتى الحكومية الكثيرة. بوسعى أن أقول إن الجو اليوم... مشمس جميل.

- سوف أقوم على الفور بإبلاغ الصحف يا سيدى. هل تريد أن أفتح الستائر يا سيدى؟

- لا، فربما أنام قليلا. وبعد ذلك سوف أذهب... لكى ألعب الجولف.

- لا تنس إذن المظ...

- ما الذى لا يجب أن أنساه يا جوزيبى؟

- القبعة يا سيدى. الشمس تحرق - قال رئيس الخدم ذلك، وخرج بعد انحناءة ثانية.

١٩

إيرازمو، بائع الكون

أيها الشباب، إن حياة التاجر الفضائي لحياة شاقة! وإذا لم تصدقوني فاسمعوا آخر حادثة وقعت لي. كانت صفقة العمر بين يدى: خمسمائة ألف متر مربع من الظل للبيع في بليتون، كوكب صغير تابع لاتحاد المشترى. وبليتون عشر حجم الأرض، وهو مسطح تسطيحا ليس له مثيل. الجبل الرئيسي واسمه بليتبرج ارتفاعه ستة أمتار واثنا عشر سنتيمترا، وقد وضعوا فوقه المصعد الجبلي وهوائيات المدينة كلها. لم يهضم أهل بليتون المساكين الأمر بسهولة، فلم يعد لديهم متر واحد من الظل: ليست هناك أشجار، ولا صخور، ولا محطات أوتوبيس مظللة. والشمس ليست موجودة عندهم، وإنما أحد عشر شمسا تضربهم من الصباح حتى الصباح. ولهذا فإن المرء في بليتون يحيا تحت الشمس بلا هوادة ولا رحمة. الراحة الوحيدة في مخلوق يسمى أوى أوى، له أذنان ضخمتان، عندما يفردهما يصنع شيئا من الظل. ولكن أوى أوى كلهم من العائلة الملكية التي تحتفظ بستة وتسعين في المائة من الظل على الكوكب كله.

أخيرا ومنذ شهر اندلعت الثورة، وانقلب أهل بليتون الثائرون على الملكية. وعلى الفور طرح الرئيس الجديد اقتراحا: لنشترى الظل من الكواكب الأخرى. ألقيت بنفسى فى الصفقة بحرق المتنافسين. وفى أقل من ثلاثة أشهر عثرت على خمسمائة ألف متر مربع من الظل. أشترى بنصف الثمن ألف خيمة مستعملة من جيش أومرويك وستين شجرة ظل من أندروميدا، حيث يمكنهم أن يبيعوا لك بركانا بحاله فى مقابل قليل من المخدرات. ثم ضربة عبقرية. هل تعرفون رجنلوفيان، الكوكب المغموس، ذلك الملىء بالسحب والعواصف الذى يوجد على الطريق الجرمى فى اتجاه أورانوس؟ حسنا، هناك تمطر السماء منذ مليار سنة، وكل واحد هناك يعيش بمظلته الجميلة مزروعة فى الرأس، وهى عملية جراحية يجرونها لك عند الولادة حتى تستطيع أن تحرر يديك. عرفت أنه سوف يمر من هناك المذنب ميستنجويت، ذلك الذى شق باسكيندا إلى نصفين ودمر آسيا جوفيان. يمر المذنب إلى جوار رجنلوفيان على سرعة تسعة آلاف فى الساعة، ويعطى ضربة جاذبية للكوكب ويغير إحداثياته، مثل حركة الدوران وعدد اللفات، وما إلى ذلك. وعلاوة على هذا سوف ينقله إلى مدار شمس أورانوس الرابعة.

والنتيجة الأولى هى تغير المناخ: فلم يعد هناك زوابع ونشأت ثمانية فصول للسنة. والنتيجة الثانية الجميلة: مليونان من أهل ريجنلوفيان سوف يفكون مسامير المظلات المزروعة فى رؤوسهم، ومن يحضر بسرعة الصاروخ إلى المكان؟ صديقكم إيرازمو، بائع الكون، الذى يشترى خزين

المظلات كله فى مقابل طنين من الكريمات المضادة للشمس. هل فهمتم الخبطة؟ أرسلنا فاكسين كونيين بالعرض وقمنا بتحميل كل شىء على ناقلة بضائع فضائية، هدفها بليتون، حيث سيدفعون لى بالزمرد الخام الذى يدوسون عليه بالأقدام هناك. وعد من ليبرونى إيرازمو، هذه المرة سوف أصبح ثريا.

لكن هنا بدأت المتاعب. بعد ثلاثة أيام من السفر على طريق المذنبات، وهى رحلة شاقة تبعث على الغثيان، وصلت إلى محطة بليتونيا الفضائية ، وقد أصبحت أحس بالزمرد يدغدغ حواسى. لدى موعد فى قاعة كبار الشخصيات، وابتسامتى المقنعة جاهزة، وعقد جميل للتوقيع عليه. ولكننى فى تلك اللحظة أدرك أن هناك نقطة مؤسفة فى التفاصيل، وهى أننى لا أعرف مما يتكون البليتونى. مجموعة من الناس تتجول فى هذا المطار الفضائى: :أرضيون وسيلينيون وأندرميديون وبودريون ورهبان من شاجا-ناجا وأمراء من توروباكا وجيرجيريين من جيريجورن، وكلها أجناس أعرفها، ولا شىء منها يمكن أن يكون بليتونيانيًا ملعونا.

الموقف جد خطير: ليتنى أستطيع أن أسأل بليتونى كيف خلق البليتونيون، لأننى حينئذ سوف أكون قد عرفت مما يتكون البليتونى. وسوف يكون من المحرج أن أذيع فى الميكروفون الإعلان التالى: السيد ليبرونى إيرازمو القادم من الأرض يود من جميع البليتونيين الموجودين التكرم برفع يدهم، إذا كانت لهم أيد.

الشيء الوحيد الذى يمكن عمله هو الانتظار حتى يظهر أحدهم. ولهذا أخذت راحتى على أريكة كبار الشخصيات وطلبت كوزموبول تريبل. كان هناك ساقى بار من الأرض ينظر لى ويسألنى ما إذا كانت هذه المرة الأولى التى أزور فيها بليتون. لم أكن أريد أن أريه أننى فى ورطة فأجيب عليه أننى جئت هناك العديد من المرات.

تمر من أمامى فى تلك الأثناء جميع الأصناف: رخويات وزواحف وقثاء البحر يحمل حقيبة وكرات مطوقة وشبيه الغائط وقوم طوال يميلون للاخضرار وبكتريا مغطاة بالفرو وحتى الجمراشنتر من الماسيجمراشنتر بذيل طوله مائة وثلاثون مترا ومائتا ولد يرفعونه. حتى فقدت صبرى فناديت الساقى وسألته بدهاء:

– اسمع يا معلم، أنا أنتظر وفدا حكوميا من بليتونيا، ولكننى لا أعرف جيدا... سحنتهم... وجوههم، ملامحهم، علاماتهم، ضحكاتهم، مناخيرهم، خياشيمهم.. على أى حال، هل تساعدنى إذا رأيت هنا أى بليتونيانى له وجه أحد المسئولين بالوزارة؟

نظر الساقى حوله ثم قال:

– لا أدرى يا سيدى، إن البليتونيين مختلفون تماما عنا، ربما كان هذا الشخص الذى يقف هناك – وأشار إلى آخر القاعة، حيث يقف عملاق أسود مخضر كان يتحدث فى التليفون وهو يستند على كابينة.

أنتظر حتى ينهى المكالمة وأحييه بإشارة من يدى. يبادلنى التحية ويتجه نحوى: له جزع حيوان برمائى طوله متران مع حافرين قذرين على شكل كف اليد يخرجان من الرداء الكونى الذى يرتديه. تفوح منه رائحة عاهرة من كوكب الزهرة ويخرج من فمه لسانا طوله نصف متر فى كل مرة ينطق فيها حرف السين (أو الزاى أو الذال أو الصاد) شينا. ولكننى أمنع نفسى من التأثر بمنظره: الزبائن يجب أن يتحلوا بالثراء، وليس مهما الجمال.

- أنا ليبرونى إيزامو، بائع الكون- أقول له - وأنا هنا بخصوص صفقة الظل.

- ممتاش - قال هو.

- جئت بكل شىء: مليونان من المظلات الشمسية، وخمسون شجرة ومائتا خيمة لكبار الشخصيات...

- تبدو لى شفقة ممتاشة، فعلا...

- لنوقع العقد إذن؟

- اهدأ، اهدأ. أنا متخشش فى تجارة الديدان الحية، ولكن هشه المشألة تهمنى. ماشا تحتاج؟ هل تريد منى تقديمك إلى أحد المشئولين الكبار من بليتونيا؟ أو -همش فى أشنى وهو يغشلنى بلعابه - أن البضاعة قشذرة؟ حشنا، أنا أعرف من يخلش العملية، ولكن يجب أن تدفع الكثير..

– على أى حال – انفجرت أنا– هل أنت بليتونيانى أم لا؟

– بليتونياني؟ ما هشا الهراء؟ – قال الضفدع – أنا شوشيبى من شام. هل أنت شكران أم ما هى قشتك بالضبط؟ هل تشخر منى؟

وانصرف حانقا. كنت أود أن أستوقفه، وأشرح له كل شيء، ولكننى لم أستطع. كان هو أيضا بائع اتحادى، ولكن له لسان طويل (وهذا واضح!). ولو راح يحكى فى الكون عما حدث فإن سمعتى سوف تتعرض للدمار إلى الأبد. إيرازمو ليبرونى، أكبر تاجر فى المجرات، كان على وشك إنهاء صفقة عمره ولكنه لا يعرف ماهية تركيب زبائنه! وأنتم تعرفون الضحكات فى بورصة بيتلجوز!

فى تلك اللحظة، تدخل إلى القاعة مجموعات جديدة من المخلوقات. ستة من أشباه الأرضيين الخرطوميين، واثنان من الأقزام الصغيرة الصفراء برجل واحدة وواحد من التماسيح القديمة يرتدى السموكن. والآن لمن أقدم نفسى؟ أخشى أن أقع فى مقلب جديد. ولكن خطرت على فكرة عبقرية: صديقى ماروللى! بومبيو ماروللى سبق له عقد صفقات مع بليتون، يكفى أن أتصل به هاتفياً فى الأرض وأسأله.

أهرع إلى كابينة التليفونات. وللصدفة لم يكن الباب يفتح، فأعطيته دفعة وها أنا ذا بداخل الكابينة. لابد أن أجرى المكالمة على عجل. وللأسف كانت أرقام التليفون باللغة البليتونية ومجموعة من الخيارات لم أفهم منها شيئا، ولكن التليفونات هى فى النهاية بنظام واحد فى الكون

كله، وبالفعل وجدت على الفور شق أضع فيه بطاقة التليفون البين فضائية. وضعت البطاقة ولكن التليفون لفظه: القصة المعتادة. إننى مستعجل، ياللعنة، سوف أدفعها فى الشق بالقوة، ويلفظها التليفون من جديد، فأضرب لوحة المفاتيح بعنف وفى هذه المرة تقبل البطاقة. أرفع السماعة التى لم تكن تنفصل، وكان على أن أفصلها بالقوة، ثم أفحص المفاتيح: الأرقام مختلفة ولكن الترتيب واحد فى جميع المجرات، فالمفتاح الأول لا يمكن إلا أن يكون لرقم واحد. أضغط عليه، فيصدر التليفون نفيرا قويا جدا وفى الحال يضىء نور أحمر. كل الكون قرية صغيرة، حتى هنا تتعطل التليفونات بسرعة. ولكننى لا أصاب بالإحباط، وأوجه إليه ضربة أخرى قوية، فيخرج صندوق التليفون العديد من العملات المعدنية البليتونية البيضاء، ثم أضرب الأحد عشر رقما اللازمة، ومع كل رقم يصدر ذلك النفير النافذ. أسمع من السماعة صوت إشارة الخط المشغول، تووووت، سريعة جدا. أعيد وضع السماعة وأضع البطاقة من جديد، ثم ضربة أخرى قوية حتى يبتلعها التليفون، أضرب الرقم، ومرة أخرى النور الأحمر، وضربة أخرى قوية وأخيرا ها هى إشارة فتح الخط. ولكنها إشارة كانت تزداد ضعفا. حشرجة وينطفئ.

تليفون ملعون، ألعن، هل يستطيع أحد أن يدلنى كيف... والتفت وفهمت أننى أخطأت فى شىء ما. ظهرت حولى ثمانى كبائن لم تكن موجودة من قبل.

حسنا أيها الشباب، فى اليومين اللذين قضيتهما فى السجن وثقت الموضوع. إن البليتونيين مخلوقات عضوية-روبوتية شديدة الحساسية، تتكون من جسم مركزى وهيكل خارجى مضاد للشمس على شكل، آه يا أنا، كابينة تليفون. ذلك الذى أشبعته ضربا كان وزير الصناعة. شرح لى رفيقى فى الزنزانة أننى تقريبا خنقته بالبطاقة التليفونية، وخلعت له ذراعا، وجعلته يلفظ نصف أسنانه، وضربته فى أماكن حساسة، والطامة الكبرى أننى أعميت له أحد عشر عينا من عيونه الستة عشرة. ولكن الموضوع انتهى على خير: يبدو أن هذا الوزير ربما كان متورطا فى كارثة. ولهذا اكتفوا بمصادرة البضاعة التى كنت أحملها كلها وتغريمى مليون واو تدفع عدا ونقدا. ولكنهم برأونى من تهمة قتل بليتونى. فقد قالوا إنهم كان لابد أن يرسلوا مترجما استكشافيا. وخسرت صفقة عمرى، ولكننى أنقذت حياتى حتى أكسب صفقات مقبلة. وأقسم أيها الشباب أننى سوف أتعافى قريبا: وأنا أتفاوض الآن على صفقة خوذات لكوكب "المطر`الفظيع" وصفقة كاوتش أمريكية للألف فم فى ترويبيزار. ولكننى هذه المرة سوف أجعلهم يرسلون صورا فوتوغرافية أولا، ينبغى معرفة مع من تعقد الصفقات.

٢٠

الحمام

ماذا لديها صراصير الليل لكى تغنى له فى هذا البؤس؟ فى هذا الطريق الذى لا توجد فيه سوى بعض البيوت البيضاء التى تعذبها الشمس، حيث تتجول هياكل عظمية لكلاب تتجول بين أشجار التين الشوكى المتربة؟ ومن تحتها البحر الممتد المقسوم إلى لونين بسبب الرياح التى تصفر فى الخلاء.

ماذا لديها صراصير الليل لكى تغنى له فى رائحة المجارى التى تفور ورائحة الزهور المحتضرة؟ تغنى لأن الجدة ماريا، فوق، وعلى تلك الطائرة التى تقطع السماء بمسارها الأبيض، فوق بين السحاب، تعود من أمريكا.

أى برودة منعشة تصنعها الطائرة مقارنة بالحر الذى يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ فى الخارج، وكم من الناس ينتظرون الجدة ماريا.

جاء الابن جوزيبى والحفيدة شيتينا، كان هو يرتدى اللون الأزرق وهى الوردى المرزبانى كأنه يوم تقديم القربان المقدس الأول، وناطحة

سحاب من الجيلاتى فى يدها، وكلما لحست منه، قلت أسئلتها. وكان هناك قبلهم الأخوة تشنكويه. كانوا قد أقاموا فى أمريكا كثيرا من السنوات، والمرة الأخيرة اضطروا لتركها لأن واحد نتن كاد لهم، ولكن الجو الآن فى البلدة عاد إلى الصفاء. عاد الأخوة تشنكويه أكثر قوة وسخاء من ذى قبل. وهم هناك فى انتظار الجدة ماريا، كأنها إحدى السلطات.

سلفاتورى تشينكويه هو أصغر الأشقاء، وكان رياضيا أجعد، ويمسك بيده باقة زهور، كبيرة لم يهد مثلها ولا حتى لبنات بروكلين.

أما جوفانى تشينكويه، المشهور أيضا بالأفوكاتو، فطويل وأنيق، ببزة كاملة لونها لون البيض المضروب بالسكر والنبيذ، وكان يضع زوجته لوتشيا تحت إبطه، وكانت كأنها ملكة متوجة تبتسم بعصبية للموظفين.

وروزاريو تشينكويه هو الأخ الأكبر، وكان جالسا موسعا بين ساقيه وواضعا بينهما عصاه كأنها صولجان. والوجه المميز بثلاث غرز وجه عبوس قاتم. فلا عجب أن يطلقوا عليه فى أمريكا اسم "روزاريو باد نيوز" أى صاحب الأخبار السيئة. وإلى جواره كانت هناك لفة كبيرة ملفوفة بشرائط وورق مذهب. شيكولاتة للجدة ماريا.

ينزل ركاب طائرة نيويورك، والجدة ماريا فى المقدمة، سمينة وسوداء وعرجاء، ومعها مضيف تستخدمه عكازا. نفثت بضجر وأصدرت إيماءة ارتياح عندما رأت أقاربها. وجه صاحب الأخبار السيئة المغتم

كالقبر انفرج بابتسامة أنارتها أسنانه الست الذهبية، وعلى هذه الابتسامة انطلق الأخوة الآخرون نحو الجدة ماريا، ومرروها بسرعة وبصمت من رجال الجمارك. بعد دقيقة أصبحت الجدة فى قلب سيارة ليموزين زرقاء تجرى بصمت نحو البحر.

– كم أنتم شطار لأنكم جئتم لتأخذونى جميعا – تقول الجدة. – والزهور، والشيكولاتة. حتى جواز السفر لم يطلبوه منى.

– يا سيدة ماريا – يقول صاحب الأخبار السيئة – أنت مسافرة أكثر احتراما من أن يطلبوا منك جواز السفر.

– فى هذه الأنحاء نحن الذين نطلب منهم جوازات السفر – يضحك سلفاتورى. ويصعقه الأخ الأكبر بنظره.

– احكي لنا عن أمريكا يا جدة – تقول تشيتينا وهو تلتصق بها.

– ماذا أحكى لكم؟ لقد جعلونى آكل ثلاثة أيام متوالية، وأقاموا حفلا على شرفى أحيته مغنية تغنى أغانى الحب وكانت تهديها لى. شىء مخجل!

– وجوليانو، – يسأل جوفانى – هل كان جوليانو لطيفا معك؟ – جوليانو تشينكويه هو الأخ الرابع الذى لا يزال يعيش فى أمريكا.

– جوليانو رجل مهذب طول عمره – تبتسم الجدة ماريا – وقد أعطانى هدية لكم.

فجأة استدارت السيارة إلى اليمين نحو المنطقة الصناعية للمدينة وأبطأت بالقرب من أحد المستودعات.

– ولكن هذا الطريق ليس هو الطريق إلى البلدة – تقول تشيتنيا.

– الجدة ماريا متعبة – يقول الأب – ولابد أن تستريح قليلا.

– ألا تستطيع أن تستريح فى البيت؟

– اخرسى أنت.

أخرجوا من السيارة المائة كيلوجرام التى هى وزن الجدة ماريا بحذر شديد كأنها من ذهب.

– هل كان يجب أن تحضروا الطفلة معكم؟ – يقول سلفاتورى بصوت خفيض.

– الأطفال لهم دور طيب وخاصة إذا أردنا أن نشكل مجموعة. يثيرون التعاطف. ولكن يجب الآن أن تبعدوهم عنا – يقول صاحب الأخبار السيئة.

مرت دقائق قليلة. يتحدث جوزيبى مع السائق، وكان شابا تبدو عليه ملامح الصقور. لم يدرك أن الطفلة خرجت من السيارة وكانت تتسحب على طول المستودع، نحو إحدى النوافذ. تنظر إلى الداخل. فماذا ترى؟ ترى الجدة ماريا، فى وسط الغرفة، وليس عليها سوى الملابس الداخلية، والجسم المجعد عليه أشرطة سوداء. يلتف حولها

الأخوة تشينكويه. صاحب الأخبار السيئة كما هى العادة جالس، والآخران يتناولان طرفى أحد الشرائط، وينزعونه بقوة، وتطلق الجدة ماريا صرخة. إنه شريط لاصق، تفكر تشيتينا، ولكن لماذا ربطوها فى أمريكا بهذه الطريقة؟ ثم ترى أن الأخوين يفصلان من الشريط أكياساً بيضاء، تشبه أكياس السكر، ويتذوق صاحب الأخبار السيئة كيسا ويقول شيئا، فيضحك الجميع، بما فى ذلك الجدة ماريا التى تتحول إلى اللون الأحمر من الخجل وتزداد احمرارا كلما نزع عنها شريط. يسمع صوت حاد وفى كل مرة تصرخ الجدة من الألم والأخوة يجمعون الأكياس البيضاء. ربما يجب أن أبلغ الأب أنهم يؤذون الجدة، تفكر تشيتينا، ولكن الجدة تضحك. ما هذه اللعبة الغريبة؟

على حين غرة وبعنف تدوى لطمة على وجه تشيتينا. إنه أبوها الذى اكتشفها وانعقد لسانه تقريبا من الغضب.

– الويل لك يا تشيتينا إذا تفوهت بأى كلمة عما رأيت!

– ولكن لماذا؟ – تبكى الطفلة. – لا أفهم، إنهم يؤذون الجدة.

ينحنى جوزيبى فوقها، ينظر ما إذا كان أحد قادما، ويجفف لها دموعها.

– هل تتذكرين يا تشيتينا عندما وصلت تلك الشاحنة إلى البلدة قادمة من المدينة، وكانت تحمل بلاط الحمام المنقوش بالزهور، وتلك الأحواض الجميلة وردية اللون والتى قلت عنها إنك كانت تداهمك الرغبة

فى الشرب فيها؟ والكنيف والصنابير، هل تتذكرين عندما أنزلوها وقلت أنت: سعيد من يستطيع أن يشترى حماما مثل هذا.

- نعم أذكر يا أبى: وقلت أنت: سعيد نعم، ولكن الويل إذا انتشر الخبر.

- بالضبط هكذا. سمعتك الجدة ماريا تلك المرة فأرادت أن تهديك هدية. ولهذا ذهبت إلى أمريكا. ولكن حاذرى، إنها هدية لا ينبغى أن تتحدثى عنها لأحد. وعد؟

- وعد.

ماذا لديها صراصير الليل لكى تغنى له فى هذا البؤس؟ بين بيوت الملح القليلة هذه ذات الأربعة مقاعد الخالية أمام الباب، وفروة أرنب ملوثة بالدماء، ووجه فى النافذة، الريح التى ترفع التراب من الشارع وتكشف الحصى كأنها فقرات؟

ماذا لديها صراصير الليل لكى تغنى له؟ تغنى لأنه فى أفقر بيوت القرية وأقدمها، ذلك البيت الذى يزين تمثال العذراء البلاستيكى نافذته، بداخل هذا البيت بالتحديد تأخذ الجدة ماريا حماما فى بانيو من ذهب وبصنابير من ذهب.

حجم البانيو مثل حجم اثنين عاديين، عربة حقيقية، والصنابير تتلألأ بلآلئ قطرات الماء. تتمدد الجدة فى الماء الوردى بأملاح الحمام، سلحفاة ساكنة وسعيدة، لا يظهر منها سوى الوجه وقدم منتفخة بأصابع تركب فوق بعضها البعض.

في الحمام ذي البلاط الأزرق، الواسع كأنه صالون، كان هناك حوضان تعلوهما مرآتان، كل منها مؤطرة بلمبات صغيرة، مثل تلك الموجودة في حجرات هوليود الصغيرة، أو التاج الضوئي للعذراء. وكان هناك حوض كنيف أبيض لامع جدير بأن توضع بداخله الزهور، والبيديه بثلاثة صنابير يمكنها أن تغسل مؤخرات أي شيء حتى الأسماك، وهناك مناشف في كل مكان، ومآزر من كل لون. ثم هناك النباتات الخضراء ، وقطعة أثاث تحتوي على جميع منتجات التجميل الإيطالية والأمريكية. وفي نهاية الحمام ركن لم ينته العمل فيه، والأرضية عارية، وترى خراطيم مقطوعة الأطراف من المفروض أن يصل بها نظام التدليك بالماء، أو ربما ، من يدري، حوض كنيف آخر، حيث يمكن تبادل الحديث أثناء التبرز. تتحرك الجدة ماريا بثقل وهي ترج الماء خارج البانيو متأملة مملكتها الخارقة، من ذا بوسعه أن يتخيل حمام العجائب هذا في مثل ذلك البيت الحقير؟ قليلون يعرفون، ولن يتكلموا عنه.

– كفي – تفكر الجدة ماريا وتشد حبلا يرن أجراسا في جميع أنحاء البيت، الحمام انتهي، والصراصير تصفق.

تدخل تشيتينا وتساعد الجدة ماريا في الخروج من البانيو. تشكرها الجدة بمداعبة مبللة.

– والآن – قالت الجدة – ادخلي أنت البانيو. كأنك أميرة. بل حتى الأميرات ليس لديهن حمام مثل هذا.

- شكرا يا جدتى - تقول تشيتينا.

- لماذا تشكرينني؟

- أليس هذا الحمام هديتك؟

- هذا الحمام اشتراه أبوك من حر ماله. تذكرى هذا دائما.

- ونحن فقط فى البلدة الذين لديهم مثل هذا الحمام؟

- بالتأكيد.

- فلماذا تأتى كل يوم شاحنات بكل هذا البلاط والأحواض؟ اليوم أيضا وصلت شاحنة تحمل بلاطا من بروفنسانو، رأيتهم وهم يفرغونها.

تضحك الجدة ماريا وتضع يدا على فم تشيتينا.

- من الواضح أن السيدة روزا قامت هى الأخرى برحلة إلى أمريكا.

تضحك الاثنتان معا: تفتح تشيتينا الصنبور عن آخره، فتنزل دفعة ماء سريعة جهيرة الصوت كأنها البحر تتلاطم أمواجه على الصخور عندما يصعد المد. لم تعد صراصير الليل تسمع بعد.

٢١

غير معقول ولكنه حقيقى

السيدة جودى أوفلاناجان دى باليموسداف (أيرلندا) عندما استيقظت ذات صباح عام ١٩٦٤، وجدت البيت كله غارقا فى غمامة أرجوانية.

وحاولت مع أختها شينا القضاء على هذه الغمامة بشتى الطرق: هشوها بالملاءات ونثروا عليها الماء وصلوا باللغة الاسكتلندية. مر وقت حتى أدركت السيدة أنه قد وضع طرف قوس قزح ضخم الحجم فوق مسكنها. وكانت الغمامة ناشئة بالتحديد عن إحدى الحلقات متقزحة اللون.

تدخل رجال الإطفاء على الفور ونجحوا فى رفع بضعة أمتار من قوس قزح، ولكنهم اضطروا إلى التوقف بسبب الرطوبة وزحلقة الجدران.

ومن حسن الحظ اختفى قوس قزح بعد وقت قليل، اختفى كما جاء. ولم تحدث أية عواقب وخيمة على منزل السيدة أوفلاناجان، فيما عدا أن

جميع قمصان الزوج اصطبغت بلون وردى خفيف بسبب الحمام القزحى.

وتم تسجيل ظاهرة مماثلة فى الطرف الآخر من قوس قزح، وبالتحديد على بعد ستة أميال فى منطقة تسمى بايليبوروج، فى مزرعة السيدة إدنا أورافيرتى. الاختلاف الوحيد هو أن الهالة هناك كانت صفراء اللون، وأن الزوج، بادى أورافيرتى، مظهرا خيالا فقيرا ومعرفة ضئيلة بالأحوال الجوية، لم يصدق تفسير الزوجة فيما يخص القمصان.

- بالنسبة لى كان عقدا صغيرا ملعونا فقد لونه فى الغسيل - أعلن للصحافة.

وانتقل إلى الموقع على الفور فريق من علماء جامعة بلفاست، لم تنشر نتائج أبحاثهم مطلقاً.

وفى صيف عام ١٩٦٩ كان السيد إريك كارلسون من ليبى (السويد) ذاهبا لزيارة بعض أقاربه فى الدانمرك. وكان قبل سفره قد ربط حصانته الوفية لينيا بسلسلة فى عمود وسط أحد المروج. وكان قد كلف الزوجة كارين أن تطيل السلسلة نصف متر كل يوم، بحيث تستطيع الحصانة أن توسع محيط خطواتها وأن تتغذى على عشب جديد.

وللأسف اختفى السيد كارلسون فى المجهول، بعد أن شوهد بصحبة شقراء جميلة على العبارة التى أوصلته إلى كوبنهاجن. أما الزوجة وهى لا ترى عودته فقد حرصت على إطاعة أوامره وكانت كل يوم

تزيد طول سلسلة لينيا . وهكذا ، وبعد خمسة وعشرين عاما ، التهمت الحصانة كل الأخضر فى جنوب السويد وجزءًا كبيراً من مروج النرويج.

وإذا لم يعد السيد كارلسون فى موعده فإن أوروبا كلها سوف تتعرض لأخطار محدقة، ذلك أن لينيا سباحة ماهرة.

عثر السيد إيبامينونداس ريوس من كالى (كولومبيا) منذ عامين فى بستانه على حبة بطاطا وزنها ستة وثلاثون كيلوجراما ، تزوجها بعدها بستة أشهر.

الراعيان إيفيزيو كوللو من ماراكالاجونيس (ساردينيا) وويلى كاش دى برت (استراليا) هما أول مجربين لمشروع تبادل الأغنام، والذى جاء ثمرة تعاون بين الحكومة الإيطالية والحكومة الأسترالية وشركة يابانية كبرى للأقمار الصناعية التليفزيونية.

فى كوخى الرعاة الخاصين بهما تم تركيب طبق استقبال يمكنهما بكل راحة وهما جالسان على مقعديهما من متابعة الأغنام بالفيديو. كان كوللو يحرس القطيع الأسترالى وكاش يحرس القطيع الساردى، وفى حالة وجود خطر يخطرون الزميل على الطرف الآخر بواسطة إشارة إنذار بالأقمار الصناعية. وفى الحالة غير المحتمل حدوثها بالمرة وهى تعطل الأنظمة فإن المحطة اليابانية هى التى تحرس القطعان. وقد أعطى مشروع تبادل الأغنام نتائج مبهرة حتى إنه من المتوقع أن يتم تعميم المشروع على نطاق واسع قريبا .

السيد جاك (جويو) دبوا من أرل (فرنسا) لديه خاصية غريبة جدا: فهو الصياد الوحيد فى العالم الذى يقلل فى حكاياته من طول ووزن ما صاده. على سبيل المثال بعد أن صاد الشهر الماضي سمكة شبوط وزنها سبعة كيلوجرامات حكى لزملائه فى البار أنه صاد سمكة وزنها أربعة كيلوجرامات ونصف. حالته غير المعقولة هذه وضعها علماء الطب قيد الفحص والدراسة.

٢٢

لارا

منذ أن كنت شابة وأنا أعرف أننى مختلفة. لا تسألونى عن السبب. كنت قد غيرت جلدى مرات قليلة، وكنت أعيش بين الشعب المرجانية تحت سطح البحر بمائة وعشرين مترا.

ومنذ ذلك الوقت وأنا أقضى وقتا طويلا فى عزلة فى حين أن رفيقاتى تطارد وتقطع ذيل بعضها البعض، وتتسلل داخل الكهوف متحدية الأخطبوط، وتأكل الأسماك الميتة بالشوكة والسكين الطبيعيين: المخالب.

منذ ذلك الوقت أتفحص القاع وأرسل إليه موجاتى الصوتية، من حيث تصعد مثيلاتى الكبرى، والأسماك ذات العيون الكبيرة المنيرة والأخطبوط الملفوف.

وكان أكثر مخلوق أحسده هو الحوت، بجسمه الكبير الداكن، والذى كان يستطيع أن يسقط إلى أسفل حتى عمق ألفى متر، ويختفى فى الظلام البارد، ويطير إلى أعلى نحو النور أيضا، ويمر بالقرب منى،

بعينيه الغائرتين، دون أن يراني، لأنني أصغر من أن يرانى، جرادة بحر صغيرة حمراء، لامعة كأننى شعبة مرجانية، ولكن حظى مختلف عن باقى الأخريات. واسمى لارا.

منذ ذلك الوقت وكنت أعرف عمل أشياء أكثر من رفيقاتى. فقد كان رادار هوائياتى أقوى من رادارهم، فكنت أستطيع أن ألتقط جميع أصوات البحر وأن أعيد إنتاجها بسهولة، كنت أستطيع محاكاة غناء الحوت، وضحكة الدولفين، وكنت أنجح فى تقليد الصفير المهدد المتوعد الذى يصدره الأخطبوط وهو يسبح بقوة الدفع، وأحيانا ما كان هذا الصفير يرعب رفيقاتى وهو يصل من بعيد. ولكننى لم أكن أستخدم هذه القدرة من باب الاستعراض. ولم تكن لعبة، وإنما هى جزء من حبى لمعرفة هذا العالم الواسع، والذى لا يزال لابد من اكتشافه كله. لم يكن يكفينى من العالم نصفه، منطقة الشعاب المرجانية وشقائق النعمان البحرية وصفوف أسماك المرجان البطيئة وهجرة أسماك التونة. كان الاستكشاف يعجبنى، فوق وتحت، أسرار النور والأعماق الغامضة.

كنت أذهب كثيرا إلى الجانب الداكن من البحر، كنت أنزل على طول الحائط البحرى حتى أخذ الضغط يشد صدفتى ويثنيها، وحتى أصبحت أسمع الغضاريف تطقطق وتئن. (ربما سمعتم مثل هذا الصوت وأنتم تقومون بسلق بعض منها).

كنت أسبح ناحية الظلمة، وكنت أقابل أسماكا لم أرها فى حياتى قط، فرادى أو فى جماعات وأسراب، مثل جماعات الجمبرى وأسراب

الكالمارى. رأيت البيلاكادون المضيء يمر أمامى كأنه انعكاس لضوء الشمس، تطارد صورة داكنة لها أجنحة ربما كانت لشيطان البحر، وخلفها مر شيء أكثر ضخامة، مما جعل الماء يدوى وكذلك هوائياتى، لأن هذا هو القانون الأول للبحر:

لا أحد أكبر من أن يقابل ذات يوم أحدا أكبر منه.

أوه، كنت أنا صغيرة. ليس أكثر من عشرين سنتيمترا، ولم تكن لى مخالب قوية مثل مخالب الجمبرى العملاق، ذلك المخلوق المتسلط المائل للخضرة المستعد دائما لأن يشتبك معنا ويخلع لنا مخالبنا. لم أكن أعرف أيضا أن أقارن نفسى بصرصور الليل القديم، لم أكن أختبئ فى الرمال مثل الضفدع الصياد، وليس لدى السواد الذى يدافع به الحبار عن نفسه ولا أنياب ثعبان البحر، ولا أذرع الأخطبوط. كان عندى صدفة، ولكننى كنت محاربا بائسا جدا. آكل لحوم الموتى. ولحظى التعس كنت أنا نفسى لحما ثمينا.

ذات مرة نزلت حتى أربعمائة متر وقابلت الجرادات البيضاء. كنت قد سمعت عنها ولكننى لم أرها قط. كانت أكبر منى، خمس أو ست مرات، وكانت تتحرك كأنها أشباح. بعضها كان شفافا حتى إننى كنت أرى السائل الليمفاوى فى حوافرها وفى هوائياتها وحتى العينين. كانت ترقص (كانوا قد حكوا لى هذا من قبل)، كانت تسبح فى دائرة بضربات بطيئة من الذيل، وهى تسير على مسار ينزل حلزونيا. كانت تسمع

موسيقى التيار، تيار الكالمارى البارد الذى كان يعبر الماء الفاتر فى ذلك الموضع، يكاد يكون بحرا داخل بحر آخر.

فهمت على الفور سبب هذه الرقصة: ففى وسط هذه الدائرة كانت هناك جرادة أكبر من الباقيات. لم تكن تضرب بذيلها، وإنما تحرك فقط أذنابها وبطنها لأعلى: كانت تحتضر، وكانت الأخريات يرافقنها نحو الأسفل. كانت المحتضرة الكبيرة تنزل ببطء وتحوم وتترك نفسها تمضى: لا شىء بدا لى أحلى من هذا الهبوط الملائكى. ولكن بينما كنت أعاود الصعود، فهمت أنه بنفس الطريقة كنت أحب الضوء فوقى، الهبوط كالدوامة نحو سر آخر.

عندما عدت ضحكت منى رفيقاتى. كان البرد قد غطى صدفتى بدهان داكن، وكانت هوائياتى ترتعش. سألننى ما إذا كنت قد رأيت الكركن الذى يماثل طوله سبع سفن، أو الجمبرى الذئب الذى يشق الجراد نصفين يأكل النصف ويحتفظ بالآخر، أو ما إذا كنت قد عثرت على جثة بحار تصلح للأكل. وقالت واحدة: قلدى لنا غناء التشيلاكادونت. أما أنا فلم أعرهم أى اهتمام.

كنت قد غيرت صدفتى عشر مرات أخرى، عندما تلقيت فى النهاية الإشارة من القدر. فبينما كنت أراقب الشراك الغادرة لضفدعة صيادة مختبئة فى الرمال أدركت أن هناك شبكة ضخمة معلقة فى الماء. أوه، هذه المرة ليست مرتى أنا. كنت قد رأيت كثيرا صديقاتى البلهاء يهرولن إلى الأسماك الميتة المتعلقة بالشباك، وكنت أدير وجهى عندما كنت أراهن

يسقطن أسيرات، وهن يهتززن فى صراع بلا طائل، وتبتلعهم براغيث البحر حية وتتأرجح على الجدران الحبلية. ولكن هذه الشبكة كانت مختلفة: فخلفها ظهر لى لأول مرة إنسان. كان أسود كله وله زعانف طويلة. كانت أعرف إن هذا ليس هو مظهره الطبيعى، ولكنه نوع من التنكر يمكنه من الدخول إلى عالمنا. ومع هذا لم يبد كثير الاختلاف عن المخلوقات البحرية. خلف وراءه مسارا خلابا من لالئ الهواء، بعضها صغير سريع والآخر كبير ضخم، مثل رئات البحر التى تطير نحو الأعلى.

تعلمت على الفور أن أقلد أصواتهم، فرقعتهم الخفيفة. وفهمت على الفور ما الذى يهتم به الإنسان. كان يبحث عن المرجان، قريتنا الشجرية، البيت الذى يعيش فيه معا ملايين من الحيوانات الصغيرة. كانت هناك غابة من المرجان، التى كنت أعرفها جيدا، فوق صخرة مستديرة مثقوبة بمغارات أسماك المارو. استلزم الأمر سنوات وسنوات حتى يكتمل بناء هذه الغابة. والآن ينزع منها الرجل أغصانها ويضعها فى شبكة صغيرة. كان فى وضع أفقى على القاع، فى نفس وضع الأسماك، وهو يحرك زعانفه ببطء، ويعمل بهدوء. كانت الشبكة بينى وبينه. ولهذا لم أفزع عندما رأيته. ربما لو لم تكن الشبكة موجودة لكنت هربت، وربما لم أهرب. ولكن الشبكة كانت موجودة، وكانت حائلا حتى بالنسبة له.

اقتربت، إلى درجة تجعلنى أستطيع أن أرى عينيه، خلف الحائط الشفاف لدرعه. نظر لى بدوره وبيده قام بمحاولة سخيفة للإمساك بى مارا من بين فتحات الشبكة. فكرت فى أنه قد يكون مضحكا أن يعلق هو الآخر فى الشبكة مثل أية جرادة بحر حمقاء، ساعتها كنت سوف أشارك أنا أيضا فى الوليمة، لم آكل فى حياتى بشريا، ولكنه فى النهاية لحم، ليس أكثر، وبعد قليل سوف ينتن وتنبعث منه الرائحة الكريهة مثل الجميع.

تراجع سريعا عن محاولته وعاد إلى عمله. ثم اتخذ وضعا جديدا كانت فيه الزعانف لأسفل والرأس لأعلى، وصعد ناحية الضوء. تبعته أنا، كان يمضى سريعا ولكننى نجحت فى اللحاق به. أدركت أنه ينظر لى بدهشة. ثم انتهت الشبكة التى تفصل بيننا، لم تعد سوى بعض الحبال الطويلة بيننا، ولكن الرجل لم يأت بأية محاولة للإمساك بى، وفهمت أنه كان يتعجل الصعود، وأن البحر فى تلك اللحظة يخيفه. فجأة توقف وقد علق بأحد الحبال الملقى من الأعلى، حيث يمكن أن نرى بوضوح بطن قارب أبيض، توقف كأنه تبلد.

نزع عن ظهره الآلة التى كانت تسمح له بالتنفس وإصدار الفقاعات، ومن الأعلى أنزلوا له واحدة أخرى. الآن أصبح ثابتا ويتنفس بهدوء. ربما لم يكن يريد أن يصعد لأعلى، وأنه هنا على ما يرام. تحركت ودرت حوله. كنت أفكر فى أننا يمكننا أن نعقد صداقة فيما بيننا. ففى نهاية الأمر كنا نحن الاثنين فى منطقة وسطى، حيث لا يوجد القاع

المظلم والضوء ليس مبهرا بعد، وحيث يمر التيار فاترا، حيث تلعب الدلافين. وهكذا حاولت عن طريق هوائياتي أن أختبر مدى تماسك إحدى زعانفه. كان هو ينظر لي ويبدو مهتما بتحركاتي. رأيت في يده لوحا أسود، يسجل عليه بعض العلامات. ربطه في حبل وشد فصعد اللوح ناحية الضوء. هو الآن ينتظر شيئا ما. من الأعلى هبط شيء مستطيل. في اللحظة الأخيرة بالتحديد رأيت فيه خطافا وثلاث أسنان، وأدركت وجود خطر محدق فهربت. صفر الخطاف إلى جواري بكل ما فيه من شر وأنهى مشواره بوثبة عنيفة.

ليس سهلا عقد أواصر الصداقة مع الإنسان، كان هذا ما قالته لي الدلافين، ومع هذا فقد أردت أن أجرب. ولكن ذلك اليوم فهمت أيضا أن قدري يأخذني إلى أعلى، إلى عالم النور.

وتحقق المصير، بعدها بعشرة تغييرات للصدفة. أصبحت جرادة كبيرة ومحترمة، وأصبح عندي ثلاثة آلاف ولد ، حتى وإن كانت اثنتان أو ثلاث فقط هي التي نجحت في أن تكبر. كنت شديدة الخبرة والسرعة في الهروب من أي أخطبوط، وأحيانا كنت أمشي في خط متعرج بلا حذر خلال الأذرع الطويلة له. كما أنني لم أكن أخاف من المشاجرات مع الجمبري الكبير. فلم تكن هذه المشاجرات لتطول كثيرا: لأن زيادة الإحساس بالأمان أكثر من اللازم ليست هي الطريقة الصحيحة للنجاة في البحر.

وهكذا فى أحد الأيام وبينما كنت أسبح إلى الخلف، أحسست بالقرب منى بالحضور المعادى للشبكة. نظامى الردارى كان قد أنقذنى من العديد منها، وتلك الشبكة كانت فتحاتها شديدة الاتساع: وأردت أن أحس بقشعريرة السير بداخلها. ونجحت فى هذا. ولكن خلف الشبكة الأولى كانت هناك شبكة أخرى أكثر خفة. لحظة فزع قصيرة فقط ثم جادلت مع نفسى وأنا أنزع مخلبى، فهدأت. تعلقت أسيرة أنتظر مصيرى. لم يكن على أن أنتظر كثيرا. وفروا على عضة براغيث البحر. بدأت الشبكة تتحرك. رأيت أنها تتجه ناحية مشرق الشمس، وأن البطن الأبيض للقارب آخذة فى الاقتراب. وعندما أصبح قريبا زادت سرعة صعود الشبكة. لم يكن هذا جميلا. حتى ولو كانت جرادات البحر تتحمل القفزات الكبيرة فى الضغط. الخوف من هذا الصعود ناحية الضوء حطم صدفتى، وملأ قلبى، الذى لم يعد فى جوفى.

صعدت أكثر وأنا مذهولة. ارتطمت فى حائط المركب. أعمانى النور، وفقدت وعيى. ثم أحسست بمخالب تخلصنى برقة من الشبكة. ورأيت. رأيت عالمكم، أو جزءا من عالمكم، رأيت الأسماك تحتضر حولى وقد انفجرت مثانة السباحة فيها. رأيت أربعة أو خمسة بشريين، رأيت كيف كانوا فى الحقيقة، لم يكونوا يشبهون أى مخلوقات بحرية، ربما فى الوجه يشبهون السلحفاة. وضعونى فى ماء عفن فى علبة معتمة، مع أربع أو خمس من رفيقاتى، وجميعهن يبكين ويولولن ويطرحن أسئلة عبثية من نوعية: والآن ماذا سيفعلون بنا؟ فى قاع الوعاء كان هناك

جمبرى كبير. كانت مخالبه مربوطة، ربطه البشريون، حتى لا يؤذينا، وحتى لا يدمر لحمنا الرقيق. شتمنى. تبولت على وجهه.

وأود الآن أن أجرب أن أقول لكم أين أنا الآن. فى "ثلاجة"، هذه هى الكلمة إذا كنت قد فهمت جيدا. ما زلت حية حتى وإن كنت مشوشة ومثلجة. غيروا مكانى أكثر من مرة، وعشت شهرا فى مكان يسمونه وعاء الحفظ، مع مائتى رفيقة أخرى، وبعض الجمبريات الكبيرة بعد أن وثقوا أطرافها، ومع سمكة ميرو مسخوطة. ثم ذات يوم "أشتريت". رئيس حلقة السمك، رجل كان يسمينا "راقصات البالية التى تخصه"، دخل علينا ومعه رجل آخر، رجل كان يتكلم بأهمية (الصوت عند البشر يحدد الدرجة الاجتماعية). نظرا إلينا جميعا، واحدة واحدة، واختارانى وأخرى نسميها "البدينة". ألقيا بنا فى كيس من البلاستيك واحدة فوق الأخرى، والبدينة لا تكف عن البكاء وتسألنى ما إذا كانوا سوف يقتلونها شفقة لأنها لا تريد أن تعانى. بدينة ومأساوية. ثم حملنى الرجل إلى بيته، وهناك انفصلنا فى هذه الثلاجة. وضعوا السمينة، التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، فوق، فى قسم تأتى منه ريح متجمدة. وأنا وضعونى فى علبة كبيرة من الزجاج مع جثة قاروس وزنها ثلاثة كيلوجرامات. أرقدونى فوقه، كان فراشا كبيرا متجمدا ورطبا إلى حد ما. وانتظرت.

فى تلك الليلة أخذوا البدينة فأطفأت الرادار. لم أكن أريد أن أسمع شكاواها ورغباتها التى توصى بها قبل أن تموت. أعدت فتح الهوائيات للحظة فقط. فقالت لى: إن البشريين سوف يجعلونك من فرط رحمتهم

تموتين فى عنصرك: الماء. ثم سمعت بوضوح الرسالة: "النجدة، ما هذا الحر!!". ثم، انتهى كل شىء، وداعا أيتها البدينة. نمت الليل كله، بينما كانت الثلاجة تطن، وبين الحين والحين يفتح رجل يتصبب عرقًا بابها ويخرج منها زجاجة ماء وسوائل لها ألوان مختلفة. وفى لحظة معينة نظر نحوى أنا أيضا. كنت ساكنة مرتابة. عندئذ سحبنى من أحد هوائياتى. تحركت. قال أحسن أنها ما تزال حية. يا له من قلب طيب. الآن أفهم كل ما يقولونه وكل صوت وكل ذبذبة، وأسمع أحاديثهم كلها.

حسنا، الآن يكتمل مصيرى. أخذونى، وربطونى، وأخذنى صاحب البيت إلى غرفة الموت، وأمسكنى أمامه بذراع مفرودة كأنه يقدم قربانا أو أضحية. وها أنا فى قاع الطنجرة الميتة، والدخان الذى يصدر، وأربعة أشخاص يطلقون صيحات زائفة، يا ربى، يا لها من مسكينة، كنت أسمعهم يقولون هذا، وامرأة تظاهرت بأنها لا تريد أن تنظر، ولكنها تسترق النظر، وأخرى تقهقه، يبدو أنها تسخر منها، ورجل يتخذ مظهر الجدية لكى يؤكد على أنه ليس ساديا وإنما هى قوانين الطبيعة، أما الرابع فكان أحمر الوجه مستثارا ومن الواضح أن المشهد كان يعجبه. أحسست بحرارة شديدة وصرخة أخرى صغيرة من امرأة وحانت من الجلاد لحظة تردد، يعرف أنه ينبغى أن يبقرنى بضربة واحدة وإلا أحرقته بضربة ذيل. تجهز لقتلى، فحبس أنفاسه، وحبس الآخرون أنفاسهم، وتوقفت الشمس فى السماء وتوقفت الأمواج فى البحر، أفهم أن لحظة الصمت الكونى هذه هى ما أنتظره. أرفع هوائيا، كأنه إصبع

مرفوع نحو وجهه، أقول له وأنا أقلد الصوت البشرى بنغمة جهورية مفرقعة:

– ولكن هل تؤمن حضرتك بالتناسخ؟

والآن هم وشغلهم. أنا من هذه اللحظة لن أتكلم بعد. ومع هذا جاء العلماء وجاءت قنوات التليفزيون من جميع أنحاء العالم. لو أننى فهمت الكلمة.

٢٣

عذراء العنب المسكى

مثلما عندما نعثر على ملاذ فى بهو لأحد القصور العتيقة من الزحام الهادر للحشود والتدافع بينها بالمناكب، ومن هناك إلى قاعات متحف هادئة، بينما تصل من بعيد أصداء الأصوات الأخيرة لنفير السيارات وصرخات البشر. ونقترب من لوحة، منظر طبيعى أو وجه، وتغرق أرواحنا فى ذلك الجمال الصامت، نهدأ وننسى ما كان قد جرحها فى السابق. مثلما نغلق وراءنا باب صومعة، مثلما نترك كوكبا للرحيل إلى كوكب آخر. هكذا فعلنا، فبعد أن تركنا الاختناق المرورى فى الطريق السريع، والطوابير على فنجان قهوة خفيف، وأبخرة البنزين، وقذف الحجارة من الجسور، والتسلط الهادر لحافلات النقل العام، والضجيج المزعج للطائرة العمودية التى تطير فوق رؤوسنا، بعد أن تجاوزنا محطة تحصيل الرسوم، بعد عدة انحناءات بسيطة فى الطريق، تسلقنا طريقا فى بيديمونته تفصل عن يمينها حقولا متماوجة هنا وهناك تتخللها قرى صغيرة خلابة، وإلى اليسار جبال خضراء مشجرة تواكب

المسار العشوائى لنهر نيفو، بين قلاع حجرية وأديرة تقبع فوق التلال المنحدرة، كانت تجعل مسيرتنا صاعدة متسلقة، وتجعل الهواء أكثر نقاء.

هكذا ابتعدنا عن عالمنا السابق نحو الصمت والعزلة، نحو الزمن الخالى من الزمن للمدن العتيقة.

وبفضل مرشد قدير معنا، هو تيرسيته، كان قد عمل فى هذه الأنحاء قبل سنوات بائعا للكتب بالتقسيط، دلفنا إلى جسر صغير يعبر حوضا أخضر يلتمع بالماء، وبالتدريج دخلنا واديا جميلا أخضر يقطعه نهر نيفولو، وهو فرع قوى التيار من نهر نيفو.

صادفنا سلاما وسكينة وظلالا. الصوت الوحيد هو سقوط ثمرة صنوبر فوق سقف السيارة. الشمس، وهى تبزغ بين القمم دائمة الخضرة، كانت تسقط على الزجاج الأمامى للسيارة فجأة فتكشف اتساخه القادم به من المدينة.

- فلنغسله - قال تيرسيته بعزم مفاجئ. وهكذا توقفنا فى مكان مناسب فسيح مغطى بالعشب، حيث كان خلفنا تل صخرى مغطى بأشجار الكستناء، من قمته ينهمر جدول ماء خفى وشقى، من أحفاد نيفولينو، يمارس لعبة التخفى، ولكن أحذيتنا أدركت على الفور وجوده، حيث كانت الأرض من حولنا مليئة بالطين بوفرة.

أمامنا امتدت رقعة متعددة الألوان من المزروعات على شكل شبكة من الفواصل بين الحقول تمتد حتى النهر، خلفها صخرة عملاقة تصعد فجأة وتنتصب فوقها قبلتنا التى نقصدها: سان كريسبينو، مدينة من العصور الوسطى، بها خزائن من الكنوز الفنية التى لا تقدر بمال.

قال تيرسيته بجدية وهو يتبول على ورقة سرخس متماوجة: لابد أن نتفق أنه لا يمكن أن نقابل مثل هذه المناظر الطبيعية على مسافة قصيرة إلى هذا الحد من المدينة إلا فى بلدنا فقط.

وافقته زوجته كلوريندا - بالفعل، تخيل أنه من هنا لا تلزم إلا نصف ساعة للوصول إلى محطة-مطلع إلجرتشو، فى إطار من الغابات الطبيعية والساحات التى افترشها الجليد. ومع هذا فيمكن بالمثل خلال نصف الساعة النزول إلى البحر، وهناك حيث الكثبان الرملية التى تنمو فوقها أغصان إكليل الجبل وأعشاب برية، تظهر لنا معدات بافونشيللو الحمامات البحرية حيث يمكن التسوق الذى لا يوجد له مثيل فى المدن الكبرى، بخلاف الحمامات والعلاج بمياه البحر.

وقاطعته زوجتى فيلافيا: ومع هذا فإن هذه الأشياء ترتبط بروتين الإجازات، وبما اعتاد على رؤيتها السائحون. بينما ما يوجد هنا فريد من نوعه، فهنا تركيز للأبراج ذات الشرفات الفريدة من نوعها والآثار الرومانية، المليئة بالمقابر الأنيقة، ومعابد أهل فولشى والأديرة القوطية والشسترسنسية. تخيلوا أنه لا توجد هنا غرفة أو جدار أو كنسية لا تحتوى على عمل واحد على الأقل من أعمال جوتشولى

أو تورناساكو أو بيناريكيو أو تورنيللى، والحلو فى الآخر وهو مقصدنا، تمثال عذراء موسكاتو.

قلت: بهذه المناسبة أريد أن أذكر أنه فى محيط عدد قليل من الكيلومترات المربعة تركزت هنا بعض من أفضل منتجاتنا الغذائية الإقليمية والقومية، وأعنى بهذا فطر عش الغراب بأنواعه، والخرشوف، والبيض، واللانشون، وبسطرمة مونجيرلو، ومشروب الأماريتى من ماركة جـوالدينو، ولدائن نالدى ونبيذ جـوديو دى بونزيانو، ولا ننسى سانجوسيبه، ذلك الطبق من لحم رأس الثور والذى يعود اسمه إلى...

انهمرت ضحكة جماعية. أوه، من المؤكد أن هذا التقليد الأعمى للغة المرشدين السياحيين كانت له نكهة المتعة الثقافية المبهجة، ولكنه كان فضلا عن هذا تعبير عن إحساس طفولى بالحرية، بالارتياح من جراء الوجود بعيدا عن قبائح الحرب الأهلية فى بلدنا، والتواصل مع تاريخه وفنه، والاستغراق فى جمال لم تعد الغالبية للأسف تحس به، بعد أن ضللتها المنومات الإعلامية.

كانت كلمة السر التى أطعناها جميعا: ويل لمن يشترى صحيفة!

وقال تيرسيته وهو يواصل رى أوراق السرخس؛ لأنه كان يعانى من ضعف فى البروستاتا: أكاد أجن عندما أفكر فى أنهم ينفقون الملايين من أجل زيارة معابد بسيطة غريبة ومناظر طبيعية استوائية دون أن يعرفوا أن لديهم على مرمى حجر من بيوتهم كل هذا الجمال الذى يحسدنا العالم كله عليه...

فجأة صرخت كلوريندا وهى تندفع مأخوذة برغبة معربدة فى طريق ضيق ينتهى إلى ظلام الغابة: النافورة، النافورة.

سرنا وراءها نلهث، لأن الدرب الذى سلكته كان طينيا تملؤه الحفر، وبالفعل سرعان ما وجدنا كلوريندا ممددة على الأرض. ففى محاولتها عبور قناة صغيرة قطعت عليها الطريق، أساءت تقدير القفزة فانزلقت فى الطين بائسة. ولكنها لم تكن تشكو، رغم أن سترتها الصوفية الأنجورا الثمينة قد خرجت من هذه المغامرة مشبعة بالطين.

تقدمنا، ونحن نتنفس بملء رئاتنا. وحولنا كانت تظهر هنا وهناك زهور بخور مريم وثمار الكرز الشتوى، ومن فوق رؤوسنا مرق طائر الذيال(*) ليختفى فى الغابة.

- ذيال، ذيال. تبادلنا المعلومة وكل منا يصرخ للآخر مستثارا، ذيال، ذيال، ولم يكن يهمنا أننا نعبر جميعا عن نفس الحماس لنفس

(*) هذا الطائر فى الإيطالية هو fagiano وقد اختلفت المعاجم العربية فى وضع المرادف العربى له، فهو فى بعض المعاجم الذيال، نسبة إلى ذيله الطويل ذى الريش الملون وهو ما يطابق وصفه فى المعاجم الغربية وكذلك الصور المنشورة له. وفى معاجم أخرى جاء باسم الحجل والحجل فى المعاجم العربية أشبه إلى الحمام أحمر الريش طيب اللحم. وفى معاجم أخرى جاء باسم تدرج، ومنه أنواع برية وجبلية. وسوف يأتى ذكر الطائر نفسه فى عنوان ومتن قصة قادمة، وقد أخذنا باسم الذيال مراعاة للأصل الإيطالى والسياق الذى يفترض أنه طائر برى نادر.

المنظر وأنه ربما كان أمرا تافها جدا أن يصر كل واحد على الإشارة لجاره بالمكان الذى خرج منه الطائر كثير الريش، ذيال ذيال، ولكن الفرحة التى منحها لنا هذا الحدث غير المعتاد جعلنا لدقيقة كاملة نصرخ بأعلى صوت: ذيال ذيال، فى صوت يعلو ويعلو يلاحق طيرانه، حتى تأكدنا أننا جميعا شاركنا فى المغامرة مشاركة مناسبة.

بعدها بدقائق رأينا النافورة. كانت عبارة عن حوض واسع من الحجر، له برج صغير عليه صنبور، فى وسط ساحة كالحة العشب. كانت هناك كأنها هيكل مائى تؤطره شرائط مزخرفة بنباتات الزينة ومظللة من أعلى بواسطة قوس كبير من الزهور الصفراء لها بتلات ذهبية. من الماسورة كان يخرج رشاش ماء ضعيف مشابه لذلك الذى كان يخرجه تيرسيته. فى ماء الحوض الذى كانت تفوح منه رائحة العطن كانت تطفو عليه فراشات ودبابير متنوعة، فضلا عن بتلات الزهور وأوراق شجر مختلفة الأحجام، فى خليط من السوائل والمخلفات الذى كان له أن يسحر مونيه أو باشيلار، حساء راكد فاتن من النوع الذى تراه فى اللوحات السابقة على رافائيل، لن ندهش أن نرى جثة أوفيليا تطفو عليه شاحبة جميلة.

آه، أيها المكان الكريم للقاءات الحب والغرام بين حوريات وفرسان الآلهة الإغريقية. كنت على وشك أن أقول هذا عندما أدركت وجود أشياء طويلة مطاطية لم ترد عنها أية إشارة فى النصوص الإغريقية، أشياء تليق أكثر بإله الزراعة وليس بإله الحب والخصوبة. وبينما كنت أراقب

زوجتي وهي تسحب دون وعي منها إحدى هذه الأشياء بكعب حذائها طرح تيرسيته مشكلة ركزنا تفكيرنا فيها جميعا.

في الواقع كان يبدو مستحيلا من الوهلة الأولى الارتواء أو الحصول على الماء من ماسورة الماء، لأن البرج الصغير كان مرصعا بالصخور الناتئة، وكانت معزولة عنا بواسطة الاتساع الكبير للحوض والذى كان واضحا أن ماءه ليس صالحا للشرب. وكان خيط الماء من الضعف بحيث لم نكن تستطيع أن نتلقاه على شفاهنا لو مددنا جزوعنا عبر الحوض.

ولكن تيرسيته، الذى كان مكابرا عنيدا، وقد اعتاد على بيع الموسوعات لغير المثقفين، صعد إلى حافة الحوض، مستندا عليّ وحاول أن يمد جسمه فوق الماء كأنه عارضة خشبية على مركب أو لوح القفز الأوليمبي، وقد قام بهذا بمنتهى النشاط حتى إنه أفلت من يدى التى تسنده فوجد نفسه وقد تعلقت يداه بالبرج الصغير للنافورة، وقدماه على الجانب الآخر من الحوض، كأنه قنطرة مقوسة.

معنى هذا أنه أصبح في وضع من الصعب جدا الخروج منه نظريا وعمليا، فلو أنه ترك يديه فسوف يغرق في الحوض من ناحية الرأس، وإذا ترك ساقيه سوف يسقط بالجزء السفلى من جسمه. عندئذ جربنا خطة عبقرية فأخذنا فرعا ضخما وأمسكت به أنا من ناحية وزوجتانا من الناحية الأخرى، ومررناه تحت بطن تيرسيته، وبدأنا بجهد شديد نرفعه على أن نستطيع تدريجيا إعادته إلى وضع مستقيم على حافة الحوض.

ولكن لنحسه انكسر الفرع وأفلت، وتمدد تيرسيته فوق الماء مثل جثة أوفيليا .

لا خوف، فقد ذهب كل شيء طي النسيان بعد قليل. ودخلت سيارتنا مزهوة بالنصر إلى مدينة سان جرسبينو من خلال قوس الاباردييرى، ثم تسلقنا طريقا صغيرا يعود إلى القرن السابع عشر، يؤدى إلى ميدان كنائس كويفي. وبالفعل كانت تطل على الميدان كنيسة سان كريسبينو بياجاتو، الشهيرة بجزئها السفلى وببيت القربان، وكنسية سانتا زينوبيا ديكوللاتا، وهى هدفنا الأساسى، بما تتميز به من جداريات توروناساكو، ومجموعة الصلبان المتنوعة على المائدة، وأهم ما فيها: تمثال العذراء بالعنب المسكى.

صعدنا في مواجهة شعب ضيق دائرى كنا نستطيع من خلال جداره الخارجى أن نرى كيلومترات وكيلومترات من التلال الصغيرة المتماوجة. شغلتنى رؤية البانوراما عن إدراك أن الشارع يصبح أكثر ضيقا، وأنه كان يفتح فيه دكان للتذكارات الذى يعرض من خارجه رماحا، وعصياً مدقوقة، وكان أهم ما يعرضه نموذجا كاملا للتسليح مستوحى من تسليح الزعيم بينوتسو دى بونكونتو، القبطان التعيس الذى اشتهر بتحقيق الانتصارات ومعها حوادث الاغتصاب واقتلاع أعضاء الجسم، والذى كان القديس كريسبينو هو الذى منحه شرف الولادة. مرشدنا الفطن بعد أن صدم هذا النموذج بركبته، تسبب فى تفكك أجزائه تماما وانهياره، ولأن الشارع كان منحدرا انحدارا شديدا

فقد بدأت هذه الأجزاء تتدحرج بعنف، أحدها على نحو خاص، وهو الدرع بالخوذة، انفصل عن الصدرية، وسمعناه يرتطم إلى أسفل بنحو مائة متر فوق شيء صلب، اكتشفنا فيما بعد أنه سقف الأوتوبيس المخصص لأطفال القرية، وكان لحسن الحظ فارغا.

رغم أن أحدا لم يخرج من الأبواب منزعجا ولا أحد أطل من النوافذ غاضبا، إلا أننى توقفت. ولكن تيرسيسيته أقنعنى بأن تقديم المبررات اللازمة وما يلحق بذلك من مشاكل قد يفسد يومنا كله. وقد كان من الصعب فعلا تحديد ما إذا كانت هذه الكارثة سببها مرشدى أو لأن صاحب دكان التذكارات قد بالغ فى الدعاية عن محله فوضع فى عرض الطريق واحدا من أهم معروضاته معرضا إياها للخطر.

لهذا عدنا إلى المسير بعجلة من لديه إحساس بالذنب، ونحن ننظر وراءنا خوفا من أن يكون هناك من يطاردنا: لكن البلدة كانت تبدو مهجورة، حتى وصلنا إلى ميدان أحلامنا دون حوادث أخرى.

استقبلتنا الكنيستان وهما تتسابقان فى صرامة جمالهما، كأنما تتنازعان على شرف زيارتنا الأولى. من آخر الميدان ظهر الشريط البانورامى للوادى المشجر المتماوج، كأنه لوحة فنية معلقة فى الهواء، لها إطار من جدارين وفرع شجرة جوز مقوس. ومن الناحية الأخرى (بدا لى أن هناك أربع نواح) لاحظنا وجود مطعم "طائر الذيال" الذى تحمل لافتته رأس ذيال ذكر يزينه درع عسكرى بندقى وفى منقاره قائمة طعام مكتوبة بخط قوطى.

ظللنا هناك حائرين بين ضروب الجمال الكثيرة. اقترح تيرسيته أن يكون أول ما نفعله هو الذهاب لتناول اللازانيا بحوائج الأرنب، ثم زيارة الكنيسة، ثم عمل جولة فى المدينة بحثا عن صحيفة رياضية (حسب رأيه لم تكن داخلة فى الاتفاق) وآخر شىء هو زيارة عذراء العنب المسكى.

أما أنا فقد اقترحت على العكس البحث عن محطة بنزين لأننا أصبحنا بلا وقود تقريبا، ثم بعد ذلك نزور الكنيسة، وبعدها العذراء وننهى اليوم أمام طبق من الفقع وعش الغراب مع الحلوى.

وقدمت كلوريندا اقتراحا مغايرا وهو أن نذهب على الفور لرؤية عذراء العنب المسكى، ثم الكنيسة، ثم تناول سلاطة الجرجير ثم البنزين فالتسوق.

واقترحت زوجتى البرنامج التالى:

أ) الدير

ب) بقايا قلعة حكام بسكوسنيجو (وفى هذا أظهرت أنها أكثر اطلاعا منا).

ت) العذراء قبل أو بعد الأكل

ث) البنزين

وانتصر برنامج زوجتى، ولكن ليس بدون بعض الامتعاض من تيرسيته الذى كان يتعذب من افتقاده للصحيفة الرياضية التى يعرفها على أنها "الجرعة اليومية الضرورية للتحرر من الالتزامات ".

وعلى هذا بدأنا نتحرك نحو كنيسة سان كريسبينو بياجاتو، حيث وجدنا بوابة مغلقة ولم نجد أى أثر لمواعيد الفتح. طرقنا البوابة دون جدوى. ولكن كلوريندا اكتشفت خلف الركن الشرقى جزءا من السور مفتوحا على حديقة عشبها مرتفع رأت أنه يمكن الدخول من خلاله إلى الدير وسؤال الرهبان المحترمين عن سبب هذا الإغلاق غير المتوقع مع العلم بأن الدليل يقول:

"الزيارة مسموح بها جميع أيام السنة".

دخلنا بسهولة، رغم أننى اضطررت برعونة أن أزيح بعض الأغصان الشائكة بيدى، ووجدنا أنفسنا أمام باب آخر عتيق جدا ومحكم الإغلاق.

عند هذه النقطة أظهر تيرسيته علامات نفاد الصبر، وهو يهز بقوة مصراع الباب رغما عن نهينا له معبرا بأعلى صوته وبكلمات عديمة اللياقة عن حقه السياحى فى الدخول إلى الدير. قاطعه نباح خلفه.

من بين الأعشاب الطويلة خرج، لا أحد يدرى من أى منعرج أو مغارة أرضية وتقدم أضخم وأشرس كلب رأيناه فى حياتنا وأكثرها عدم ألفة بالناس. كان وسطا بين الذئب والخنزير، له عرف خشن الشعر

وأنياب كبيرة، وتفوح منه رائحة مرعبة تصل إلينا ونحن على بعد عشرة أمتار. كان ينبح بقوة جعل من الواضح لنا جميعا أننا أمام حارس الحديقة. لم نكن نستطيع أن نهرب لأن الوحش كان يحول بيننا وبين فتحة السور، ومن ثم رحنا نجرب جميع الوصفات المضمونة للترويض.

فقالت كلوريندا على سبيل المثال:

"كم هو كلب جميل كبير أسود..."

ولكن الخوف والكذب فى صوتها كانا من الوضوح بحيث إن الكلب غير المقتنع بالمرة زاد من حجم التهديدات، بل وتقدم للأمام أكثر.

تيرسيته، كمحارب حقيقي، اقترب من شجرة وحاول أن يقطع منها فرعا لكى يستخدمه سيفا، أو هراوة، ولكن الشجرة أبت أن تعطيه شيئا منها. واصل الكلب جهوده بعناية ثم تقدم بعزم نحوه، تسبقه رائحته الفظيعة تلك.

تراجع تيرسيته إلى الخلف وقد سحق الزوجة على الجدار. عندئذ تذكرت أن لدى بعض البسكويت فى حقيبتى الصغيرة، فرميت له شيئا منها، كأنها عملات ذهبية، على بعد متر من فمه. تشممها الكلب وبدا أنه أحس بالإهانة البالغة، بل إن محاولة رشوته هذه جعلت الدم يغلى فى عروقه فكشر عن أنياب جديدة ظهرت خلف شفته وبينما كان تيرسيته يصرخ فى تخاذل مفاجئ بسلسلة سريعة من كلمة واحدة مكررة "النجدة!" وتهيأ للقفز، صدر صوت هادئ:

- اهدأ يا بولبيتا!

عندئذ توقف الكائن المتوحش.

ظهر لنا فى تلك اللحظة رجل قصير القامة أصلع قدم نفسه على أنه مدير مطعم "الذيال" وأبلغنا بمدى خطورة اقتحام مملكة بولبيتا، والذى كان فى حقيقة الأمر كلب الحراسة الخاص بالمطعم، وهذا هو ما يفسر ضخامته ورائحته (كان شرها فى أكل البصل) ورفضه للبسكويت.

أما فيما يتعلق بالكنيسة فقد شرح لنا كيف أنها مغلقة لأنه فى إحدى القرى فى نهاية الوادى كان هناك عرض للكاروكى يتم تصويره تليفزيونيا، وقد ذهب إليه سكان سان كريسبينو كلهم، مدنيين ورجال دين. أبلغنا كذلك فى خلال هذه الدقائق الثلاث الدرامية بأن محطة البنزين مغلقة، وكذلك كشك بيع الصحف، ودكان التذاكارات، ونفس الحال بالنسبة للمطعم (حيث لا يوجد غير هذا) لأنه هو نفسه كان يتهيأ للانتقال إلى حفل الكاروكى مع أولاده.

سألت كلوريندا على استحياء: ألا يمكن أن تعطينا ولو سندوتش من اللحم المحفوظ؟

هز الرجل القصير رأسه. عندئذ بدأ تيرسيته معه مناقشة حامية شارك فيه بولبيتو أيضا من الحديقة. حلقت فى الأجواء من الكلمات أضخمها ومن النباح أعلاه، وفى النهاية دخل الاثنان المطعم بكل حسم. كنا نخاف مبارزة بين الاثنين ولكن بعد قليل خرج تيرسيته حيا ظافرا

ومعه رغيف من الخبز وقطعة من اللحم المحفوظ، وانصرف الرجل القصير دون تحية.

قال تيرسيته: لقد وضعته فى حجمه الحقيقى هذا القروى! إننى أعرفهم جيدا سكان هذه النواحى. جهلاء كالقرع وليست لديهم أية رغبة فى العمل..

وقالت كلوريندا وهى تنتزع منه اللحم المحفوظ ببراعة: اهدأ، اهدأ. ماذا نفعل الآن؟

وقال تيرسيته: لا خوف. قال لى القروى الجلف إن كنيسة عذراء العنب المسكى مفتوحة، لأن قسها العجوز أصم، وهو الوحيد الذى سيبقى فى البلدة. يكفى أن نقرع الباب بقوة.

قرعنا بقوة، وبقوة صرخنا. وفى كل مرة كان غضب تيرسيته يزيد. اقترحت زوجتى أننا يمكننا أن نتسلق أطلال قلعة بيسكوسنيجو، ولكن تيرسيته صرخ فيها بأنه جاء لكى يرى العذراء، لا لكى يرى بعض الحجارة المليئة بالحشائش، وأنه لو أن هذا القس العجوز على رأس كنيسة العاجزين هذه يعتقد أن باستطاعته أن يفعل ما يحلو له وينام بعد أن قطع هو مائتى كيلومتر، وحرم أيضا من صحيفته الرياضية؛ لكى يزور هذه البلدة القذرة فهو مخطئ؛ وبعد أن قال هذا أخذ يقذف الباب بالحجارة.

فهمت فى تلك اللحظة أن هناك شرخًا بدأ يتكون بيننا وبين هذا المنظر الطبيعى، وربما أيضا بيننا وبين التراث الفنى لبلدنا، عندما فتح الباب لحسن الحظ وخرج منه مخلوق أحدب فى ثوب القساوسة. فى البداية حاول تيرسيته أن يتفاهم معه ودس فى يده ورقة مالية، لكنه نحاها جانبا وأشار إلينا بالدخول. اختفى المخلوق. فور أن دخلنا الكنيسة التأمت سحريا علاقتنا بالتاريخ والتراث. وضعت كلوريندا بأدب اللحم المحفوظ الذى قضمته فى حقيبة يدها. تيرسيته نفسه، رغم أنه لم يهدأ، جلس على أريكة، وهو ينزع السنابل من العقد. راحت زوجتى بعد أن تقمصت دور المرشد تشرح بإيماءات واثقة آيات الجمال المحيطة بنا.

"يلاحظ فى الرواق الأيسر ضريح الأسقف أوجينو، وفوقه الرسوم الجدارية البديعة للاستشهاد من إبداع تورناساكو، نرى فيها القديسة زنوبيا تجلد بفرع شائك، بينما فى المحراب المجاور تم حفظ الصليب الخشبى لتورنيللى. وبعد عبور الأرضية المطعمة بالرخام الكوزماتية نقابل بعد ذلك فى المحراب الأول إلى اليمين صور الأنبياء الرئيسين الأربعة الكبار من المدرسة الجوتزولية، وفى المحراب الثانى، إلى جوار المذبح الذى توجد به خزانة بها خصلة من القديسة، نستطيع أن نستمتع برؤية التمثال الشهير لعذراء العنب المسكى، أهم أعمال سوتانينو، وهو نحات ذاع صيته فى الآفاق.. إلخ..

"وتمثال العذراء عبارة عن تطعيم إعجازى من أحجار مختلفة له نكهة شرقية، وهو مشهور بصفة خاصة بسبب عنقود العنب المسكى

شديدة التفرد والثقيل والمشغول من كريات صغيرة من اللازورد أهداها إلى الكنيسة، على ما يبدو، الزعيم بونكونتو (صاحب نموذج التسليح ذاك) تكفيرا عما ارتكبه فى حياته من شرور.

"عنقود العنب ممسوك أمام وجه يسوع الطفل من اليد اليسرى للعذراء، من خلال فرع دقيق جدا، عود من اللازورد. أصبح هذا ممكنا بفضل دراسة دقيقة للأوزان والتوازنات. ففى الحقيقة يضع العنقود وزنه جزئيا فوق اليد اليمنى ليسوع الطفل، الممدودة لكى يقطف حبة عنب، وهى إيماءة فنية راقية، ولكنها أيضا ثمينة جدا من وجهة النظر البنائية، لأنه لا يجعل وزن العنقود كله يقع على عود اللازورد الدقيق.

"هذا العمل إذًا يقدر ليس فقط لجماله ولكن أيضا لتقنية النحت رفيعة المستوى للنحات سوتانينو، والذى كان يعمل بخلاف ذلك صائغا وخلافه، ونحن حتى اليوم لا نعرف على وجه التحديد ما الذى يسحرنا أكثر فى التمثال، هل هو الجمال الفاتن للعذراء التى تجعل العنقود يتمايل أمام وجه الابن، أو الإيماءة الطفولية للهفة الطفل على حبة العنب، وسر مقاومة العنقود على مر السنين وهو معلق فوق هذا الفرع الصغير."

وفى نهاية القراءة تبادلنا نظرات منفعلة. عبر الواجهات الزجاجية كانت الشمس تجعل الكريات اللازوردية تبرق بلون شديد الكثافة والحياة بما يدفع النفس إلى الرغبة فى لمسها، ولولا أن هناك سياجًا قويًا من الحديد يفصل بيننا وبين التمثال لما كنا استطعنا أن نسيطر على هذه الرغبة.

كنت على وشك أن أبلغ تفكيرى هذا لزوجتى عندما رأيتها تبهت وتشير إلى شىء خلفى، فاستدرت ورأيت تيرسيته الذى كان يتسلق السياج الحديدى.

– ماذا تفعل يا مجنون؟ توقف! – صرخت كلوريندا

– كلهم يشاهدون الكاروكى، هه؟ – نفخ تيرسيته بغضب وقد أصبحت إحدى ساقيه فى الناحية الأخرى. – شطار شطار، هكذا تتركون أيضا كنوزنا الفنية فى أيدى المخربين المفسدين، ولا أحد يحرسها سوى قس عجوز عاجز...

صاحت زوجتى: تيرسيته، ماذا تريد أن تفعل؟

دون أن يجيب تيرسيته اقتحم الرواق ونظر نحوى بضوء مجنون فى عينيه. عندئذ عادت إلى ذاكرتى حادثة وقعت فى إحدى الإجازات، عندما هشم تيرسيته بقادوم صخرة على شكل رأس نسر ظلت على مدى ألفى عام تزين شاطئا صخريا لجزيرة.

توقف، كنت أريد أن أقول له، ولكن فات الأوان.

بلكمة سديدة فصل العنقود، وبعد قرون عديدة من اشتهائه وجد يسوع الصغير العنقود ينسل أمامه وهو يمد يده فى طلب أخير يائس، بينما كان تيرسيته قد أخفى صيده الثمين بالفعل فى حقيبته اليدوية وعاد إلى تسلق السياج الحديدى من جديد.

– أتوسل إليك يا حبيبى أن تعيده إلى مكانه، – قالت كلوريندا بصوت مشروخ وهى تبكى.

– لقد تركونا دون بنزين ودون طعام ودون صحيفة رياضية – قال تيرسيته مبتئسا – وتركوا كنوزنا الفنية وذهبوا لكى يشاهدوا الكاروكى، إنهم مواطنون لا يستحقون شرف المواطنة، وهذا العنقود سوف يذهب بالتأكيد إلى بيتنا. ثم إنه قد حدث ما حدث ولن أستطيع حتى أن ألصقه من جديد.

أقول الحقيقة، لم يعترض أحد اعتراضا حقيقيا. بل إن زوجتى سرعان ما طلبت أن تلمس العنقود. لا، فيما بعد، قال لها تيرسيته، وهو يهرول خارجا.

وهكذا انطلقنا عائدين: سرعان ما نفد الوقود، فانزلقنا والمحرك مطفأ عبر الطرق الجبلية الهابطة الخالية، وعلى البعد سمعنا أصوات حفل الكاروكى، وكنا جميعا صامتين. أصبحت السماء معتمة وبدأت تسقط حبات ثقيلة من المطر، والحقول التى كانت تبدو من قبل منيرة خضراء أصبحت الآن سوداء، وبدا أن كل كنيسة وكل جدار وكل معبد وكل دير يصرخ لتدنيس المقدسات، وعظام القديس كريسبينو تطقطق فى قبره، ويسوع الطفل يبكى يائسا، وبين لحظة وأخرى كنا ننتظر أن تنفلق السماء ويهبط الرب بنفسه لكى يستعيد فاكهة الابن.

ولكن لم يحدث من هذا شىء.

عنقود العنب، وقد أعيد طلاؤه طلاء خفيفا، موجود الآن فى فيللا تيرسيته على البحر، فوق قطعة أثاث البار، وإذا سأله أحد من أين جاء به، يرد بأنه اشتراه من سوق صغيرة بباريس. وتحتفظ كلوريندا فى أحد الأدراج بقصاصة من صحيفة بعنوان "اللصوص المجهولون" إلخ...

لم نتحدث أنا وزوجتى فى الأمر مرة أخرى، فقد كان يبدو لى أن الأمر يؤلمها بعمق. حتى أفلت منى ذات يوم قولى: صديقنا تيرسيته يتصرف، أحيانا، تصرفات مجنونة.

– ربما – أجابت زوجتى بقسوة ظاهرة – ولكنه على الأقل يمتلك روح المبادرة.

منذ ذلك الوقت وأنا أدرس ثروات الكنائس الصغيرة فى أومبريا، عساى أستطيع أن أقدم لها هدية قريبا.

٢٤

المسبار

- إن عملنا شاق ولكنه مع هذا شيق - قال رئيس تحرير الصحيفة للصحفى الشاب المعين حديثا.

كان رئيس التحرير يدخن سيجارة أمريكية على مقعده الألمانى الدوار ويضع على مكتبه السويدى زوج حذائه الإنجليزى شديد الفخامة والذى جعله الانعكاس يبدو أربعة أحذية إنجليزية.

كان الصحفى الشاب يجلس جامدا يظهر عليه التواضع، وقد التفت ساقاه حول نفسها، حتى بدا أن له فردة حذاء إنجليزية واحدة.

- سيرتك الذاتية جيدة، ولكن دبلومة من مدرسة الصحافة الحكومية مع مرتبة الشرف لا تكفى، يجب أن تكسوها لحما، أن تعمل بدأب ومثابرة لكى تتعلم من المحترفين المحنكين. هل تعرف كم المتاعب التى سوف تصادفها يا ابنى؟

قطب رئيس التحرير جبهته كمن يوشك أن يقول شيئا مهمًا، ففتح الصحفى الشاب عينيه على مصراعيها كمن يستعد لسماع شىء مهم.

– اسمع: هناك ثلاثة أشياء سوف تقودك أثناء عملك لدينا، أولها وعيك المهنى ووعيك كمواطن.

وهو يقول هذا رفع رئيس التحرير إصبعا مهيبا، فأحنى الشاب الطامح رأسا موقِرة.

– والشيء الثانى بالطبع هو أستاذيتى.

نظر رئيس التحرير بثبات فى عينى الصحفى الشاب، الذى ظل حائرا بين أن يغض بصره باحترام أو يرفعه برجولة وبأس، وفى حالة الشك هذه ضم بين حدقتى عينيه حتى وصلتا إلى حالة من الحول الذى يميز القطط التى تسمى بالقطط السيامية.

– والشيء الثالث تستطيع أن تراه على أى مكتب من مكاتب الصحفيين، وعلى مكتبى أنا أيضا. إنه المسبار SCE، أى مسبار القياس الدائم للفاعلية.

أشار رئيس التحرير إلى الشاشة السوداء، المستديرة التى تقف على قضيب من المعدن، كأنها زهرة عباد شمس ضخمة تتدلى ضاغطة فوق رأسيهما. نظر إليها الصحفى الشاب برهبة.

– تشغيله سهل جدا، لأنه فى الأعوام الأخيرة ثار جدل كبير، أكبر من اللازم، حول خلو المعلومات من الموضوعية، وحول المواقف المتحيزة "ضد" أو "مع" الحكومة. ولهذا قررت الحكومة أن تعهد بالمسألة إلى حكم محايد. المسبار بالتحديد.

انتظر رئيس التحرير من الشاب إشارة تنم عن موافقته على كلامه. بعد ثوان قليلة تحركت رأس الشاب إلى أعلى وإلى أسفل مشيرة إلى الموافقة.

– فبينما تعمل أنت أيها الشاب يرسل المعهد الحكومى لقياس الرأى العام للمسبار، في كل لحظة من لحظات النهار، مؤشرا لمدى القبول لدى القراء. فبعد كل مقال يقوم على الفور بقياس الرأى العام. ومادمت تحافظ على مؤشر شعبيتك عاليا فسوف تظل تعمل فى صحيفتنا. وعندما ينخفض هذا المؤشر سوف يتم الاستغناء عنك. تذكر دائما أن المسبار لا يرحم!

نظر رئيس التحرير إلى الصحفي الشاب لكى يرى ما إذا كان قد أصيب بالرعب. وكان الصحفى الشاب مرعوبا.

– من الطبيعى أننى أنا نفسى موضوع تحت رقابة المسبار. يضمن هذا ديمقراطية صحيفتنا: نحن جميعا خاضعون للحكم الشعبى وهذا أفضل بالتأكيد مما يسمى بالآراء الحرة. ولكن المسبار لا ينبغى أن يصيبك بالشلل أيها الزميل الشاب! من الواضح أننى إذا كنت قد وصلت إلى هذا المنصب العالى فإنما لأننى أعرف جيدا قواعد المسبار، أعرف كيف أجمع بين حيادية الأخبار وحرية التحرير. سوف أقوم بتوجيهك وبنصحك وبتحذيرك إذا أوشكت أن تدفع المسبار إلى الغضب. وأنا فى نفس الوقت سوف أكون رئيسك وضامنك. واضح؟ هل هناك أسئلة؟

– نعم– قال الصحفى الشاب – ما هذا الضوء الأحمر الذى أضاء فى المسبار؟

كان رئيس التحرير يعرف ماذا كان الضوء الأحمر يعنى. ولكن الصحفى الشاب لم يكن يعرف.

صوت أنثوى صادر عن المسبار قال برقة حاسمة:

– سيدى رئيس التحرير، يؤسفنا أن نبلغك بأنك فى القياس اليومى الأخير هبطت سيادتك إلى المركز الحادى والعشرين فى تصنيف الشعبية على المستوى القومى. وهذا لا يسمح لك بأن تستمر فى منصبك. لديك ثلاث دقائق حتى تجمع أشياءك. نشكرك على ما أديته من عمل ونهديك أطيب تمنياتنا.

لفظ المسبار مظروفا أصفر. جمع رئيس التحرير بسرعة قلمين وأجندة وصورة لزوجته ومسدسًا وكلبًا صغيرًا من الخزف وفوقهم المظروف الأصفر.

– التصفية الخاصة بى – قال بصوت تهدج قليلا وخرج من الغرفة.

انطفأ الضوء الأحمر للمسبار. لم يجلس الصحفى الشاب أكثر من عشرين ثانية حتى انفتح الباب ودخل رئيس التحرير الجديد.

– إن عملنا شاق ولكنه مع هذا شيق – قال رئيس تحرير الصحيفة للصحفى الشاب المعين حديثا.

٢٥

مطاردة الذيال

كان النعش الأسود الكبير متجها نحو مدينة الشمال الصغيرة الصناعية الملولة. عبر الطريق السريع الذى تحيط به الوحوش والمصانع الفضائية المشتعلة وهياكل السيارات الميتة وزخات الدخان الكثيف الذى يصعد إلى السماء فى سحابات نووية.

اجتاز الطريق الدائرى بين بورنوموتيل وبوليماركت وبيج ديسكاونت وباراديسى للموبيليات وقصر فرساى للنجف ومحلات البيتزا الصغيرة والديسكو الذى يسع اثنى عشر ألف راقص. والآن، وهو يمر من تحت قوس قديم محاط بسياج ومغطى، يدلف إلى طريق مبلط غير مسموح المرور فيه سوى للمقيمين، ولكن النعش الكبير كان تحديدا لأحد المقيمين. كانت سيارة رياضية للطرق الوعرة بعد أن استطالت لكى تتحول إلى عربة جنائزية، سوداء لامعة، وعلى الجانبين كروم فضى وأنوار حمراء. وخلف الزجاج سماوى اللون تطفو صورتان لمخلوقين: الأولى تشبه أبا الهول لشقراء ترتدى نظارة سوداء، ووجه عذراء مائل

على هاتف محمول، ومعها رائد من الشرطة يرتدى سترة جلدية سوداء اللون ونظرة سائق محترف من خط الانطلاق الأول، وشعر لامع بواسطة الجيل، كأنما خرج لتوه من حمام السباحة.

يدخل النعش السوبر، وهو يئز بمحرك لا تقل سعته عن ثلاثة آلاف سى سى، فى ميدان صغير أبيض، مزين بأعمدة مقلدة من طراز قرون سابقة غير محددة. وقف أمام مسرح المدينة، وهو جوهرة بلون جبن الماسكربونى، ويفتح سبعين ليلة عرض فى العام، نصفها مسلسلات كوميدية ومسرحيات بيرانديللو. إلى الأمام قليلا يوجد محل الحلوانى الشهير "كاتسى ديل فيسكوفو" (حلوى محلية لها تراث طويل)، وعلى جانبيه بوتيك راق ومحل بلوفرات وطنى صاحبهما واحد ولكن الشريحة المستهدفة لهما مختلفة. وأمامهما يظهر المقصد المطلوب، بار البيانو، وهو مكان اللقاء الليلى المفضل لأثرياء البلد. وهذا البار يسمى إكسبلوا، واللافتة بالخط المائل بمصابيح النيون محاطة بورود، والباب الكبير المصفح يشير إلى علو شأن الزبائن. فى الميدان الصغير يوجد نعشان آخران، واحد أصفر، مذهب، هو نعش كليوباترا، عليه ملصقات لسيارات، والآخر أخضر زمردى به بعض آثار الطين والمتخلفات النباتية التى تشهد على تخصصها فى المسارات الحربية. وإضافة إلى ذلك توجد عدة دراجات نارية قوية متوقفة بميل على سناداتها، كأنها حشرات كبيرة بها بطاريات ومصابيح بيضاء وصفراء وعجلات ضخمة وهوائيات لامعة. وفى وسطها بالتحديد توجد دراجة وردية، تميمة حظ بين

الوحوش، بها حقيبتان صغيرتان، تظهر منها ظهورا واضحا الصحف اليومية المفضلة لدى رواد بار البيانو، أى صحيفة محلية صغيرة رجعية الاتجاه وصحيفة كبرى تابعة للنظام، صاحبهما واحد ولكن الشريحة المستهدفة لهما مختلفة.

نزلت شبيهة أبى الهول وهى تهز خصلة شعرها الأشقر: طويلة ونحيفة محشورة فى تنورة من الجلد تبرز ساقيها الطويلتين فى جورب بنفسجى ضارب إلى الزرقة. وفى معصميها تخفق كميات كبيرة من الذهب، ومن عنقها تتدلى سلسلة تحتوى على هويتها.

أما الكولونيل فكانت فى معصمه حزمة صغيرة من الأساور وسحلية ذهبية على سترته. كان يسير مطقطقا بسبب السروال الجلدى الملتصق جدا والمنتفخ من حجره بما يوحى بغزارة محتواه، سواء كان هذا المحتوى ملابس داخلية أو عضواً ذكرياً بشرياً حقيقياً، أو خدعة بديلة مثل جورب مبروم.

مرر الكولونيل يده فى شعره، ثم عاد لسحبها ملطخة ببعض الجيل، فهرش ذقنه ليخلط الجيل بلوسيون ما بعد الحلاقة فى جرعة مضبوطة، ثم نظف كل شيء فى جيب مبطن لهذا الغرض. تناول ذراع شبيهة أبى الهول فى يده بحيث تبدو وهى تدخل معه إلى بار البيانو أنها تخصه. تسحبه شبيهة أبى الهول وتسبقه بكبرياء بسحبة كعب مقتدرة فوق الأرض الحصباء. يقرعان جرسا مزدوج النغمة فينفتح الباب السحرى، مشغولا بالكامل من كتلة من اللحم الأسطوانية المحترمة.

موسيقى، أصوات، رائحة الكحول، العصائر، العطور. كانت مائدتهم فى آخر البار، خلف الطاولة الكبيرة ذات الانحناءات المصنوعة من الرخام، ومنصة فتيوريو الذى يلعب وحده دور الأوركسترا. تحييهما النادلات اللاتى يرتدين الجيليه وفوقهن المصابيح المنيرة، ويحييهما البارمان ناندو والمدير ميكيل ثم فتيوريو الذى يمزج أصوات الكيبوردات الكثيرة التى أمامه لكى يصل إلى أحدث الألحان.

تحلق حولهما النظارات السوداء دون أن تحول عنهما، على موائد يجلس عليها اثنان أو أربعة. وعلى تحياتهما ترد بفرح شبيهات أخرى لأبى الهول وكولونيلات مهملة على آرائك صغيرة. إنه عالم لذيذ وقاسٍ، قوامه ساعات الرولكس باهظة الثمن وجيل الشعر، النعومة والشراسة، جفاف الذهب وطراوة العطور، التناقض المثير الذى صادفه أنطونيو فى بلاط مصر.

ها هما على طاولتهما، حيث كان ينتظرهما زوجان آخران. الزوج الأول يضم "هو" ضخما يرتدى هكتارا من الجينز، وحزاما بتوكة ضخمة، بعجلة كاملة محفورة، وسترة بلون السالامون، نفس لون الوجه البنفسجى الداكن المعروق الذى هدته المنشطات، تزينه ضفيرة تكونت على مقدمته من الشعيرات النادرة على فراغ يشبه قالب الجبن، خلف ذيل حصان أشقر بصبغة الأوكسيجين.

والقرن الآخر من هذين القرنين "هى"، سوداء مثل قالب فحم مطفأ، محشورة فى جسم أيروبيك يبرز منه بجسارة صدر معالج بالسليكون.

وسوف نسمى هو(ذيل الحصان) "الجاموس" ونسمى هى (الحلمات) "الاصطناعية".

ثم كان هناك زوج آخر، هو بشعر ملح وفلفل مشعث، بقميص أزرق مفتوح على شعر الصدر الكثيف مثل شعر الكلاب، ونعله مدبب الطرف طويل الرقبة، وابتسامته ملولة، ابتسامة من عاشرهن جميعا سواء هناك بالداخل أو هناك بالخارج. وهى إلى جواره، جنائزية، سوداء، بشعر يصل إلى خصرها، ومليار من الخواتم فى اليسار، وحقيبة صغيرة من جلد التمساح تخرج منها كل حين أحمر شفاه بنفسجيًا تعيد به تلوين شفتيها. تهز ردفيها بفخر وهى تظهر شرائط حمالات المشدات، وينظر الزوج إليها برقابة خفيفة، فتعود هى إلى هز أردافها أكثر وتبتسم إلى فتوريو رجل الأوركسترا كأنما تقول له إنها لن تعطيها له، ولكنها يمكن أن تعطيها لمن يستحق. سوف نسميه "الساحر" ونسميها هى "الثرثارة".

ها هو الكولونيل وشبيهة أبى الهول. يخلع هو النظارة السوداء ثم يداعب الجاموس مداعبة جنسية فيرد عليه الجاموس ببعض شتائم الشواذ. أما هى فتجلس إلى جوار الثرثارة وتمعن النظر إلى ساقيها بحسد، ثم تصوب نظرها نحو الساحر وتخلع النظارة فجأة. لها عينان زرقاوان مثل كلب قطبى، وضعت عليها مساحيق ثقيلة، ولم تكن بها أية تجاعيد، وقد أعيد تجديد كل شىء، ماذا تعتقدين أيتها الساقطة ذات الردفين، أنت لست الوحيدة فى الكون التى تصيد.

يعد فيتوريو رجل الأوركسترا الأوحد أنغاما ثقيلة، ويضيف عليها إيقاعا، ويبرمج لحنا مختلطا يركب عليه صوتا ملائكيا.

- يا له من مخنث! - أوضح الساحر.

- إنه بالتأكيد مخنث، - يقول الجاموس، وهو يهشم أصابع البطاطس - كل من يغنى فى بارات البيانو شواذ، والحلاقون كذلك، والراقصون ولاعبو السيرك، والجرسونات، ودعاة السلام...

يغنى فيتوريو:

"ربما تريد رجلا حقيقيا

وأنا لست إلا حالما"

- أترى؟ - يضحك الجاموس استهزاء. مرت الساعة الواحدة، وقد شرب الأزواج الثلاثة العديد من كؤوس الجين تونيك، وهم الآن ينعقون ويتبادلون أحاديث النميمة، فيتساءلون لماذا ما تزال تلك تمشى مع ذاك، ولماذا لم ينفصل ذلك بعد.

ينفث الساحر مللا ويبحث بعينيه عن بعض الفتيات التى يمكن أن يسلط عليهن سهامه، ولكن البانوراما كلها كانت لنساء صغيرات سمينات مع خطابهن بالقبعة القصيرة والسترات البنفسجية، الذين يمثلون نوعا من التجار الصلع الذين ربما يأخذون على خواطرهم. تلهب الثرثارة بردفيها محترفا قديما كان يهواها وكان يكاد يلتهمها من بعيد.

يتحدث الجاموس عن الشيوعيين وعن أنه ما يزال يوجد منهم الكثيرون رغم أنهم أصلحوا الأحوال هناك بالداخل. والاصطناعية تشرب كأنها آنية زهور وتزيد فى الشرب رغم أن المساء كان ينتهى، وهى تحيى رجل الأوركسترا فتيوريو بيدها الصغيرة، ولكنه لا يهدى إليها أية مقطوعة موسيقية على الإطلاق. يتشاجر الآن الكولونيل وشبيهة أبى الهول بسبب فاتورة الحساب، فيصيبه الحنق ويذهب لكى يتحدث مع دوبلير له يجلس بعدهما بثلاث موائد متجمدا وقد تعلقت قطعة من المعجنات المحشوة باللحم فى شوكته.

توقف فيتوريو رجل الأوركسترا فى استراحة قصيرة فعلا صوت الثرثرات ورنين الذهب والكؤوس، الضحكات الجريئة وستيريو شبابى يقصف بأنغام ثقيلة من الميدان المجاور.

انفجر الساحر فجأة قائلا: كفى الآن، أتعرفون ماذا أقول لكم؟ لا أريد أن أحس بالملل هذا المساء: ولهذا أقترح عليكم الخروج لصيد الذيال.

فقالت الاصطناعية: أوه، لا، من فضلك، كنا قد اتفقنا على ألا يزيد على مرة فى الشهر.

– أنت خائفة، أليس كذلك أيتها العجوز؟ – قال الجاموس وهو يفرك إحدى الحلمات بيده.

– كلا، ولكنه خطير– قالت الاصطناعية.

واعترض الساحر وقد سخنت لديه الفكرة: أية خطورة؟ لقد أصبحنا خبراء بالفعل، أليس كذلك يا أنطونيو؟

هز الكولونيل رأسه من طاولة المعجنات المحشية باللحم مثل البومة. يقلده الساحر تقليدا صامتا بكؤوس مليئة بالبيرة، فيقترب الكولونيل وقد التمعت عيناه.

– هذا المساء؟

– هذا المساء. ولكن هذه المرة سوف نلعب على فلوس – يقول الساحر – مليون للتجهيزات ومن يكسب يأخذ الثلاثة.

– وما دخل المال؟ هل سنلعب للمتعة أم لماذا؟ – قالت الثرثارة.

– أما أنا فأريد أن ألعب بالفلوس – قال الساحر وهو ينتزع الكوب من يدها ويفرغه وهو سكران تقريبا.

– أنا موافق – قال الجاموس – نفس النظام؟

– نفسه – قالت شبيهة أبي الهول وهو تخرج من حقيبة يدها نردا.
– من يحرز الرقم الأكبر هو الذى يختار أرض الصيد. – ترمى النرد فتحرز اثنين. يحرز الساحر أربعة.

– سهل جدا – يضحك الجاموس. يرمي فيحرز واحدا ويضيف عليه لعناته وسبابه.

– من حقنا أن نختار أولا – يقول الساحر – لنأخذ المحطة.

– إذن لنذهب نحن إلى الطريق الدائرى – يقول الكولونيل.

– ونحن نذهب إلى البيوت وعنابر النوم – يقول الجاموس– حتى وإن لم يكسب فيها أحد مطلقًا، لا يمكن كسب شيء هناك..

– ربما جاءت هذه المرة أفضل – قالت الاصطناعية وهى تأمل خيرا.

انطلقت النعوش الثلاثة السوبر فى وقت واحد.

كان أول من وصل إلى مقصده نعش الكولونيل. كان الطريق الدائرى شبه معتم وليس فيه كائن حى. ليس إلا بعض عربات القطارات النمساوية المجرية هاجعة فى منطقة المواقف.

قالت شبيهة أبى الهول: لا شيء، ربما علينا أن نذهب بالقرب من عربات النقل.

– شاطرة! هكذا يروننا. اسمعينى، فى المرة الأخيرة فزنا نحن، أليس كذلك؟

– بالتأكيد، ولكننى كنت أنا التى أرشدت عن الذيال، ألا تذكر؟

يضع هو يده بين الأرداف، وهو يبتسم ابتسامة أحد ممثلى الأفلام الجنسية الخليعة. يخرج من التابلوه منظار مقربا. ينظر إلى الطريق، حيث يوجد طابور من اللافتات الإعلانية.

يقـول: مـا هذا؟ أليـست هناك أحـيـاء برية؟ - يشـعل سـيـجـارة ويسترخى على المقعد، والنعش السوبر ذو المصابيح المطفأة يكاد لا يرى.

من الجـانب الآخـر من المدينة، داخل النعش السـوبر الذهبى يهـز الجـامـوس ذيله مـحـبطا. الزقـاق قـاحل ملىء بالصناديق التى خـرجت أحشاؤها، وهو فارغ بشكل موحش.

- هنا لن نكسب أبدا.

- إنها مسـألة حظ - تقول الاصطناعية - ربما كانوا جميعا نياما، ولكننا لو وجدنا واحدا فلن يهرب.

- اذهبى وضعى الطعم - يأمر الجاموس.

تخـرج هى من حـقـيـبـة يدها ورقـة بعـشـرة آلاف ليـرة وتـهم بفـتـح الباب.

- ما هـذا الهراء الذى تقـومين به؟ - يقـول هو - ومن الذى يمكنه أن يرى فلسا فى هذه العتمة؟ ضعى عقدا من عقودك.

- لا، لقد أضعت واحدا منها المرة الماضية. سوف أضع نقودا. أو لا تضع شيئا مطلقا، وهذا أفضل، فى المرة الماضية لم أنم ليلتين.

- نفس القصة تتكرر - يقول الجاموس بإيماءة من وجهه.

- ولكن ألم تفكر مطلقًا فى ... فى الأبناء؟

- أكيد. أولادنا فى الجبل. أليس كذلك؟ من إذن يهتم؟

- أنت حيوان - تقول هى، وتخرج متراقصة على كعبيها.

فى تلك الأثناء كانت الثرثارة فى عرض الطريق طويلة سمراء، وتسحب من يدها سوارا وتضعه على الإسفلت. خلفها كانت المحطة مضاءة لتوها، والقطار الأخير ينطلق خلال بضع دقائق. يشير إليها الساحر أن تنقل السوار تحت ضوء الإشارة حيث يمكنه أن يبرق. هكذا، تمام يا جميلتى، ما علينا الآن سوى الانتظار. تعود الثرثارة إلى السيارة وهى تلهث، وتراجع مكياجها.

تسأل: ألم تصل أية تليفونات من الآخرين؟

- كلا.

- إذاً نفوز نحن. عما قليل سوف يصل بالتأكيد ذيال. إنه القطار الأخير. اختبئ جيدا، فيمكنهم أن يروننا هنا.

- لا يروننا - يقول الساحر بثقة - أنا مغطى باللافتة الإعلانية. لقد تأكدت من كل شىء. أنا لا أترك شيئا للصدفة.

يدق هاتف المحمول.

- يا للمسيح، لقد سرقونا - يولول الساحر- آلو؟

- كيف الحال؟ - يسأل الجاموس بملل - لا يوجد هنا ولا حتى رائحة ذيال.

ويقول الساحر بصوت مشحون بالغضب: - لا يجب أن تتكلم فى التليفون. أنت تعرف القواعد. لا يتكلم أحد إلا إذا أصاب الضربة. رنين المحمول ينبهه. ثم إننى أراقب الطريق، بكل تركيز.

ويرن صوت الاصطناعية فى الخلفية: أنت أكثر واحد فينا تستمتع بهذا يا أنطونيو الجميل، أليس كذلك؟

- ها هو واحد، أغلق التليفون - تهمس الثرثارة.

ويقول هو مستثارا: يا إلهى، يا له من ذيال! إن طوله متران وهو جميل الألوان. انظر إلى جسمه الأصفر.

وتقول هى: هذه المرة سوف نفوز، سوف نفوز.

- يا للعنة! إن هناك واحداً آخر إلى جواره.

- أنا لا أراه.

- بل يوجد، يوجد، إنه خلف الدكة. معه حقيبة وهو يتكلم مع الأول

- وماذا نفعل إذا كانوا اثنين؟ هل نستطيع فى هذه الحالة أيضا؟

- مؤكد - ويشد الساحر بقوة على المقود - أنزع اللوحة وأذهب دون تغيير. هل نريد أن نكسب أم لا؟

- انتظر! إنه يذهب، انظر، إن الثانى يتجه نحو المحطة ويبقى الذيال وحيدا على الدكة.

تعض الثرثارة شفتيها ويمسك هو بيده مفتاح التشغيل متأهبا.

- لقد رآه - تقول هي - رأى السوار...

- ها أنا ذا! إنه ينظر حوله ليتأكد أنه وحده، مما تخاف؟ هيا تحرك أيها الملعون! إنه سوار حقيقي من الذهب، هيا، اذهب لتأخذه من وسط الطريق، هيا التقط الحب، هيا..

- لقد اقترب. ينحني ليأخذه- قالت الثرثارة ببطء. يحرك الساحر السيارة على أقل سرعة. بالأضواء مطفأة يبزغ من وراء اللافتة. محرك النعش السوبر يصدر أصواتا كأنها أنفاس أسد، والفريسة هناك في عرض الطريق، منحنيا غير مصدق يتفحص السوار، يبدو فعلا من الذهب. فجأة يسمع صوت تسارع المحرك، تنفجر في وجهه أربعة كشافات مبهرة، يظل دون حراك وهلة، كلهم يفعلون هذا، لا يصدقوننا من الوهلة الأولى. يرى النعش السوبر يقفز عليه، يحاول أن يتفاداه. لم تسعفه سرعته فأصيب في مقتل على بعد مترين من الرصيف، طار في الهواء بردائه الملون الجميل، وجواربه، وشرائط الكاسيت، والولاعات، كل شيء انتثر حوله، وراح يتدحرج ويتقافز بينما كان النعش السوبر قد أصبح بعيدا بالفعل، نحو أنوار وسط المدينة.

- اصطدناه - يصرخ الساحر ظافرا في المحمول. إذا شاء أحدكم التأكد فالذيال لن يتحرك من هناك لفترة كافية !

الساعة الثالثة ليلا. الرائد فيليتى من شرطة الطرق يتثاءب مستندا على سيارته البانتيرا بينما يقوم رجاله بعمل الرسوم على الأرض بالطباشير. بين يديه وثيقة الذيال، وهى عبارة عن جواز سفر مكرمش. على كابوت السيارة الفولانت توزعت الولاعات والمناديل الملونة والجوارب وسوار من الذهب، من المؤكد أنه مسروق. يأخذ الرائد ولاعة ويجربها، ويشعل بها سيجارة. يتحدث مع القسم التابع له.

– اسمه يواسون نياى، ثلاثون سنة، سنغالى... هل تراجعون لى ما إذا كان لديه تصريح إقامة؟

– واحد آخر من هؤلاء؟ – يجيب صوت. – إنه الثالث فى غضون أشهر قليلة.

– وأنا ماذا عساى أن أفعل؟ – يتثاءب الضابط.

– ولكنه على أى حال أمر غريب... الثلاثة كلهم صدموا فى عرض الطريق. فى البداية تلك العاهرة الصومالية على الطريق الدائرى، ثم التونسى فى الشهر الماضى، وفى نفس موضع هذه الليلة.

– سكارى – يقول الرائد – يأتون إلى المدينة لكى يشربوا ويسكروا كالبهائم، ثم يرمون أنفسهم تحت السيارات.

– والصادمون ألا يتوقفون أبدا؟

– وهل كنت لتتوقف أنت لو كنت فى مكانهم؟ – يسأل الرائد.

يتحشرج صوت جهاز اللاسلكى. ملاءة من القماش الأبيض تغطى الجسد الطويل للذيال، والقفطان الأصفر الملطخ بالدماء. تخرج يد من الملاءة، نحيفة وداكنة، يعيدها إلى تحت الغطاء شرطى بركلة من قدمه. يرى الرائد سيارة رباعية الدفع ضخمة صفراء مذهبة تأتى وبداخلها المعمارى باسانى الشهير باسم الجاموس، وبرفقته زوجته المعروفة باسم الجاموسة. يتوقفان بدافع الفضول.

– هل هذا حادث؟ – يسأل هو – هل هو خطير؟

– مهاجر. صدمته سيارة فى عرض الطريق بكامل سرعتها. إصابة مباشرة فى الجسم.

– ومن كان صاحب السيارة؟

– وأنا من يدرينى؟ – يقول الرائد – ليته توقف. هل كنت لتتوقف أنت؟

– أماه! كم كان طويلا! تسأل الاصطناعية.

– لابد أن التصويب عليه لم يكن صعبا – قال الجاموس.

ينظر إليه الرائد لحظة مترددا ثم يضحك هو أيضا. دار حول السيارة الصفراء بأسلوب الفاهم. – سيارات عظيمة هذه التى تسير خارج الطريق العام. سعتها لا تقل عن ثلاثة آلاف سى سى، أليس كذلك؟

- نعم. ألم تجربها مطلقًا؟

- مطلقًا - يقول الرائد. - تعجبنى ولكنها شديدة الخطورة. إنها تندفع مثل الأفيال التى تحملها. وهى صامتة صمتا رهيبا! لا تسمعها أبدا وهى آتية.

- آه فعلا - تقول الاصطناعية بصوت مبحوح. كان قلبها يخفق بشدة، فقد رأت سوار الثرثارة فى يد الرائد. إنهم حتى لم يفطنوا إلى استعادة السوار، هؤلاء المعتوهون.

يضعه الرائد تحت أنفها ويقول لها:

- ماذا تقولين فيه؟ حسب رأيك، هل هو حقيقى؟

- لا أعرف - تتمتم الاصطناعية - لا أستطيع أن أعرف... إنهم يصنعون قطعا بارعة التقليد...

- رأيى أنا أن هذا السوار حقيقى - يقول الرائد وهو ينظر إلى عينيها فى ثبات. - من يدرى من أين سرقه. حسنا إن الجريمة زائلة، آمين.

يدور حول سيارة الطرق الوعرة، ويمرر يده على جسمها المذهب، وعلى حاجز الطين الذى تم تركيبه حديثا.

يتنهد ويقول: - ولكن أخبرونى: ماذا تفعلون فى عز الليل وأنتم تتجولون بهذه السيارات الضخمة؟

- انظر - يقول الجاموس - إن الملل يصيبنا هنا كثيرا. نحاول أن نتسلى قليلا.

- أفهمكم - يقول الرائد وهو غارق فى التفكير. - أنا أيضا أمل كثيرا. هل تعرفون ماذا سوف أفعل فى إحدى مثل هذه الليالى؟

يتبادل الاثنان النظر حائرين.

- سوف آتى لكى أتجول معكم - يبتسم الرائد.

سارينة الإسعاف الزرقاء تلون وجوههم وهى تدور بلون بارد. من بعيد يأخذ أحدهم فى الصراخ.

٢٦

عودة جاريبان

المفكر الشهير والكاتب والمحلل والناقد والمترجم والعالم كاتب المقدمات والتعليقات زينو زيبيل كان عائدا إلى منزله بسيارة أجرة عقب سهرة ثقافية-طبيخية- لاهية. وجهه الجاد الذى يعلو رقبة جمل لم يكن ينجح فى طرد ابتسامة تطفلت عليه.

كان فيروس حقير قد غرس نفسه على الزاوية اليسرى لفمه، فأبقى شفته مرتفعة. وبهذه الطريقة فإن معالم القسوة والفم المغلق على موقف استهجان والكآبة والعبوس اللذين طالما التصقا بصورة زيبيل، انتهكها جميعا فى ذلك المساء تعبير غير معتاد من الارتياح. ولهذا التعبير استسلم كاتبنا فى النهاية.

على أى حال، نعم، كانت السهرة عند المعمارية P رائعة! فمنذ ظهوره والحاضرون قد أحاطوه بما يستحق من تكريم، وفى المكتبة استطاع أن يحدد بضربة عين جميع مؤلفاته، وكان العشاء على مستوى شديد الرقى ودون إفراط فى الزبد، وكانت المناقشة بصفة خاصة لا تقدر

بثمن. لأنه منذ البداية ودون أن يستخدم من جانبه الاستراتيجيات المعتادة والكمائن المألوفة دار الحوار بطريقة فورية وتلقائية عن الكاتب جاريبان. وباعتباره من ثقاة الجاريبانيين فى البلاد فقد استولى على المشهد كله بثقة مغرورة وتفوق متعجرف. كان قد صحح بأدب مرتين الاقتباسات التى أوردتها صاحبة المنزل، واستعرض بفقرات كان يحفظها عن ظهر قلب، ثم أجهز إجهازا على الناقدة الشابة سيلين، والتى تجرأت على إجهاض حديث قصير حول حساسية جاريبان تجاه المشاكل الاجتماعية. قرأ عليها فقرة من "عشاء عيد الميلاد" كان الكاتب يصف فيه المعاناة والصعوبات التى تعانى منها أسرة سباكين فقيرة، وقد قرأها بانفعال عاطفى وتوهج جارف حتى انساب الدمع من عيون الجميع، وخاصة سيلين التى اتهمت فى النهاية بالجهل والإدعاء، ولما كان نائب رئيس تحرير صحيفتها حاضرا، فقد تسبب هذا بشكل غير مباشر فى الإيحاء بنقلها إلى قسم تغطية الملاهى الليلية.

هذا انتصار! على اعتبار أنه فى الأمسيات السابقة كان عليه أن ينتظر طويلا قبل أن يدخل فى النقاش موضوعه الذى يتشوق إليه والذى لا يجد فيه منافسا. كم اضطر إلى أن يصارع ويدفع بالمناكب ويحول دفة موضوعات الآخرين، وأن يقوم بمبادلات ويبنى السدود ويخترع المقارنات الماكرة والمقاربات الملفقة، وكل هذا من أجل أن يحمل جاريبان إلى مسرح الحوار. أما فى هذه الأمسية فكان الوضع مختلفا تماما، فقد حدث فيه شىء سحرى، شىء ما أثار فيه هذا الإحساس الغريب بالارتياح.

تمدد بينما كان التاكسي يدخل الحى الذى يقطن به من خلال شارع عريض تحفه أشجار الزيزفون التى بدأت تحمل أولى زهور الربيع. تنفس عبقها الجميل وأخذ ينشد همسا:

يا أشجار الزيزفون

يهديك العناد وتهديك السنون

بثوب قشيب

إلى الإنسان

بإبداع جديد

سائق التاكسى، وكان رجلا ضخم الجثة بعنق ملأته التجاعيد مثل دودة الخنزير، التفت وراءه بميل واختتم:

أنت ابنة الطبيعة

يا شجرة الزيزفون

– هل تعرف هذه الأبيات؟ – سأل زيبيل مبهوتا.

– بالتأكيد: أدولف جاريبان، ديوان "ليلة التجلى"، قصيدة من ستة أجزاء، ويبدو لى أن هذه الأبيات هى مطلع الجزء الثالث، إن لم أكن مخطئا.

– كلا، لم تخطئ – قال زيبيل بصوت هامس.

آه أيتها الليلة الغريبة الفريدة! سائق تاكسى يحفظ أبيات جاريبان عن ظهر قلب! هل ينبغى أن يكون مسرورا لهذا أم أن فى هذا خطر على تفوقه؟ لقد كان دائما ما يشكو من أن الجمهور يفضل أى غثاء تنشره دور النشر على جاريبان: فماذا لو راح كل سائقى التاكسى يرددون شعره؟

– هل يعجبك جاريبان؟ – سأل سائق التاكسى بغمزة سوقية من عينه كما لو أنه يقول "هل تعجبك الغانيات السمراوات؟" – هل قابلته شخصيا قبل ذلك؟

قفزت إلى حنجرة زيبيل حشرجة انتصار.

– كان يجب على أن أفهم – قال باحتقار – أنت تستذكر جاريبان مثل الببغاء ولكنك تعرف عنه القليل أو لا تعرف عنه شيئا. كيف يمكننى أن التقى شخصيا مع جاريبان (وهنا يحول زيبيل احتقاره إلى موسيقى) إن كان قد مات قبل أن أولد، ولكن ماذا يهمك أنت من التاريخ؟

– أوه، حسنا، لم يخبرنى أحد بذلك، – أجاب السائق بهدوء.

تنهد زيبيل. الجهل، الجهل الذى كان يحيط كأنه رواسب متعفنة. ترك سائق التاكسى الغريب دون أن يعطيه بقشيشا، وبعد أن استعاد مزاجه السيئ راح يبحث عن مفاتيح البيت. ريح مزعجة باردة بدأت تصفر بينما كان واقفا هناك على قدميه أمام البيت، وهو يفتش فى

جيوبه المتعددة ويحس بغضب يتصاعد. ومع هذا فهو يحتفظ بها دائما في نفس المكان، في الجيب الصغير للجاكتة. رفع رأسه منزعجا مصدرا جشأة صغيرة برائحة الكافيار. ورأى نورا مضاء في شقته وأن الباب موارب.

أصيب زيبيل بالرعب طبعا. كان يعيش وحده، منذ أن تركته زوجته من أجل توباردو، الخسيس المتخصص في كافكا والذي... ولكن ليست هذه هي اللحظة المناسبة لتذكر الماضي. ليس مع أحد سواه مفاتيح الشقة، ولا حتى الخادمة التي تنظف المنزل، وكانت فلبينية غبية، جاهلة بتراث الأجناس الشعرية لبلدها. من يكون إذًا؟ أهو لص؟ ولكن عما يبحث؟ الكتب؟ لأنه لم يكن لديه في بيته إلا الكتب. لا، لا، هذا هراء، فكر زيبيل. هناك أيضا الستيريو ومسجل الفيديو، براءات الجوائز، والجواكت الإنجليزية، والمساج المائي، رغم أنه ثقيل في نقله. نعم، من المحتمل أن يكون في البيت لص. افترض أن مانشيت في الصحف يقول "سرقة في منزل زيبيل" يمكن أن يعزز شهرته، أو أن الرقم الذي يغرمه أقل أو أكثر من تكلفة نشر إعلان في صحيفة يومية.

ولكن تدفق أفكاره انقطع بعواء الترحيب من كلبه الوفي كاني-سورمير، والذي جاء في مقابلته بركض يشبه ركض الخنافس، وهو يهز رأسه المليئة بالشعر بحركة غير منتظمة.

كان كاني من نوع البربوني القزم متفرد في القبح وكان زيبيل قد اشتراه؛ لأن جاريبان كما يعرف الجميع كان يعشق هذا النوع من

الكلاب، وكان لديه ستة منها فى حياته، ويحكى أنه عند مماته إلخ..، أما فيما يتعلق باسمه كانى- سورمير فهو المكان الذى رأى لأول مرة زوجته إلسا إلخ.. ولكن كل هذا التدفق الجميل من المرجعيات الخاصة بجاريبان التى أثارها كانى كان لا شيء مقارنة بالمعنى المطمئن لظهور هذا الكلب الملهم. كان الكلب كانى هو أكثر كلاب الحراسة فى المنطقة على الإطلاق هستيرية وشجارا وشوفينية. فى كيلو جراماته الثلاثة تركزت قدرات عسكرية دفاعية لا تتوافر فى كلاب الصيد المدربة. وعندما كان يقترب أى غريب، مثل بائع اللبن أو ساعى البريد أو عابر سبيل أو أى واحد، على بعد متر واحد من عرينه كان كانى يهاجمه بنباحه، طلقات سريعة من البصاق الكريه، نشاز من العويل الحاد، تصاعد أصوات من سباب كلابى، ضجيج مستمر ومزعج وحاد لم يكن نادرا أن يرد عليه المعتدى عليه بسباب آخر كأنه دويتو بين مغنى وآخر يرد عليه. ومع هذا فإن هذا الحيوان الصغير لا ينبح، بل كان يحرك ردفيه بلا حياء، ويحتفى بصاحبه بسعادة، منتظرا الوليمة الكبيرة من الطبيخ الفاسد مع خليط بشع من العظام الصغيرة. هذا يعنى أنه ليست هناك أطراف معادية تحتل المنزل، وأن الباب ظل مفتوحا سهوا. وبالفعل دخل زيبيل متعثرا فى حركة كانى الزجزاجية المطالبة بالوليمة، ورأى أن النظام فى المنزل فى حالة ممتازة. تخلص من المعطف الثقيل بعد أن أغلق الباب وتأهب لإطعام حارسه الأمين. ولكن بينما كان منحنيا فوق القدح، يهم بفتح علبة صغيرة من فطيرة الضبع اللذيذة، رأى بطرف

عينه قدما تلبس حذاء عليه قلشين من القرن التاسع عشر تبرز من مقعده المفضل، تنتمي إلى شخص ما يغطيه ظهر المقعد.

شخص ما دخل بيته ويجلس بهدوء على مقعده، وأقول بهدوء لأنه من وراء ظهر المقعد كان يتصاعد دخان البايب، وتمايل قدميه يوحى بحالة من الراحة التامة.

دار المقعد ببطء. ظهر النصف الأيسر أولا ثم الجزء الأوسط ثم أدولف مارى جاريبان بشحمه ولحمه.

– تأخرت هذه الليلة يا زيبلين، أليس كذلك؟ – قال جاريبان بنبرة مستفزة بعض الشىء. كان يتكلم بلغته، التى تنتمى إلى شمال إقليم بروفنسال، وبين يديه يمسك عصاه الشهيرة. كان طبق الأصل، فى وجهه وفى زيه، لبورتريه بيير بونسان المعروضة فى اللوفر. يلاحظ فيها الحاجب الأيمن للعين الذى يميزه جرح وقع له فى مبارزة يوم الثانى عشر من أغسطس إلخ فى حديقة قصر فرساى إلخ عقب عبارة "أنت تهين الأدب الفرنسى" التى قالها له الكونت موميليان إلخ. ومع هذا فإن الحاجب المذكور كان مقوسا بما يدل على تعبير واه من التقزز. لا، لم يكن فى كامل أناقته الرجل الشهير العائد إلى الحياة.

– مساء الخير.. مساء الخير... أو أيها الهراء! – تعجب زيبيل الذى لم يكن يتخيل مطلقًا أن الكلمة السابعة فى حواره مع أسطورته يمكن أن تكون بهذا القدر من السوقية.

– ألست سعيدا برؤيتى؟ – قال جاريبان وهو يتصفح إحدى المجلات – ومع هذا فقد قرأت هنا منذ لحظة بالتحديد:

"قد أستبدل الكتب كلها التى أصدرتها فى السنوات العشر الأخيرة فى مقابل عشر دقائق من الحوار مع جاريبان".

– نعم، كتبت هذا... ولكن على أى حال، ما هذه المسخرة؟ من أنت؟ ممثل، صح؟... مزاح، مقلب من تلك المقالب الكريهة للبرامج التليفزيونية أم.. أو هم خصومى، هل هذا حقيقى؟ أرسلك سكياسى، أليس كذلك؟

جاء جاريبان بحركة إحباط أنيقة من يده التى ترتدى القفاز.

– من سكياسى هذا؟ هل هذا هو الاستقبال الذى تستقبلنى به؟ وهل أنت أكبر المعجبين بى، والحارس الأمين على ذكراى، ومترجمى الوحيد؟

– طبعا أنا – قال زيبيل بفخر.

– ولست قادرا على التعرف علىّ؟ كل هذه السنوات من المقابلات، حتى ولو عن بعد، ليست كافية لكى تصدق حضورى؟ هل تريد، كما يقولون، أمارة؟

أشار زيبيل بالإيجاب وهو يزدرد ريقه.

تنهد جاريبان بحزن ونهض على قدميه، وهو يعرج بسبب المرض الذى أصابه وهو فى سن الثامنة إلخ. مرر أصابعه من تحت القفاز على مكتبة زيبيل وأخرج كتابا رماديا فى حالة مزرية.

– لقد تعارفنا من خلال صفحات هذا الكتاب، فى أحد شهور أبريل البعيدة... كانوا قد قرعوك للتو يا زيبيل، وكنت طفلا سمينا مثل السطل الضخم، عاطلا عن أية موهبة، وفى ذلك الصباح كنت لسبب ما معاقبا بالحبس...

– بسبب المربى – قال زيبيل منبهرا.

– بالضبط – قال جاريبان – سرقة تافهة لبعض المربى: مربى التوت، الآن أتذكر. ولهذا عوقبت بالحبس فى مكتب جدك، وهناك رحت تفتش فى المكتبة، منقبا بين الكتب عن شىء مثير، يمكن أن يتناول الشعر المهفهف واللحم الأبيض وأوضاع الإغراء النسائية...

– كان ذلك طبيعيا فى سن الثانية عشرة – قال زيبيل، وقد أحس بقليل من الحرج.

– وهكذا قرأت عنوان كتابى "السلطانة" وبدا لك العنوان مدخلا لما يمكن أن يكون جنات من الإثارة الجنسية والشبق الشرقى، وغرقت فى القراءة لكى تكتشف بعد قليل أن السلطانة ليست إلا مهرة، وأننى لست من المؤلفين السهلين...

– ماذا تقول؟ اعترض زيبيل.

فقال جاريبان مدققا: ونمت مرتين، المرة الأولى فى وصف عبور الفنسين والثانية أثناء الحوار حول الروح القدس بين الخورى والفتى الملحد. وأيقظتك دقات الساعة.

- كتبت دراسة معروفة جدا حول ذلك الكتاب...

وقال جاريبان بابتسامة ساخرة - لا أشك فى هذا، لأنك وأنت فى محبسك فى ذلك اليوم، جاءتك الفكرة العبقرية التى غيرت مجرى حياتك. فكرت: لو أننى قرأت كل شىء، دون أن أفوت شيئا، عن هذا المؤلف المرهق، فسوف أصبح متمكنا من كافة أعماله الكثيرة، وسوف أصنع منه قاعدة انطلاق رائعة لمستقبلى. سوف أصبح المفسر والمترجم والمروج والناقد والخبير والوريث والوكيل الوحيد والحصرى لجاريبان. سوف تصبح واحة جاريبان المحمية ملكية خاصة لى. هناك سوف أكون أنا الرئيس، وسوف أقتلع الآخرين بأنيابى وأظافرى. وبالفعل قمت منذ ذلك الوقت بالاستماتة فى الدفاع عن غزوتك عاويا مثل هذا الكلب الذى أعطيته ذلك الاسم الساحلى المروع. لقد بنيت فوق اسمى قلعة سمعتك الأدبية.

- بالضبط، فعلا.. ذلك اليوم من شهر أبريل، ومربى التوت، والكتاب - قال زيبيل وهو ينهار فوق أحد المقاعد - ولكننى لا أفهم يا أستاذى ما سر هذا... الظهور.

- أفهمه أنا يا عزيزى زيبيل - قال جاريبان - منذ زمن وأنا مدين لك بزيارة. منذ سنوات وأنت تستشهد بى فى محادثاتك (فهل أكون

ممتنا لك؟) بمتوسط مائة وعشرين مرة فى اليوم. ترجمت جميع كتبى، بما فى ذلك الأوراق المهملة التى تركتها بعد وفاتى والمسودات، وكتبت عشرات الدراسات عنى، وأنت رئيس جائزة أدبية باسمى، وتقدم منهجا دراسيا عنى بالجامعة تجمع فيه عشرات من الشبان من القراء المحتملين لأعمالى، وقمت برعاية أعمال مسرحية معدة عن أعمالى، وأنت مستشار متخصص فى جاريبان لثلاث محطات تليفزيونية، وتنظم حفلات عشاء تتضمن وصفات لطبخات مذكورة فى كتابى "لوكاندة برادونيه".

- ولا يعجبك؟

- كلا! - صاح جاريبان، وهو يضرب الأرض بعصاه ضربة قوية انتفض لها زيبيل - أنت تستشهد بى عمال على بطال، فى تفسير مسائل الطلاق ومرض الثعلبة، وسباقات فورميولا والشمولية، وتنتزع من كلامى رأيا مستنيرا فى موضوعات لم أحلم فى حياتى أن أقترب منها من قريب أو من بعيد، وتستخدم اسمى لكى تدمر كتابا شبانًا، وتقارننى بأدباء لهم مقام مرموق وتسبهم فى هذه المقارنة وهم تحت فى كهف المراجع يغضبون منى...

- ولكن يا أستاذى...

- بلا أستاذ ولا أستاذ - قال جاريبان وهو يقطع الغرفة جيئة ورواحا بعصبية - لا تقاطعنى، لقد أسهبت فى الحديث عنى لسنوات،

فلتخرس الآن. لقد حنطتنى وقطعتنى ونبشت قبرى، وجعلت من تفاصيل لا معنى لها فى حياتى أمثولة. تستشهد بى على أنى عدو المرأة عندما تريد أن تحرج إحدى الصحفيات، وعلى أننى شاذ جنسيا لو كان ذلك سيجعل الصالون يصغى السمع إليك، وكشبق جنسى مهوس عندما تريد أن تستثير إحدى تلميذاتك، ألصقت بى عشرة أمراض لم أصب بأى منها فى حياتى مطلقًا، جعلتنى أجزع وأتألم فى كل مكان، على شاطئ البحر وأنا استمتع بالشمس، وفى الجبال وأنا أتلمس شيئا من النقاهة. اسمع ما تقوله هنا فى إحدى دراساتك: "ولكنه لم يكن يستطيع أن يستمتع استمتاعا تاما بالشمس البروفنسالية الجميلة، فكل شىء كان يبدو له رماديا، لأنه هناك، ضائعا يتحدث بلغة السياح البلهاء السوقية، أو وحيدا على مائدة فى بار، كان يفكر فى تحفته القادمة "أبسالون..."

– ألا يرضيك هذا؟ – سأل زيبيل بخجل!

– كنت مثل الباشا فى سان مالو، كنت آكل المحار ثلاث مرات يوميا وكنت أرى بعض أفضل أرداف الفرنسيات تمر من أمامى. لقد قمت باستغلال الصبر المحتوم لنا نحن الأموات؛ لكى تنسب لى أمراضك الوراثية والعصبية كلها. فضلا عن استغلالك الوقح لأعمالى. اقرأ فى صفحة اثنتين وعشرين: "ماذا كان عساه يقول جاريبان وهو يقرأ هذا النثر المشوش المتلعثم لهؤلاء الكتاب الشبان؟ من المؤكد أنه كان سيرفع فى وجوههم إصبعه المحتجة الصارمة وكان سيطردهم محتقرا شر طرد من عالم الأدب". هل أكون أنا هذا الزعيم الكريه، هذا البوم ذو الإصبع

المصوب نحو صدور الشباب؟ إن هذا هو السبب فى أن عشرات من القراء الشبان ابتعدوا عني. لقد جعلت منى زير نساء ينطبق على صورتك وشبهك.

– ولكن...

– ولكن ماذا ! إنك تحفظ كتبى عن ظهر قلب، ولكننى أشك فى أنك قرأت شيئا آخر. هل تعرف كولبرتسون؟

– القليل...

– "القليل؟" فكيف إذًا تكتب أن كولبرتسون ليس إلا مقلدا متواضعا، وأنه نهل منى مظهر الأسلوب ولم يقترب من عبقريتى... هل تعرف أنك بهذه الجملة جعلت كولبرتسون لا يكلمنى منذ عشر سنوات، وأشك أيضا أنه أحيانا ما يبول على سجائرى..

– إننى محبط...

– ليتك تحبط! لقد صنعت نجاحك العملى باستغلال اسمى! – صرخ جاريبان، والدم يغلى أكثر في عروقه ويصعد إلى وجهه وهو يصوب العصا بخطورة أكثر فى وجه زيبيل – استخدمتنى ستارا لأحقادك وجرائمك، ولكننى الآن أقول لك: كفى!

– ولكن الترجمات يا أستاذ، ترجماتى! أعوام وأعوام من العمل الجاد الدؤوب...

نظر إليه جاريبان كما أنه يريد أن يتبلعه فى مكانه.

- يا سلام! إليك مثال: "وقال لها عندما قابلها ترتعش وقد أغرقها الماء من جراء ركضها فى الأحراش، وقد خاف عليها أن يصيبها داء السل من جديد، وبعد أن خلع على ظهرها معطفه: أنت تتجمدين يا عزيزتى.."

- جميل، أليس كذلك؟

- جميل؟ إنه يقتلنى غيظا. إنها لم تقطع سوى عشرة أمتار تحت المطر وأنت بدأت تقتلها بالسل. أما أنا فقد كتبت ما معناه: لما رآها يبللها العرق وخشى على صحتها المعتلة وضع عليها سترته بأدب وقال: هل أنت مصابة بالبرد يا آنستى؟

- ولكننى أردت أن أبرز فى كل عبارة نبل روحك ورقى أسلوبك وحساسيتك الاجتماعية - غمغم زيبيل.

- جميل جدا فى الحقيقة - قال جاريبان، وهو يعيد ترتيب كرشه ويلقى نظرة على الساعة - وكشىء قبل أخير أريد أن أتحدث عما وقع هذا المساء فى صالون المعمارية P.

آه، نعم - قال زيبيل وقد أضاء وجهه - من الناحية العملية كانت سهرة على شرفك.

- بالتأكيد، لقد أطريت على رغبتك فى جعلى نوعا من الأبطال الصناديد المدافعين عن الفقراء فى مواجهة هؤلاء المليارديرات شديدى الحساسية. والآن لو لم تكن حيوان ترجمة لكنت فهمت أن عائلة دى بلومبييه ليست عائلة سباكين ولكنها من العائلات النبيلة فى مدينتى، هى عائلة دى بلومبييه-مولين -ارجوت، والتى انتهى بها الحال بالخراب من جراء سلسلة من الإضرابات والتمرد من جانب الغوغاء، ومن هنا جاء الجو الحزين فى عشاء عيد الميلاد. إذا لم تكن تعيش على مرتب، مرتبى أنا، فلابد أن تعرف أنه فى ذلك الوقت وحتى الآن يكسب السباك أكثر من أى شاعر أو نبيل سابق. ومن ثم فإن العشاء الشهير الذى أشرت إليه سيادتك دليلا على حسى الاجتماعى ليس فى الحقيقة إلا دفاعا حميما للامتياز الأرستقراطى فى مواجهة المد المتصاعد للمساواة بالسباكين. كان لابد أن تفهم هذا، خاصة أنه فى لحظة معينة تطلب الزوجة من الزوج: "ناولنى سلطانية حساء طائر الحجل قبل أن يبرد من فضلك". هل تبدو لك جملة لها مصداقية على طاولة عشاء عيد الميلاد عند سباك؟ كان من السهل على الجميع أن يدرك هذا، بما فى ذلك الآنسة سيلين، التى بإلهام منى تقوم الآن بكتابة مقال عنيف جارح ضدك بعنوان: "أغرب السباكين عند زينو زينيل".

- آه آه.. - تنهد زيبيل.

وتابع جاربيان دون هوادة: - وآخر ما أقوله لك إننى طلبت من إدارة الاستشهادات والاحتفالات لكهف المراجع السفلى اتخاذ

الإجراءات اللازمة ضد الاستغلال غير المميز الذى تقوم به لاسمى وأعمالى، وقد وافقوا على تخليصى منك.

- تخليصك بأى معنى؟ - احتج زيبيل. - إنك لا تستطيع أن تمنعنى من استغلا... من تخليد ذكراك للأبد.

- بل أستطيع - قال جاريبان - وداعا زيبيل، إلى ألا نلتقى أبدا.

قال هذا وأحيط بضوء ملون ووسط عويل الكلب كانى المذعور بدأ فى عملية تحلل دقيقة المعايير ثم تلاشى.

كانت رأس زيبيل تدور وتتألم. وراح الكلب كانى يركض هنا وهناك على غير هدى وهو لا يكف عن العواء مستسلما. وانتشرت فى الهواء رائحة الكبريت. تناول زيبيل آليا علبة طعام الكلاب وسكب محتواها غير الصحى فى القدح.

- هنا - قال بصوت منطفئ - تعال هنا، ما اسمك أيها الكلب الصغير...

كان يحاول أن يتذكر لماذا يحس بهذا الاضطراب الكبير. فى تلك اللحظة دق جرس التليفون. كان رئيس تحرير الصحيفة التى يتعاون معها.

- اسمع يا زيبيل، جاءنى خبر من مصادرنا فى صالة تحرير الصحيفة المنافسة. هذه الأفعى المسماة سيلين ضربتك فى مقتل فى

ترجمة "عشاء عيد الميلاد" وسوف تنشر غدا مقالا فيه سم زعاف. ولكن لا خوف. فقد اتصلت بفاستيللى وفيستوتشى وأخرجنا معا صفحة كاملة عن الموضوع، فكتب فاستيللى مقالا عن "الغموض والسخرية فى عشاء عيد الميلاد" وعثر فيستوتشى على مقال قديم لسليلين تتحدث فيه عن مشدات صدور النساء. سوف نعادل الضربة. لا ينقصنا بالطبع سوى الضربة القاضية، مقالك.

نعم؟ – قال زيبيل متعبا – أية ضربة قاضية؟

شجعه رئيس التحرير: – مقالك، أى شىء من عينة "الدرس الحقيقى لجاريبان" أو "خيانة جاريبان" أو "جاريبانى". مائة سطر تصلنى قبل منتصف الليل. لماذا لا ترد؟ هل هناك شىء غير مضبوط؟

– نعم – قال زيبيل – من هو جاريبان هذا؟

٢٧

قناص

كان الجندى الشاب يطل من النافذة فى الطابق الرابع من العمارة المهجورة، وكان يسمع تلك الموسيقى الغريبة. كانت من البعد بحيث لم يكن يفهم أية أغنية يمكن أن تكون هذه. بين الحين والآخر كان يبدو أن الريح تدفعها فى اتجاهه وفى اللحظة التى يبدو له فيها أنه تعرف عليها كانت الريح تبعدها عنه. كان الجندى يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما يرتدى بزة مموهة أوسع كثيرا من مقاسه. ويضع على رأسه عصابة تحمل ألوان فريق كرة قدم. وشم على مقدمة إحدى ذراعيه اسم خطيبته، وعلى الذراع الأخرى شعار المنطقة التى ولد فيها، وتحته سيفان متقاطعان. شعره القصير جدا كان مصبوغا باللون البنفسجي. ذلك أنه بعد ثلاث سنوات من الحرب ترك الجيش الشمالى بعض الحرية فى الزى العسكرى. كان يكفى أن يكون الزى مميزا بوضوح. كان القناصون والرماة المختارون يتبارون فى اختيار الزى الأكثر عدوانية وحداثة. مثل الشاب الذى كان يتقدم الآن وهو يسير بخطوات القط على أرض

مشغولة بالمظاريف النارية وبقايا جير الجدران. كان له من العمر نحو العشرين عاما، ووجه ناضج وقبعة سوداء قبيحة على طريقة رعاة البقر بها أربعة قرون حمراء: واحد لكل عدو مقتول. دبشك البندقية كان مرصعا بالكتابات الخليعة. وكانت أربعة حلقان من الذهب تتعلق من إحدى أذنيه وواحد من الشفة السفلى.

– أهلا يا بيكوس – قال الجندى الأول.

– أهلا يا تامبورينو – قال الثانى – ما الموقف؟

– إنهم مختبئون فى مكان ما، هناك تحت – قال تامبورينو، وهو يشير إلى الشارع المهجور الذى ينتهى بنفق مشاة، كان مدخله مسدودا ببعض الأنقاض وبقايا أحد المتاريس.

– ربما كانوا وراء اللافتات؟ – قال بيكوس.

– لا أعتقد.

كان الجنديان موجودين فى مكان كان من المفروض أن يكون ذات يوم مكتبا. أصبحت جميع ألواح الزجاج حاليا محطمة بسبب القصف، وبقايا جير الجدران تشغل نصف الغرفة، ودواليب الملفات مقلوبة، ولم يتبق سوى مكتب، ملىء بعلب البيرة، وتليفزيون بائس عار من كل أزراره، وضع فيه أحد الظرفاء صورة نصفية للرئيس. كانت هناك بقع من الدم على موكيت الأرضية الفاتح اللون وخزائن رصاص المدافع الرشاشة فى كل مكان.

جلس بيكوس على الأرض، لف سيجارة، وابتلع قرصا من المنشطات. خلع القبعة. كان شعره مجعدا وعلى هيئة صليب محفور على جمجمة حليقة.

– هؤلاء الخنازير الجنوبيون اصطادوا واحدا من الفرقة هذا الصباح. الجيكو، ذلك البندقى الطويل ذو الشعر الذى يشبه الموبهكان(٦). ذبحوه من عنقه وهو ينزل من سيارة الجيب. كان الضباب كثيفا وكان هو بطيئا جدا.

– أمر وارد – علق تامبورينو.

– حسنا – قال بيكوس، وهو يعلق البندقية على رقبته – أفكر فى أن أذهب إلى الجانب الآخر من العمارة، حيث توجد الجراجات. إذا سمعت صوت إطلاق الرصاص فهذا معناه أننى سوف أعود إلى البيت غدا.

– من الأفضل أن تسمعنى أنت وأنا أطلق الرصاص – قال تامبورينو – إننى منذ شهرين وأنا هنا فوق، إننى فى سبيلى لأن أجن. لقد أصبحت أمارس العادة السرية على إعلانات الملابس الداخلية فى الشارع.

– لا ترفيه ولا إجازات. ليس هذا ذنبى إذا لم تكن تجيد إطلاق النار. أنت فى العزف على الباترى ماهر ولكنك مع البندقية ضعيف جدا.

---

(٦) السكان الأصليون لأمريكا الشمالية.

– بل إننى نلت من ثلاثة، أى أقل منك بواحد فقط أيها المأفون. إيه! ولكن ألا تسمع هذه الموسيقى؟

كان يصل إلى السمع صوت بعيد لطائرة تسقط حمولتها. هز بيكوس رأسه.

– لا أسمع شيئا.. أو ربما، نعم، إنه صوت بعيد جدا.

– لا أفلح فى تمييز أى موسيقى هى.. – قال تامبورينو.

ظل الشابان ساكنين، فى محاولة السماع بين كل انفجار وآخر. عبر كلب الشارع فجأة، فصوب بيكوس بندقيته. أحيانا يكون خلف كل كلب سيده. أو واحد يريد أن يأكله.

– أراهن بمائة مارك أننى أستطيع أن أصيبه – قال بيكوس.

– دعك منه.

اختفى الكلب بين حطام السيارات فى شارع جانبى. توقفت الانفجارات وأصبحت الموسيقى فجأة أكثر وضوحا.

– إنه فريق رولنج ستونز الغنائى – قال بيكوس بحسم.

– ما هذا الهراء الذى تقوله؟ إنها شيء مختلف تماما.

– أؤكد لك إنه الرولنج.. هل تحب أن أغنيها لك.. إنها الأغنية التى تقول "she was blinded by lo-o-ove" هل تسمع؟

– اذهب إلى الجحيم – قال تامبورينو وهو يعتقد أن الآخر يهزأ به
– إنها على طرف لسانى منذ ساعة، وهى أغنية روك قديمة عمرها عشر سنوات، وهى قطعة تعلمت أن أعزفها على الباترى.

– إلى الجحيم أنت وكل عازفى الباترى والجنوبيين وموسيقاهم النجسة – قال بيكوس – أنا ذاهب إلى الشرفة لكى أتابع الناحية الأخرى.

– حسنا – قال تامبورينو. سمع دقات حذاء بيكوس الضخمة الثقيلة وهى تبعد عبر سلالم العمارة المهجورة. وضع البندقية جانبا وأشعل سيجارة. تثاءب. شهران وستة أيام وهو هنا فى الأعلى وإذا لم يسقط أحد فلا إجازات. فكر فى أنه ربما كان من الأفضل له أن يبقى فى مقر القيادة. هناك كان مؤكدا أنه سيعود إلى البيت مرة واحدة على الأقل كل شهر. ولكن كان هناك خطورة المشاركة فى سرية إعدام، لقد شاركت فيها مرة ولم تعجبنى. ثم إننى رام ماهر. أجيد الرماية. ربما كان اليوم هو برج حظى.

زادت درجة صوت الموسيقى، ولكن فى هذه المرة لم تكن الريح هى التى تحملها. كان شخص يخرج من النفق. لاحظ تامبورينو رعشة فى اليدين وألما فى العنق. عندما كان يتهيأ لإطلاق النار كانت تتصلب عضلات وجهه، وكانت أسنانه أحيانا ما تصطك أيضا. ولكنها حالة كانت تزول بسرعة. فى لحظة التصويب سوف يكون هادئا ودقيقا كعادته دائما. اقتربت الموسيقى. إنها تأتى الآن من خلف اللافتة الإعلانية المخرمة من

جراء الطلقات، بكتابات الحركات المناصرة للسلام والمناهضة للحكومة. كان من بينها كتابة كبيرة باللون الأحمر:

هل رأيت أبدا طلقة ساكسفون؟

كان هذا عنوان مقطوعة للاست تير. كان قد شاهد جميع حفلات لاست تير قبل الحرب. ربما كانت هذه الموسيقى بالتحديد هى موسيقى لاست تير. على أى حال أصبح مسموعا الآن بوضوح صوت الباص والباترى، وكان الباترى رائعا وقويا ونابضا وكان يغير الإيقاع باستمرار، كان هو يفهم فى هذا، كان قبل الالتحاق بالجيش من العازفين المهرة للباترى، وذلك الذى كان يسمعه كان أستاذا فى الباترى، عازفا يعتبر ظاهرة، من ذلك المعتوه الذى يعلن عن نفسه بهذه الموسيقى بأعلى صوت، وأيضا من عازف الباترى العظيم هذا، حتى إن لم تكن هذه هى اللحظة المناسبة للتساؤل.

رأى قدمين تتحركان تحت لافتة إعلانات.. ليته لا يكون طفلا. ليتها لا تكون امرأة. أيا من كان فسوف أطلق الرصاص أيضا. أريد أن أعود إلى البيت. أنا أيضا عندى أخ صغير. وخطيبة. ومع ذلك ليته لا يكون طفلا. خرج الجنوبى من مكمنه. كان شابا، طويلا، بقبعة جامايكية حمراء. لابد أنه كان مخمورا حتى يتخلى عن حذره لهذه الدرجة. كان يعرج ويترنح. وينظر نحو العمارة بمنظار مقرب. انبطح تامبورينو أرضا. مسح الجنوبى بمنظاره العمارة طابقا طابقا من أسفل لأعلى، وبدا أنه هدأ. جلس على الرصيف والراديو إلى جانبه: إستيريو ضخم

بهوائيين طويلين مثل هوائيات جراد البحر. يا له من غبى، ليس لديه أى ذوق، فكر تامبورينو. صوب البندقية، تنفس ببطء، وانتظر أن تذهب عنه الرجفة. كان يجب عليه أن يصيبه فى مقتل، لأنه لو جرحه فسوف يكون النفق قريبا منه وبوسعه أيضا أن يعود إلى جحره. ولكنه مخمور ولا يدرك مدى الخطورة، فكر تامبورينو.

كان الجنوبى ممددا فوق الرصيف. لم تكن معه بندقية، وإنما طبنجة فى الحزام. من البنطلون العسكرى الممزق كانت تظهر ساق مهشمة. لم يكن مخمورا وحسب ولكنه كان جريحا أيضا. بساقه السليمة كان يضرب إيقاع لحن الأغنية. وقال تامبورينو من بين أسنانه، يا له من جنس أحمق، ويا له من جندى مهمل، يستلقى فى عرض الطريق ليسمع الموسيقى، كأنه لا يعرف أن هذه المنطقة نسيطر عليها نحن القناصة. ويمكن أن تصيبه رصاصة فى جبهته.

نهض الجنوبى كأنه سمعه على ركبتيه قليلا ونظر فى اتجاهه. خلع القبعة فظهر أشقر، وكان يبدو أنه جريح أيضا فى جبينه. وكأن شيئا لم يحدث أخرج من جيبه حبتين وتناولهما وراح يدق إيقاع الأغنية على الإسفلت. يا للمسيح، إنه محترف، إننى أفهم فى هذا، فكر تامبورينو. انظر كيف يستخدم معصمه، إنه يعرف كيف يعزف الباترى. لقد وقع على عاتقى أن أغتال زميلا. ولكن انظر كم يستمتع هذا المأفون وأنا هنا، بندقيتى فى يدى وهو بالراديو فى عرض الطريق كما لو أن الحرب لم تقع.

مـا نوع هـذا الجنوبي المأفـون الذى وجب على قـتله؟ أدرك أنه مـا يزال يرتعش. وضـع البندقـيـة. ربما كـانت الموسـيـقى هى التى أثارت أعصابه. كان يمكنه على الأقل أن يعرف اسم المقطوعة. لم تكن لرولنج. ولا Talking Heads ولا O Brisa Picerem Gozzem.

كانت مقطوعة من أواخر أعوام الثمانينيات عندما كان هو طفلا. فكر: الآن كفى! الآن سـوف أذهب إلى البيت. الآن سـوف أصـيبـه وسط عينيه. إنه جنوبى مـأفون، من صقلية أو من نابولى، وربما أيضـا أسوأ، بهذه القبـعة يمكن أن يكون من كـتيبـة الوسط، ربما من توسكانا، وأنا أكـره التـوسكانيـين، حـتى إن كـانت كـلارا تـوسكانية، ولكنهـا اخـتـارت الشـمـال، ومن ثم فلتـهـدأ وأطلق النار يلعنك الله، ولكن كم هو عـازف باترى عظيم، وأيضـا هذا الشـاب مـاهر، انظر كيف يضرب بعـصـيـانه الصغيرة فوق الإستيريو، سحقا، هذا هو السبب فى أننى لا أستطيع أن أصـوب جيدا، إننى لا أرتعش، بل أضرب الإيقاع نفسه أنا أيضـا، منذ متى وأنـا لا أسمع الموسيقى، كـأن دهرا مـضـى وأنا هنا فـوق لا أسـمع سـوى سـقـوط القنابل ونبـاح الكلاب، ممنـوع علينا نحن القناصـة أن نحـتفظ بالراديو أو الوكمان، كل شىء ممنوع فى هذا الجيش البـغيض، وذلك الشاب، ما هذا الهراء الذى يفعله الآن؟

نهض الجنوبى وراح يرقص فى وسط الشـارع والإسـتـيـريو على كتفه. لابد أنه شرب حتى الثمالة. رفع درجة الصوت أكثر. يا للمسيح! لو أن بيكوس سمعـه لجاء هو لإطلاق الرصـاص عليـه! فكر تامبـورينو.

الموسيقى اللعينة! أعرف أية قطعة هى فلماذا لا أتذكرها؟ هل تعرف ماذا أفعل الآن؟ سوف أسأله لمن هذه الموسيقى. خاصة وأنه أبله: ليست لديه حتى بندقية، وبالطبنجة وحدها لن يتمكن من إصابتى. لا يناسبنى أن أقتله هكذا غدرا. سوف أهنئه على الموسيقى ثم أرديه قتيلا.

كان قد قرر فجأة ومن ثم لم يستطع أن يتراجع إلى الخلف مرة أخرى. انتفض على قدميه والبندقية مصوبة.

– ارفع يديك لأعلى أيها الجنوبى الحقير!

لم يبد أن الآخر قد فوجئ. رفع يدا واستمر بالأخرى ممسكا بالإستيريو. ولم يتوقف حتى عن الرقص. بل إنه اقترب من العمارة.

– ارفع صوت الموسيقى، أريد أن أفهم ما الذى تسمعه – قال تامبورينو.

أشار الجنوبى بيده موافقا، وسار حتى أصبح تحت النافذة تقريبا، ثم رفع الإستيريو لأعلى وصاح:

– Lost for love. الضياع حبا...

– كنت أعرف، أغنية للاست تير. وعازف الباترى هو إيد فرانسيس.

– أعظمهم جميعا، ألا تسمع كيف يضرب؟ – قال الجنوبى.

– كنت عازف باترى أنت أيضا؟ – سأل تامبورينو.

- كنت عازفا طيبا - قال الآخر.

- حسنا، أنا آسف - قال تامبورينو وهو يصوب بندقيته - أنت تعرف، لو تركتك تمر فلن أحصل على إجازة. ليس لدى موقف منك، ولكنها الحرب. الوداع أيها الزميل.

- الوداع لك أنت يا عازف الباترى - قال الجنوبى. ضغط على زر فى الاستيريو فانطلقت من الراديو الضخم قنبلة يدوية. اشتعلت فى الهواء ودمرت النافذة وأحدثت جلبة كبيرة ووميضا أبيض يعمى البصر.

عندما انقشعت السحابة لم يكن هناك أى أثر لتامبورينو. الموسيقى أيضا كانت قد توقفت. نظر الجنوبى طويلا إلى النافذة التى خرجت أحشاؤها. كانت تصل إلى المسامع أصوات فرقعة جير الجدران وهو يواصل السقوط على الأرض. كان عليه أن يعيد شحن سلاح الراديو بقنبلة جديدة. ولكنه كان متعبا. لم تواته حتى الرغبة فى إبلاغ قائد فرقته بأمر القتل، من أجل الإجازة. ربما لم تعد لديه رغبة فى العودة إلى البيت. رفع صوت الموسيقى إلى أعلى درجة لها وظل مستلقيا على الإسفلت مغمض العينين.

المؤلف في سطور:

ستيفانو بيني

ولد في مدينة بولونيا الإيطالية عام ١٩٤٧، ويعمل صحفيا وكاتبا وشاعرا، ويتعاون مع أكثر من صحيفة ومجلة. يرأس في دار نشر فيلترنيللي سلسلة "أوكسجين"، كما أن له مساهمات سينمائية ومسرحية وموسيقية. أسس بيني مشروع "التعدد الخيالي"، وهو مستشار حال لمهرجان موسيقى الجاز الدولي الذي يقام سنويا. نشر العديد من الروايات والمجموعات القصصية واشتهر بأسلوبه الساخر في معالجته لقضايا الواقع الإيطالي. وأسس قراؤه موسوعة على شبكة الإنترنت بعنوان Bennilogia للتعريف بأدبه وإدارة نقاش حول أعماله.

المترجم فى سطور:

حسين محمود حسين حمودة

- رئيس قسم اللغة الإيطالية وآدابها، كلية الآداب، جامعة حلوان.
- ناقد أدبى لمجلات عربية ومصرية (مقالات نقدية حول الأدبين العربى والعالمى)
- مستشار لغوى لدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.
- مترجم حر، وصحفى حر.
- عضو هيئة تحرير ببليوجرافيا الأدب الإيطالى العالمية - دار نشر ساليرنو - روما

من أهم أعماله

(باللغة الإيطالية)

١- "موقف النقدالأدبى من إبداع الكاتبات اليمنيات"، روما ٢٠١٠ .

٢ - "التأثير الثقافى للأدب الإيطالى على الأدب العربى"، منشورات وزارة الثقافة الإيطالية، روما ٢٠٠٩ .

٣ – الكتاب المهاجرون العرب فى إيطاليا، بولتزونى، روما ٢٠٠٧ .

٤ – الجوائر الأدبية والإرهاب والهجرة : عوامل أثرت على وجود الثقافة العربية فى إيطاليا اليوم، "كوما . تهجين أوروبا"، جامعة روما (لاسابينسا).

٥ – بعض مشاكل الترجمة الصحفية فى الصحافة العربية، (القاهرة) (٢٠٠٠) .

٦ – المناهج الحالية للنقد الأدبى ، مسرح داريو فو وموقفه من قضايا التحرر الوطنى: – فدائيون، (القاهرة) (٢٠٠٠).

٧ – حضور الثقافة الإيطالية فى الصحافة العربية، سورنتو، إيطاليا (١٩٨٢).

باللغة العربية :

١ – إليو فيتورينى، محادثة فى صقلية، ترجمة وتقديم، المركز القومى للترجمة، القاهرة (تحت الطبع) .

٢ – ريتا دى ميليو، الإيلام ذلك المجهول فى الغرب، ترجمة، رابطة الجامعات الإسلامية، القاهرة (٢٠١٠)

٣ – جوزيف راتزنجر، عيسى الناصرى، ترجمة مع آخرين، دار الشروق الدولية القاهرة، (٢٠١٠).

٤ – مختارات من الشعر الإيطالى المعاصر، إعداد وترجمة، كلمة، أبو ظبى (٢٠١٠).

٥ – فالديمارو فيورنتينو، إيطاليا وطن العلماء، دار الشروق الدولية، (القاهرة ٢٠١٠).

٦ – ماركو اللونى، رسائل الطموح، ترجمة، بعد البحر، القاهرة (٢٠٠٩).

٧ – تشيزاري براندي، نظرية الترجمة، مراجعة، المجلس الأعلى للآثار بمصر والمعهد العالي المركزي للترميم بروما ISCR، ٢٠٠٧ .

٨ – ستفانو بيني، الدمعة الأخيرة، ترجمة وتقديم، شرقيات، القاهرة ٢٠٠٧ .

٩ – تاريخ مختلف، ترجمة لكتاب أرماندو نيشي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٧

١٠ – الأدب الأوروبى من منظور الآخر، ترجمة مع آخرين لكتاب فرانكا سينوبولي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٧ .

١١ – مصر فى عصر الفوضى، من خلال الوثائق الإيطالية غير المنشورة، مراجعة وتقديم كتاب أنجلو ساماركو، دار الوثائق القومية والمجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٧

١٢ – أبواب الهوى، ترجمة مختارت كبار كتاب القصة الإيطالية فى القرن العشرين، مع آخرين، شرقيات، القاهرة ٢٠٠٦ .

١٣ - خرز ملون، أنطولوجيا الرواية النسائية فى إيطاليا، ترجمة مع آخرين، دار شرقيات - القاهرة ٢٠٠٤ .

١٤ - أوتار مشدودة، قصص قصيرة للكتاب الشبان الإيطاليين، ترجمة ومراجعة بالمشاركة مع د. أحمد المغربى ود. فوزى عيسى، دار شرقيات القاهرة ٢٠٠٥ .

١٥ - أنجلو ساماركو، وثائق البحرية المصرية فى عهد محمد علي، مراجعة وتقديم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠٠٥ .

١٦ - داريو فو : السيدة لا تصلح إلا للرمي، ترجمة وتقديم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨

التصـــحيح اللغـــوى : **إبراهيم عبد التواب**

الإشـــراف الفـــنى : **حـــسن كـامـل**

مجموعة تضم 27 قصة قصيرة تستعرض بأسلوب يجمع بين الخيال العلمى والسخرية شخصيات متعددة الأطياف، وتكشف بعنف عن مدى بشاعة المستقبل إذا استمسك العالم بزيف الواقع الحالى. يحكى ستيفانو بينى فى هذه المجموعة عن المنتصرين الظالمين والمتسلقين والمتطفلين والفاسدين ونزواتهم. حتى ماكينات الصرف الآلى تحولت إلى شخصيات تستطيع أن تتعرف على شخصيتك، وتورطك فى مؤمرات الفساد. يعرى ستيفانو بينى فى المجموعة "التوحش" الذى ينطوى عليه الواقع، ويكشف عن وحوش الماضىوالحاضر والمستقبل، ويقدم لكل وحش من هذه الوحوش قصة تضحكنا، وفى نفس الوقت تقرع لنا أجراس الإنذار حتى ننقذ مستقبل العالم من وحشيته. يستلهم الكاتب قصصه من الواقع الإيطالى اليوم، ويعالج على نحو خاص ظواهر اليمين الجديد والهوس الإعلامى الذى يفـ
الثقافى الحقيقى، وهو فى أسلوبه القصصى لا يتو
لكى يقدم لنا ضحكة صادمة أو دمعة ساخرة. الد
التى تؤمن بقدرة القلم والخيال على المقاومة والت

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح